بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١ إلى الآية ٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة التوبة، وهي مدنية.

{بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:١ -٢].

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما روى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: آخر آية نزلت: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} [سورة النساء:١٧٦] وآخر سورة نزلت براءة[١].

وإنما لا يبسمل في أولها؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه سورة براءة، وسميت بهذا؛ لأنها بُدئت بالبراءة من المشركين، {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، ولها أسماء أخرى وردت أيضاً عن بعض الصحابة -رضي الله عنهم-، وبعض هذه الأسماء جاءت بروايات صحيحة، ومما ورد في أسمائها غير براءة أنه يقال لها: سورة التوبة، وذلك لما جاء في آخرها من توبة الله -عز وجل- على الثلاثة الذين خُلفوا عن غزوة تبوك، وهذان الاسمان من أشهر أسمائها، ويقال لها أيضاً: سورة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، فما بقي إلا أن تذكر أسماءهم، وقد ذكرت أوصافهم الدقيقة، فما زال -كما قال ابن عباس -رضي الله عنه-: ينزل: ومنهم، ومنهم، ومنهم، يقول: حتى ظننا أنها لا تترك أحداً[٢]، وذكرت مقالاتهم، {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي} [سورة التوبة:٤٩]، وذكرت أعذارهم الكاذبة، وكذلك يقال لها: سورة البحوث؛ لأنها بحثت في نفوس المنافقين، واستخرجت مكنوناتهم، وما يخفون من النفاق، وهكذا يقال لها: المبعثرة؛ لأنها بعثرت عن نفوسهم، والمقشقشة؛ لكونها تبرئ من النفاق، والمخزية فهي خزي على المنافقين، أخزتهم فضحتهم، وهكذا المثيرة، أثارت عما في نفوس أهل النفاق، والحافرة والمنكلة والمدمدمة، هذه جملة أسماء هذه السورة.

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٧٧).

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، برقم (٤٦٠٠)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، برقم (٣٠٣١).

قال: **هذه السورة من أواخر ما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-**، وهذا لا شك فيه، ولذلك فإن ما ورد في شأن القتال آخر ما نزل منه كان في هذه السورة، وإن كان بعض الآيات التي تضمنتها مما قد يقال: إنها منسوخة، وغالب ذلك يكون ناسخها من هذه السورة، كقوله تعالى مثلاً: **{انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً}** [سورة التوبة:٤١] كما سيأتي، نسخ بقوله: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً}** [سورة التوبة:١٢٢].

فهذه السورة نزلت بعد اكتمال قوة المسلمين، وكثرة عددهم، فجاءت بهذه الأحكام والآيات، كقوله -تبارك وتعالى- في الآية الخامسة منها وهي آية السيف: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [سورة التوبة:٥] الآية، فهذه قيل: إنها نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، قالوا: كل آية فيها عفو وصفح وإعراض عن المشركين فهي منسوخة بهذه الآية، وهي آية السيف، وهذا وإن كان فيه نظر إلا أن ذلك يدل على أن هذه السورة قد تضمنت أحكاماً قوية، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذه الآيات كآية السيف يعمل بها في أوقات قوة المسلمين وظهورهم وتمكنهم في الأرض، وإذا كانوا في حال من الضعف فإنهم يعملون بآيات العفو والصفح والصبر والإعراض عن المشركين، والكف، كف الأيدي حتى تصير لهم قوة، ولذلك يقال: إنه لا يصح أن يصور حال الإسلام بالآيات التي نزلت بمكة في وقت القلة والضعف والعجز، أو أوائل ما نزل في المدينة كقوله -تبارك وتعالى-: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}**، أو قوله: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ}**، وأشباه ذلك، لا يمكن أن تصوَّر طبيعة الإسلام وحال الإسلام بالآيات المكية: **{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}** [سورة البقرة:١٠٩]، وآيات الكف والإعراض، ولا بأوائل ما نزل في المدينة، وإنما هذه السورة تمثل ما انتهى إليه التشريع فيما يتعلق بالقتال والعلاقة مع المشركين، والآيات الأولى الراجح أنها لم تنسخ، وإنما هذا الدين فيه عزائم وفيه رخص، ففي أوقات الضعف يُعمل بالرخص، وفي أوقات القوة يعمل بالعزائم، لكن حينما نصور الإسلام بصورة مبنية على الآيات النازلة بمكة من العفو والصفح والإعراض أو أوائل ما نزل في المدينة، فهذا تشويه لصورة الإسلام ولا شك، والناس في هذا بين طرفين وواسطة، فمن الناس من يمسخ الإسلام مسخاً، ويصور الإسلام بصورة على غير ما أنزله الله -عز وجل-، فيملئون الدنيا بكتاباتهم وكلامهم عن التسامح، وأن هذا الإسلام دين التسامح، وأن القتال شرع للدفاع، وحتى الدفاع ما سلم منهم، فهذا خطأ، ومن الناس من يريد أن يأخذ بآيات العزائم، ويطبقها في حالٍ من تشتت الأمة وضعفها، وكأن الأمة في أقوى مراحلها، هذا غير صحيح، إنما ينبغي النظر في مثل هذه الأمور بحسب حال الأمة، ولا يجوز لأحد أن يفتئت عليها، ولا أن ينوب عنها من آحاد الناس بإقامة مثل هذه الأمور.

وهنا قال: **وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه**، هذا جواب حسن؛ لأن الصحابة لم يكتبوها، لكنه يرِد على هذا أيضاً سؤال، لماذا لم يكتبها الصحابة؟

فمن أهل العلم -وقد نقل هذا عن بعض الصحابة -رضي الله عنهم- كعلي -رضي الله عنه- من قال: إن هذه السورة نزلت بالقتال والبراءة من المشركين، فأسقطت فيها البسملة لذلك، وقد قال بعض أهل العلم: إنه كانت من عادة العرب أنهم إذا كتبوا في نقض العهد مع من بينهم وبينه عهد إذا أرادوا أن ينبذوا إليه عهده لم

يبسملوا في الخطاب، قالوا: فالبسملة أمان، وهذه السورة جاءت بالبراءة والقتال للمشركين، هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: إنه نسخ أولها، وكان مما نسخ البسملة، وجاء في رواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أنه سأل عثمان -رضي الله عنه - عن هذا، فكان من حاصل الجواب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم - كان إذا نزلت عليه سورة بين لهم، وأنه -صلى الله عليه وسلم - قد توفي ولم يبين لهم ما يتصل بسورة التوبة والأنفال، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فلما رتبوا السور في القرآن جعلوا براءة بعد الأنفال؛ لأنها شبيهة بها، فمنهم من يقول: إنهما سورة واحدة، ومنهم من يقول: هما سورتان، فجعلوهما هكذا، ولم يجعلوا (بسم الله الرحمن الرحيم) بينهما، وهذا باطل، والرواية التي فيه لا تصح، لا تصح من جهة الإسناد وهي منكرة أيضاً من جهة المعنى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - بيّن ما يتعلق بالقرآن بياناً شافياً لا إشكال فيه، والصحابة -رضي الله تعالى عنهم - لم يلتبس عليهم شيء من أمر القرآن إطلاقاً، وسورة براءة هي هكذا نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم -، والصحابة -رضي الله تعالى عنهم - كانوا يسمعونها من النبي -صلى الله عليه وسلم - على المنبر وفي الصلاة وفي خارج الصلاة، كما جاء أن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - سمع النبي -صلى الله عليه وسلم - يقرأ من سورة براءة، يقرأ آيات من سورة براءة على المنبر، في القصة المعروفة لما سأل متى نزلت هذه السورة، أثناء الخطبة، فالشاهد: أن الصحابة كانوا يسمعون ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم -، ويتلقونه عنه، فيثبتون ما سمعوا وما أُقرئوا، ولا يتصرفون من عند أنفسهم.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم -...

الأقوال التي تقول بأن السورة نزلت من غير البسملة؛ لأنها نزلت بالسيف، أو لأنها نزلت بالبراءة من المشركين أو إلى آخره، هذا كله باعتبار أنهم تلقوها من النبي -صلى الله عليه وسلم - من غير البسملة، كل هذه الأقوال ترجع إلى هذا طبعاً، إلا على الأثر المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أنه سأل عثمان، فيكون الصحابة بهذا الاعتبار هم الذين تركوا البسملة، ولكن هذا باطل، فالحاصل أن السورة نزلت هكذا، لكن هذه التعليلات التي سمعتم من قائلٍ بأنها جاءت بالسيف، وابن كثير -رحمه الله - أعرض عن هذا، قال: كتبها الصحابة هكذا.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما رجع من غزوة تبوك وهمَّ بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه - أميرًا على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويُعلِم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه - ليكون مبلغًا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، لكونه عَصَبَةً له، كما سيأتي بيانه.

يعني أن صدر سورة براءة نزل بعدما انطلق أبو بكر -رضي الله عنه - في السنة التاسعة إلى الحج، فنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم - فبعث به علياً ينادي بهذه الآيات، وبعضهم يقول: إن الذي نزل من صدرها ثلاثون آية، والسورة لم تنزل جملة واحدة قطعاً، وكثير من الآيات التي فيها تحدثت عن غزوة تبوك

وما وقع من المنافقين في أثنائها، وما حصل منهم من الأعذار الكاذبة بعدها، وما حصل منهم قبل الغزوة، فالله -عز وجل- يقول: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [سورة التوبة:١١٧]، وقال: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ} [سورة التوبة:١١٨]، هذا كان بعد غزوة تبوك، بعد الغزوة، وقال: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ} [سورة التوبة:٧٤]، وذكر الأعذار الكاذبة التي جاءوا بها للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما رجع من غزوة تبوك.

فقوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: هذه براءة، أي: تبرؤٌ من الله ورسوله.

مما نزل في أثنائها -في أثناء غزوة تبوك- في القصة المعروفة لما استهزءوا، استهزأ مجموعة من المنافقين بالقرّاء، فنزلت الآيات: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ} [سورة التوبة:٦٥-٦٦]، هذه نزلت في أثناء غزوة تبوك، بدليل حديث ابن عمر لما نزلت هذه الآيات، يقول: فكأني أنظر إلى أحد هؤلاء متعلقاً بخطام ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- والحجارة تنكأ قدميه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونعلب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يزيد أن يقرأ هذه الآية، ولا يلتفت إليه، فهذا في أثناء الغزوة.

فقوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: هذه براءة، أي: تبرؤٌ من الله ورسوله، {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}.

قوله: {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، قال: **أي هذه براءة**، فتكون "براءة" بهذا الاعتبار خبراً لمبتدأ محذوف، المبتدأ "هذه"؛ لأنه لا يجوز الابتداء بالنكرة، فبراءة نكرة، مثل سورة النور، {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} [سورة النور:١]، فكيف ابتدأ بالنكرة، ومعروف عند النحاة أنه لا يجوز الابتداء بها إلا إذا أفادت، كما قال ابن مالك:

ولا يجوز الابتدا بالنكرة *** ما لم تُفد كعندَ زيدٍ نَمِرَة

وذكر الحالات التي يجوز فيها الابتداء، مثل إذا كان الخبر جارا ومجرورا ومتقدما عليها، نحو عند زيدٍ نَمِرةٌ، الأصل: نمرة عند زيد.

وهل فتىً فيكم فما خِلٌّ لنا *** ورجلٌ من الكرام عندنا

هل فتىً فيكم؟ يعني في سياق الاستفهام، وكذلك أيضاً: رجل من الكرام، إذا كانت موصوفة، فهنا {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، و{سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا} هذه نكرة موصوفة، وُصفت، فهنا يحتمل على كلام ابن كثير أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، فما يكون ابتداء بالنكرة بهذا الاعتبار، ليست مبتدأ، وإذا قيل بأنها مبتدأ نقول: إنه جاز الابتداء بها لأنها نكرة موصوفة، براءة حاصلة أو كائنة من الله ورسوله، ويكون الخبر {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، هذا لا إشكال فيه.

قال: **أي تبرؤٌ من الله ورسوله**، تقول: برئتُ من كذا إذا أزلته عن نفسك ودفعته وقطعت ما بينك وبينه من سبب، تقول: أنا أتبرأ من فعل فلان، أنا أتبرأ من فلان، أتبرأ من كذا، يعني أزلت عن نفسك أنك لم تفعله لم تتصف به لم ترضه، وقطعت ما بينك وبينه من سبب، {بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، والتنكير هنا يفيد التعظيم.

{إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة.

قوله: {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، هذه البراءة إلى الذين عاهدتهم، العهد: هو العقد في الأصل، العقد المؤكد الموثق باليمين، هذا الأصل، قال: {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ}، السياحة هنا بمعنى السير، سيروا في الأرض أربعة أشهر لا يتعرض لكم أحد، اختاروا لأنفسكم.

هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته مهما كان؛ لقوله تعالى: {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} الآية. ولمَا سيأتي في الحديث: ((ومن كان بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم - عهد فعهده إلى مدته))[٣]، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغير واحد.

الآن هذه الآية {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ}، هذه {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم} إلى أصحاب العهود، فصار عندنا: أصحاب عهود، وعندنا: غير معاهدين، غير المعاهدين من ليس بينهم وبين المسلمين عهد، قال الله فيهم: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة:٥]، هؤلاء الذين ليس لهم عهد، والذين لهم عهد هنا قال: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} مع قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ} [سورة التوبة:٧]، وفي الآية {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} [سورة التوبة:٤]، فالذي بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم - بالسبر والتقسيم العقليين - لا يخلو من الحالات الآتية: إما أن يكون لهم عهد أقل من أربعة أشهر، فهؤلاء يكمل لهم إلى أربعة أشهر؛ لأن من لا عهد لهم يكون إلى نهاية الأشهر الحرم على خلاف سيأتي، فهؤلاء الذين لهم عهد أقل من أربعة أشهر يكمل لهم أربعة أشهر، والذين لهم عهد أطول من أربعة أشهر مؤقت محدد يعني منتهاه فهؤلاء يتم لهم عهدهم، يعني بين المسلمين وبينهم عهد لمدة سنة مثلاً، فيوفى بهذا العهد {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}، والذين لهم عهود مطلقة مفتوحة غير محددة بوقت -إن وجد - فهؤلاء يكون عهدهم أربعة أشهر فقط، وهذا وجه حسن في الجمع بين الآيات، واختاره جمع من المحققين، وابن جرير -رحمه الله - يذكر هذا ويزيد عليه أن الذين بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم - عهد محدد أكثر من أربعة أشهر ولكنهم نقصوا هذا العهد فإنه يكون أربعة أشهر، وهذا لا إشكال فيه؛ لأن الله -عز وجل - قال: {ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}، فيصير الذين يكونون إلى أربعة: من له عهد دون أربعة أشهر، ومن له عهد مفتوح فهذا إلى أربعة أشهر، ومن له عهد محدد أكثر من أربعة أشهر ولكنه نقص ولم يكن عهده على الوفاء والتمام فهذا يجعل له أربعة أشهر، بقيت طائفة واحدة ممن لهم عهد وهم: من كان لهم عهد أكثر من أربعة أشهر ولم يخلوا به فهؤلاء {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من

---

٣ - رواه الترمذي، باب ما جاء في كراهية الطواف عريانا، برقم (٨٧١)، وأحمد في المسند، برقم (٥٩٤)، وقال محققوه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٦٧٠).

"براءة" فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّلهم عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر.

يعني الآن على هذا تكون الأربعة الأشهر مبتدَأة من يوم النحر؛ لأنه قال: **{وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}**، على الخلاف كما سيأتي في يوم الحج الأكبر هل يوم النحر أو يوم عرفة؟ فتكون الأربعة الأشهر مبتدَأة من ذلك اليوم، فتنتهي في العاشر من ربيع الآخر، أربعة أشهر، **{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}**.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود منذ نزول الآيات، وهذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- أعلمهم بهذا، وقال لهم: **{وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}**، فهم منذ سمعوها يكون قد أمهلهم هذه المدة، لا من وقت نزولها وهم لا يعلمون هذا، فتكون منتهية بهذا الاعتبار.

{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، وسيأتي الكلام على **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** [سورة التوبة:٥].

وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: ((لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان))[٤].

ولهذا قال تعالى: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة التوبة:٣].

يقول تعالى: وإعلامٌ {مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} وتَقَدُّمٌ وإنذار إلى الناس، {يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ} وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً.

{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، أذان أيضاً نكرة، ويقال فيه -كما قيل في "براءة"-: يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هذا أذان، ويحتمل أن يكون مبتدأ وابتُدِئ به لعلة من العلل المسوّغة كما سبق الكلام على "براءة"، والواو هنا **{وَأَذَانٌ}** عاطفة على جملة براءة، **{بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**، **{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**، أي: إعلام، الأذان: هو الإعلام، يؤذنهم أي: يعلمهم بالبراءة منهم ومن عهودهم.

هنا قال: **{إِلَى النَّاسِ}**، و**{بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ}** من: لابتداء الغاية، أي: براءة واصلة **{مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}**، **{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}**، قال: **وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك**، وهذا عليه عامة أهل العلم، قال به كثير من الصحابة فمن بعدهم، واختاره من المفسرين ابن جرير والقرطبي، وورد في ذلك أحاديث صحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، من هذه الأحاديث المرفوعة -إضافة إلى كثير من الآثار- حديث رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم النحر على ناقة حمراء مخضرمة، فقال: ((هذا يوم الحج الأكبر))[٥]. أخرجه الإمام أحمد والنسائي في الكبرى، ورجاله ثقات.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، برقم (٤١٠٥).

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب يوم الحج الأكبر، برقم (١٩٤٥).

وكذلك حديث ابن عمر: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: ((أي يوم هذا؟))، قالوا: يوم النحر، قال: ((هذا يوم الحج الأكبر))، أخرجه البخاري تعليقاً، ووصله أبو داود في المناسك باب يوم الحج الأكبر، وابن ماجه، والحديث ثابت صحيح.
وورد أيضاً عن جماعة من الصحابة أحاديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة، قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: ((لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان))، يؤذن يوم النحر، والله -عز وجل- يقول: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}، فكان يؤذن في يوم النحر، ثم قال: وإنما قيل الأكبر -يعني يوم الحج الأكبر- في مقابل الحج الأصغر وهو العمرة، وفي أحاديث أخرى منها حديث عبد الله بن أبي أوفى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يوم النحر يوم الحج الأكبر))، وهذا فيه ضعف، فعلى كل حال من جهة النظر يوم النحر فيه عامة أعمال الحج، فيه رمي الجمار، وفي ليلته الوقوف بعرفة، وفيه نحر الهدي، وفيه أيضاً الطواف، وفيه التلبية والتكبير والحلق، كل هذا في ذلك اليوم، هذا قال به كثير من الصحابة والتابعين وكثير من أهل العلم، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وممن قال به من الصحابة علي وعبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة، وأبو موسى الأشعري، وابن عمر، وهو مروي عن ابن عباس وقال به خلق لا يحصيهم إلا الله من التابعين فمن بعدهم، والله أعلم.
{يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ} وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك.
{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} أي: بريء منهم أيضاً.
رسولُهُ مرفوع يعني أن الله بريء ورسوله بريء من المشركين، {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، وسبب كتابة النحو أن زياد بن أبيه كان أميراً على العراق فطلب من أبي الأسود الدؤلي أن يكتب له، قيل: في كتابة النحو، يقال: إن أبا الأسود الدؤلي هو أول من كتب النحو، وإن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال له: الكلام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالاسم كذا، وانح نحو هذا، فقيل له: النحو، وتشكيل المصاحف يقال: إن زياد بن أبيه طلب ذلك من أبي الأسود الدؤلي لأن المصاحف لم تكن مشكولة ولا منقوطة، فامتنع من هذا، يقال: إنه جعل رجلاً يقرأ -حيث يسمع- في طريقه، فقرأ بجر "رسوله" في قوله: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} فصار المعنى بهذا الاعتبار أن الله بريء من رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ففزع أبو الأسود الدؤلي وذهب إلى زياد، فوافق أن يكتب المصحف مشكولاً، هكذا ذُكر، وجاءت قراءة بالجر، لكنها غير متواترة، ولا أحد يحمل ذلك على المعنى الباطل إطلاقاً، ولا يتصور هذا من مسلم، لكن القراءة تلك الشاذة بعضهم قال: إن الإعراب، {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، "المشركين" مجرور {وَرَسُولِهُ} قالوا: جر للمجاورة، وبعضهم قال غير هذا.
ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: {فَإِنْ تُبْتُمْ} أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} أي: استمررتم على ما أنتم عليه {فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي: في الدنيا بالخزي والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

هنا أطلق البشارة على خلاف المعنى المشهور، وهو الإخبار بما يسر، فهنا ذكرها في الإخبار بما يسوء، فالغالب المعروف المشهور أن البشارة تقال في الإخبار بما يسر، وهذا وإن كان هو الغالب إلا أن إطلاقها في الإخبار بما يسوء صحيح، وليس بمجاز، ومعروف في كلام العرب، ومنه هذه الآية: **{وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**، كما قال الشاعر:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ *** تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ

فعبر بالتحية عن الضرب الوجيع، كما قال الآخر:

يبشرني الغرابُ ببيْنِ أهلي *** فقلتُ له ثكِلْتُك مِن بشيرِ

وقول الآخر:

وبشرتَني يا زيدُ أنّ أحبتي *** جفوْني وأنّ الودَّ موعدُه الحشرُ

وبشرتني، فسمى ذلك بشارة، وهذا موجود في كلام العرب، وعلى كل حال قيل للبشارة بشارة؛ لأنه يظهر أثر ذلك في بشرة الإنسان، إذا بشرتَه ظهر ذلك على وجهه.

روى البخاري -رحمه الله- أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر -رضي الله عنه- في تلك الحَجَّة في المُؤذِّنين، بعثهم يوم النحر يُؤذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد: ثم أردف النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤَذِّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذَّنَ معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[٦].

ورواه البخاري أيضاً أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: "الأكبر"، من أجل قول الناس: "الحج الأصغر"، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مشركٌ[٧].

وهذا لفظ البخاري في كتاب "الجهاد".

وروى محمد بن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت "براءة" على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: ((لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي))، ثم دعا عليا فقال: ((اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يَطُوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد فهو له إلى مدته))، فخرج علي -رضي الله تعالى عنه- على ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العضباء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة التوبة، برقم (٤٣٧٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

٧ - رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب كيف ينبذ إلى أهل العهد، برقم (٣٠٠٦).

كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فهو إلى مدته.

من له عهد فهو إلى مدته، وهذا موافق لقوله: **{فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ}**، فهذا ما يدخل في **{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}**.

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

يقول: فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى، يعني يريد أن يقول: إن الذين لا عهد لهم فالإمهال في حقهم إلى نهاية الأشهر الحرم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٤ إلى الآية ٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:٤].

هذا استثناء مِن ضرْب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بموقت، فأجله أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: "ومن كان له عهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فعهده إلى مدته" وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم مَن سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} أي: الموفين بعهدهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الاستثناء {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} يحتمل كما قال الزجاج أنه يعود إلى براءة: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة التوبة:١]، {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا}، وذهب كبير المفسرين ابن جرير إلى أنه يعود إلى ما قبله، وهو قوله: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ} [سورة التوبة:٣]، فهذا يكون استثناء منه، وكلام ابن كثير -رحمه الله - هنا واضح، وهو مرتبط بالمعنى، تفسير على المعنى، يعني لم يربطه بلفظ بعينه، والعادة أن النحاة وأهل اللغة حينما يقولون: يعود إلى كذا يذكرون لفظة معينة يربطون الاستثناء بها، وابن كثير -رحمه الله - أعاده إلى المعنى قال: **هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بموقت**، إلى آخره، يعني ضرب مدة التأجيل بأربعة {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [سورة التوبة:٢]، {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ}، فيكون ذلك عائداً إلى المعنى، بمعنى أن {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} فيستثنى منه هؤلاء، {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} فيستثني منه هذا، فربطه بالمعنى.

{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:٥].

قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [سورة التوبة:٢].

انسلاخ الشهر تكامله جزءاً فجزءاً، شيئاً فشيئاً حتى ينقضي، فشبه ذلك بسلخ الجلد ومباينته للجسد، تقول: سلخت الشاة، فانسلاخ الأشهر الحرم معناه انقضاؤها، فإذا انسلخ الأشهر الحرم: المتبادر عند إطلاق الأشهر الحرم أنها الأشهر الأربعة التي قال الله -عز وجل- في هذه السورة: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [سورة التوبة:٣٦]، وهي ثلاثة سرد وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فهل المراد {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} يعني المشركين الذين لا عهد لهم؟، قلنا: إن المشركين منهم من له عهد مطلق، فهذا يحد بأربعة أشهر، ومنهم من عهده دون الأربعة الأشهر، فيكمل له أربعة أشهر، ومن له عهد أكثر من أربعة أشهر -محدد- ولكنه ظهر منه إخلال ونقص فيمهل أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلا قال الله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، فمن أهل العلم من قال: المراد هؤلاء، يعني إذا انسلخت الأشهر الحرم المعروفة التي بقي منها من يوم النحر خمسون يوماً، عشرون يوماً من ذي الحجة، وشهر المحرم فهذه خمسون يوماً، فما تكون أربعة أشهر التي بقيت عليهم إذا حملناها على هذا المعنى فيكون ذلك مختصاً بالمشركين الذين ليس بين المسلمين وبينهم عهد، فإنهم لا يقتلون أصلا، يعني هؤلاء ليس بينهم وبين المسلمين عهد، فهؤلاء لايقتلون في الأشهر الحرم، يعني لا في ذلك العام ولا في غيره بناءً على أن آية براءة التي يقول الله -عز وجل- فيها عن الأشهر الحرم {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} يعني لا يجوز القتال فيها، ومن أهل العلم -كما سيأتي- من يقول: إنها منسوخة، بعضهم يقول: منسوخة بالذي بعدها مباشرة، وهو قوله: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} يعني في كل حين ولا تتقيدوا بوقت معين، وسيأتي الكلام على هذا، والأرجح أنها غير منسوخة، فعلى كل حال الكلام الآن في هذه الآية {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، يحتمل أن يكون المراد اقتلوا المشركين الذين لا عهد بينكم وبينهم، فهذه هي آية السيف، ويحتمل أن يكون المراد بالأشهر الحرم أشهر الإمهال الأربعة، هل هذه أشهر الإمهال الأربعة التي تبدأ من يوم النحر، أربعة أشهر من يوم النحر هل هذه يقال لها: الأشهر الحرم؟ بأي اعتبار أُطلق عليها ذلك، وتُرك ما اشتهر وعرف من أن الأشهر الحرم هي الأشهر الأربعة المعروفة فيجيب من يقول بهذا يقول: إنها أشهر حرم باعتبار أن دماء المشركين حرمت فيها؛ لأن الله أمهلهم هذه المدة، أربعة أشهر، فيحرم قتالهم وقتلهم في هذه المدة، فقيل لها أشهر حرم بهذا الاعتبار، كما قيل للأشهر الحرم المعروفة بذلك؛ لحرمة القتال فيها، فلما حرم القتال في هذه -في وقت الإمهال- قيل لها: أشهر حرم، {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}، وقالوا -أيضا-: إن الباقي ما يقال له: أشهر بالجمع، إنما هو شهر وعشرون يوماً، وأشهر الحرم المعروفة، والله ذكر ذلك بصيغة الجمع قال: الأشهر الحرم، والذين يقولون: إن المقصود بها الأشهر الحرم المعروفة يجيبون عن هذا {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} بأنها التي بقي منها خمسون يوماً.

ثُمَّ قال {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم.

وقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [سورة البقرة:١٩١].

قوله هنا: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** أي إذا أنقضت الأشهر الأربعة، ابن كثير حمله على أشهر الإمهال، وقيل لها: حُرم؛ لأنه تحرم فيها دماء المشركين فيقول: **إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم،** ابن كثير كلامه لم ينتهِ، والمؤلف اختصر منه جزءًا مهما كان المفروض أن يُذكر، وهو يتضمن قاعدة، وبقية كلامه يقول: **لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر،** هذا وجه الترجيح، فقال: إنها أشهر الإمهال؛ لأن عود العهد على مذكور **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}**، فـــ"ال" في الأشهر العهدية، "الحرم" معهود العهد هنا هل هو عهد ذكري؟ أو عهد ذهني؟ أو عهد حضوري؟ العهد الذهني معناه أنه غير مذكور هنا، عهد ذهني أيْ شيء معهود تعرفونه لو قيل: إنها الأشهر الحرم يعني **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ}** [سورة التوبة:٣٦]، المقصود منها أربعة حرم هذا يسمى بالنسبة للآية هنا **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** عهد ذهني معهودة في أذهانكم، والآية التي فيها الأشهر الحرم الأربعة المعروفة لم تأت إلى الآن، وإذا كان العهد هو المذكور قبله **{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}**، فيكون العهد هنا عهداً ذكرياً مذكوراً قبله، كما قال الله -عز وجل-: **{أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}** [سورة المزمل:١٥-١٦]، والرسول هو المذكور قبل قليل، فهذا عهد ذكري فتكون "ال" عهدية، الرسول مذكور آنفا، والعهد الحضوري مثلما تقول: الرجل غير منتبه، أيُّ رجل؟ الذي أنا انظر إليه مثلا، تقول: الرجل غير منتبه، فهذا عهد حضوري، فابن كثير وجّه الترجيح يقول: إن كون العهد يعود إلى مذكور أولى من معهود في الذهن، هذا وجه الترجيح، **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** أي إذا انقضت الأشهر الأربعة، وهذا الذي قاله ابن كثير رجحه جماعة منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله -، والأول: أنها الأشهر الحرم المعروفة **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ}** التي بقي منها خمسون يوما من يوم النحر هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، والآية تحتمل هذا وهذا، ولو نظرنا من الناحية الواقعية العملية بالنسبة إلينا الآن لا يترتب عليها عمل بالنسبة لنا، وإنما نريد أن نعرف مسألةً وقعت وحصلت وانتهت، لكن الآن الذي عندنا فقط هو هل الأشهر الحرم يجوز القتال فيها أو لا يجوز؟ القتال فيها فقط، فالأشهر الحرم الأربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أمّا أنه متى يبدأ الإمهال، متى تبدأ هذه من يوم النحر وما بعده خمسون يوما أو أنها أشهر الإمهال؟ انتهى هذا كله ولسنا الآن من الناحية العملية نستفيد شيئا من معرفة هذا، والمسائل التي لا ينبني عليها عملٌ الجهلُ بها لا يضر، وتطويل الزمان بدراستها وبحثها أمر غير محمود، مع أن هذه الصورة أو هذا المثال من أوضح الأمثلة على مسألة علمية في أصلها -ليست من فضول العلم- يترتب عليها عمل كبير إلا أنه بالنسبة إلينا نحن الآن لا يترتب عليها عمل، فتكون

بهذا الاعتبار من فضول العلم، وهذا من أعجب الأشياء، بهذا الاعتبار من فضول العلم، العادة أن فضول العلم مثل: كم عدد طوابق سفينة نوح؟ ومن أي الخشب صنعت؟ ومن أول من ركب؟ وآخر من ركب؟ وأين رست؟ وأين يقع الجودي؟ إذا كان اسم جبل **{وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}** [سورة هود:٤٤]، والكهف أين يقع؟ وكم عدد الذين كانوا فيه؟ فمعرفة هذا لا يترتب عليه فائدة، هنا هذه مسألة في ذلك الحين يترتب عليها أمر عظيم يتعلق بالدماء ولكن بالنسبة لنا الآن مايترتب عليها شيء **{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ}** سواء كانت أشهر الإمهال الأربعة أو غير ذلك، فهذا من الأمثلة الفريدة التي تتحول فيها مسألة من صلب العلم إلى فضول العلم، ولو طَرَق سمع كثير من الناس لأول وهلة أن الاشتغال بهذا من فضول العلم لربما مافهموا وجه ذلك، هو من فضول العلم بالنسبة لمن جاء بعدُ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بمراد الله -عز وجل- وحملها على مراد الله -تبارك وتعالى-، وحصل **{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** وهذه إما أن تخص بالذين لاعهد لهم، ويقال: كما يقول ابن جرير: هؤلاء إذا انتهت الأشهر الباقي منها خمسون يوما فاقتلوهم، أو يقال: إنها في الجميع فيمهلون أربعة أشهر وهي أشهر الإمهال، **{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}** التي أمهلناهم فيها فاقتلوهم، وهذا الأمر بقتلهم في آية السيف هذه هو في وقت قوة الأمة، والذي خوطب بهذا -فاقتلوا المشركين- ليس الآحاد، وإنما خوطبت الأمة باعتبار أن الذي يقوم بهذا من بسط يده يعني الإمام لا يقوم به أفراد الناس، ولا يجوز لأحد أن يقتل المشركين من عند نفسه هكذا، فيكون افتئاتاً على الأمة، هذا لا يجوز بحال من الأحوال، والمشركون أنواع منهم من يكون له عهد فهذا لا يجوز قتله في عهده، ومنهم من يكون له أمان وهذا لا يجوز قتله ولو أعطاه الأمان واحد من أدنى المسلمين، ومن له ذمة بمعنى أنه من أهل الذمة، يعني يكون من أهل البلد مثل القبط في مصر، وكذا البلاد التي فتحها المسلمون وفيها أهل كتاب فهؤلاء لا يجوز قتلهم، والمستأمن والحربي، الحربي هو الذي يقتل المحارب، طبعا في أوضاع الأمة الآن المنقسمة إلى كيانات قد يكون محارباً بالنسبة لهؤلاء وليس محارباً بالنسبة لهؤلاء، فهذه المسائل تحتاج إلى أن يفرق بينها وأن يتفقه الإنسان في الدين، ويعرف مراد الله -تبارك وتعالى-، ولا يُحمل النصوص مالا تحتمل، ولا أحد من أهل العلم يقول: إنه يجوز لآحاد الناس أن يقوموا بمثل هذه الأمور **{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}** أبداً، وإلا لصارت أمور الناس فوضى، أما إن كان لهم عهد أو ذمة فإنه لا يجوز لا للإمام ولا لغير الإمام أن يقتلهم، يعني لو قتلهم الإمام لكان ظالما لهم، ومن كان يتخوف منه الخيانة ينبذ إليه عهده، والذي ينبذ إليه العهد الإمام وليس آحاد الناس، وإلا صارت أمور الناس فوضى، ويحصل بسبب ذلك من الفساد الشيء الكثير تصور لو أن أحمقَ جاء إلى سائقك أو سائق جارك البوذي أو الهندي وقتله ورمى برأسه في الزبالة، أو علق جثته بجدار الجيران، فلا أحد يقبل هذا، ولا يجوز بحال من الأحوال، ولا فرق بين هذا وبين مَن عيونه زرقاء، مثله، كلهم كفار، كما أن هذا لا يقتل، لماذا يخص القتل بغيره من الأجناس الأخرى من الكفار؟!، فالحاصل أن هذا لا يجوز ولا يفهم من هذه الآية أبداً أن ذلك لآحاد الناس، وما جنى على الجهاد إلا مثلُ هذه الحماقات، وما يحصل بسبب هذا إلا الفساد العريض، والآن صار كثير من الناس يتحرج من الدعاء للمجاهدين، يقول: اللهم انصر المستضعفين من المسلمين، ولا يقول: المجاهدين!! كله بسبب الحماقات، وصار كثير من الناس يفهم إذا قيل: المجاهدون أنهم من يرتكبون مثل هذه الحماقات، فينبغي أن نفرق بين

هذا وهذا، ونفهم معنى الجهاد حقيقة، وما خرج عنه، وأحيانا للأسف تستوي التصرفات لو أنه فعلها أشد أعداء الإسلام أو فعلها من ينتسب للإسلام النتيجة واحدة، أحيانا الجهل وضعف النظر وقلة النظر في العواقب يؤدي أحيانا بالشخص إلى أن يفعل فعل أعدى أعداء الإسلام!! يعني على سبيل المثال الآن ما وقع في الحبانية، وسمعتم بالذي في العراق المسجد الجامع جاءت شاحنة، وفُجر أكثرُ من سبع وخمسين جثة، من رجال ونساء وأطفال مسلمين مصلين، فبعضهم ينسبه لبعض من ينتسب للجهاد، وبعضهم يقول: لا، هؤلاء بعض المندسين الذين يريدون الإساءة إلى المجاهدين، ما تدري من الذي يفعل هذا، هذا متوقع وهذا متوقع، والنتيجة واحدة، فعل هذا الجاهل يمكن أن يقوم به واحد من الموساد، أو من الرافضة؛ من أجل أن يضرب هؤلاء المجاهدين ويؤلب الناس عليهم، ويقول لهم: هؤلاء مجرمون و...، فهذه المفاهيم لا يمكن أن تكون هي مراد الله -عز وجل- بهذه الآيات، بل إن الأمة حتى ممثلة في الإمام أو الخليفة إذا كانت الأمة ضعيفة فإنها لا تعمل بهذه الآية: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}**، تعمل بالآيات المكية: **{كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ}** [سورة النساء:٧٧]، **{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}** [سورة البقرة:١٠٩]، لكن في نفس الوقت لا تغير حقائق الدين، يقال: هذا دين الجهاد، والجهاد ذروة سنام الإسلام، والجهاد منه جهاد دفع، ومنه جهاد طلب، والأمة لن تكون قوية ممكّنة إلا إذا كانت أمة مجاهدة تجاهد أعداءها، ولا يجوز أن الأمة تكون بحالة من الاستخزاء: إذا لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر، وإنما كما قال الله: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ}** [سورة الشورى:٣٩]، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وحتى يقاتل آخرهم الدجال، فهذا ماضٍ وسيأتي رجال في أصلاب آبائهم يجاهدون في سبيل الله -عز وجل-، لكن تبقى هذه الحماقات والجهالات مثل الفقاعة تذهب ولا يصح إلا الصحيح، ويبقى الحق الجهاد الخالص النقي الذي يرضاه الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا أنفع للناس من العلم والفقه في الدين، فهذا الإنسان المسكين الجاهل الذي تاب لحينه ويرى أن عنده ذنوباً ما يكفرها إلا القتل في سبيل الله، ويرى أن دراسة التجويد والفقه والحديث هذا تطويل، فالأفضل أن يموت ويرتاح وبأقرب وقت، فيتهافت على الموت بأي طريقة، ثم قد يلقي بنفسه إلى التهلكة في الدنيا والآخرة -نسأل الله العافية-، فيحتاج الإنسان إلى فقه، والفِرَق ما ظهرت في التاريخ إلا بسبب الجهل أو الهوى.

وقوله: {وَخُذُوهُمْ} أي: وأسروهم، إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا.

يعني باعتبار أن الأخذ هو الأسر، والأخيذ هو الأسير **{وَخُذُوهُمْ}** أي ائسروهم.

وقوله: {وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام.

{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} المرصد هو الموضع الذي يرقب فيه العدو، يعني اجلسوا لهم في كل طريق وفي كل مكان تستطيعون أن تتمكنوا منهم فيه، فهذا خطاب للأمة ممثله بالإمام، هو الذي يطلب المشركين، ويقتلهم ويقعد لهم في كل مرصد بالشروط المعروفة، وليس بالظلم والبغي إلا جهاد الدفع إذا هجم الكفار على بلد من

بلاد المسلمين فيجب صدهم، ما في إمام للبلد، قُتل الإمام الذي فيها أو مات أو ما كان يستحق أصلا فيجب على كل مستطيع أن يدفعهم، فهذا جهاد الدفع.

ولهذا قال: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، ولهذا اعتمد الصديق -رضي الله عنه- في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله -عز وجل-، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعدٍّ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة))[1] الحديث.

يعني كلام الحافظ ابن كثير: **نبه بأعلاها على أدناها**، يعني فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة يعني وصاموا رمضان وحجوا بيت الله الحرام هذا معناه، اقتصر على الصلاة والزكاة قال: **نبه بأعلاها على أدناها**، بمعنى أن الصلاة هي رأس العبادات البدنية وأشرفها، والزكاة هي رأس العبادات المالية، ((ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه))[2]، فالزكاة أفضل من الصدقة، فنبه على هذا وهذا بهذين، ووجه الجمع بين الصلاة والزكاة من قال أهل العلم من قال: إن سعادة العبد دائرة بين أمرين الإحسان إلى الخلق ورأس ذلك الزكاة، والإحسان مع الخالق ورأس ذلك الصلاة، فهي صلة بين الرب والعبد، {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ} [سورة التوبة:١١]، وهذا يحتج به من يقول: إن تارك الصلاة كافر؛ لأن الله -عز وجل- جعل ذلك مقيداً به {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ}، يعني: مفهوم المخالفة إن تابوا ولم يقيموا الصلاة فليسوا بإخوان لنا في الدين، وهذا معناه.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين أحد من المشركين، وكل عقد، وكل مدة.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

هذا يقال فيمن لا عهد له، لا عهود جديدة في ذلك الوقت، حينما نزلت الآية، لكن ليس معنى الآية أنه لا يجوز للمسلمين أن يعاهدوا المشركين، لا، وقد حصل عهود بعد هذه الآية بين المسلمين وبين المشركين بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا بحسب ما تقتضيه المصلحة، فإن اقتضت مصلحة المسلمين أن يوجد عهد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة:٥]، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...، برقم (٢٢).

٢ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع، برقم (٦١٣٧).

فإنهم يعاهدونهم لكن لا يعاهدونهم عهوداً مفتوحةً، وإنما إلى مدة، وإن لم تقتضِ المصلحة فلا عهد، لكن الكلام في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- من كان ليس لهم عهد فلا عهود جديدة لهم، وإنما السيف بعد انقضاء الأشهر الحرم، وذلك بالنسبة للعهود بعدهم، أي بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- بحسب حاجة المسلمين بحسب ضعفهم، وحسب قوتهم، وحسب مصالحهم وهكذا، تصور لو أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حاشاهم- انطلقوا في الأرض كلما رأوا مشركاً جلسوا يقتلونه بمفردهم، هم هكذا؟! هذا معاهد، وهذا ذمي، وهذا مستأمن، والسيف المرهف كلما وجدوا مشركاً قطعوا رأسه!! يتصور هذا؟! يتصور هكذا؟! أبداً، لكن من الناس من لربما تستفزه نفسه، وقلة العلم، وقلة الورع، فيظن أنه بهذا يتقرب إلى الله -عز وجل.

{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ}
[سورة التوبة:٦].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، {اسْتَجَارَكَ} أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته {حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، {ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ} أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟))، قال: نعم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك))[٣]، وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله، ولعنه.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٧٠٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، يزيد: وهو ابن هارون سمع من المسعودي -وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة- بعدما اختلط، والمسعودي أيضا كان يغلط فيما يرويه عن عاصم -وهو ابن أبي النجود- وهو متابع. وأبو وائل: هو شقيق بن سلمة الأسدي.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أُعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

بل حتى لو أعطاه أحد من عامة المسلمين الأمان فلا يجوز لأحد أن يقتله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧ إلى الآية ١٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:٧].

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثُقفوا، فقال تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ} وأمان ويُتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} الآية [سورة الفتح:٢٥]، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين {فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} وقد فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فقتلوهم معهم في الحرم أيضا، فعند ذلك غزاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعِكْرِمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل -: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ}، والمقصود بمن عوهدوا عند المسجد الحرام يعني في صلح الحديبية، وهذا معلوم لا إشكال فيه، والمراد بهؤلاء الذين عاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم - عند المسجد الحرام في صلح الحديبية هم قريش، ومن دخل في هذا العهد، وذلك -كما هو معلوم في السيرة والتاريخ - أن بعض القبائل اختارت الدخول مع قريش في هذا العهد، وبعض القبائل اختارت أن تدخل مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، يعني تحالفوا مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام -، فقريش نقضت العهد، وذلك

بأنهم أعانوا حلفاءهم من بني بكر على حلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من خزاعة، أعانوهم بالسلاح كما في القصيدة المعروفة التي جاءت خزاعة تستنهض بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وفيها:

* * * إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا * * * وجعلوا لي في كداء رصدا

إلى أن قال:

* * *وقتلونا ركّعاً وسجداً

فالشاهد أنهم بهذا يكونون قد نقضوا العهد، وعليه لا يكون المراد هنا: {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} ليس المراد به قريش؛ لأن قريشاً نقضت ولقيت جزاءها، يعني حينما نزلت هذه الآيات كانت مكة قد فتحت، وإنما سيّر لهم النبي -صلى الله عليه وسلم - الجيش في السنة الثامنة بناء على نقضهم العهد، فليست هي المرادة بقوله: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} ولهذا اختلف المفسرون في المراد بذلك، ولا شك أن المراد به بعض من دخل في هذا العقد، والعهد والصلح، وابن جرير -رحمه الله - يقول: المقصود بهم قوم من جذيمة ابن الدُّئل، فهؤلاء دخلوا في هذا الصلح، أو أن ابن جرير ذكر هذا على أنه أحد الأقوال، وذلك لا يبعد، لكن البعيد أن يكون المراد به قريش، وبعضهم قال: إن المراد بهذا هم قوم من خزاعة، وخزاعة اختلف فيهم العلماء من أهل السير وغيرهم، هل كانوا مسلمين أو لم يكونوا مسلمين؟ فمن قالوا: إنهم كانوا على الإسلام احتجوا بقوله:

* * *وقتلونا ركعاً وسجداً

قالوا: كانوا مسلمين، وبعضهم يقول: لم يكونوا مسلمين ولكن كانوا حلفاء لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -، والذي اختاره ابن جرير -رحمه الله - أنهم بعض بني بكر من كنانة ممن أقام على العهد ولم ينقض، فقريش نقضت وهؤلاء لم ينقضوا، فقريش أعانوا حلفاءهم -على قول ابن جرير - من بني الدُّئل على حلفاء النبي -صلى الله عليه وسلم - من كنانة، هذا اختيار ابن جرير، ذكر الأقوال و اختار هذا، على كل حال تحديد هؤلاء بالاسم أمر لا يترتب عليه بالنسبة إلينا كبير فائدة، لكن معنى الآية أن الله -عز وجل - يذكر أهل الإشراك كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله، كيف يكون لهم عهد وهم بهذه المثابة؟ جعلوا لله -عز وجل - ندًّا وعبدوا غيره {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فالإسلام يأمر بالوفاء بالعهود، فهؤلاء الذين عاهدوا عند المسجد الحرام، منهم من نكث كقريش، فقاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم -، ومنهم من بقي على عهده، فالذين بقوا على عهدهم الله تعالى يأمر بالوفاء بهذا العهد {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة التوبة:٨].

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد؛ لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله -صلى الله عليه وسلم - ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأدِيلوا عليهم، لم يُبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة.

قال علي بن أبي طلحة، وعِكْرِمة، والعوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما -: "الإلّ": القرابة، "والذمة": العهد، وكذا قال الضحاك والسدي.

كان المفروض أن يذكر قول ابن كثير -اختيار ابن كثير - فهذا خلل في الاختصار، ما يعرف به قول ابن كثير، وابن كثير ما يترك مثل هذه دون أن يرجح، فالشاهد إن "الإل" يطلق على القرابة

وأَشْهَدُ أَنَّ إِلَّكَ من قُرَيْشٍ *** كإلِّ السَّقْبِ من وَلَدِ النَّعَامِ

كما في بعض روايات البيت، فالشاهد أن الإل يطلق على القرابة، يعني لا يقرّبون فيكم قرابة، لا يراعون القرابة التي بينكم وبينهم، إذا ظفروا بطشوا بكم، قتلوكم ونكلوا بكم كما وقع في يوم أحد، مثلوا بهم، وتشفوا منهم غاية التشفي، ويطلق الإل على العهد، ويطلق على الله -تبارك وتعالى -، ولهذا يذكر في قول أبي بكر -رضي الله عنه - حينما جاءه بعض من يمثل مسيلمة الكذاب في أيام حروب الردة في خلافة أبي بكر -رضي الله عنه - فقال أبو بكر: أسمعني شيئا مما يقول صاحبكم، فقرأ عليه بعض الخزعبلات، فقال أبو بكر -رضي الله عنه -: أشهد أن هذا لم يخرج من "إل" يعني من رب، وبعضهم يقول: إن جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وما أشبه ذلك أسماء معبدة لله -عز وجل -، وهذه أسماء أعجمية، فالإل يطلق على الرب يعني لا يراقبون فيكم الله، وعلى الآخر لا يراعون القرابة، وعلى المعنى الآخر لا يراعون العهد، {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} ولما كانت هذه المعاني جميعا صحيحة، وثابتة في لغة العرب فإنه يمكن حملها على الجميع من باب حمل المشترك على معانيه، وهذا أمر سائغ لا إشكال فيه ما لم يوجد مانع يمنع من هذا، سواء كان المشترك يحمل معانيَ متضادة أو معانيَ متخالفة ليست متضادة، فإنه يمكن حمله إلا إذا وجد ما يمنع من هذا، متضادة مثل: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧]، أقبل وأدبر، قيل: أقسم الله بالليل في حالة إقباله وفي حالة إدباره، وهنا {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ} هذه معانٍ ليست متضادة لكنها متخالفة، فيقال: {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ} يعني عهدا ولا قرابة ولا يراقبون فيكم الله -سبحانه وتعالى - وهذا كله صحيح؛ ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله -: إنها تحمل على ذلك كله، والله أعلم.

{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة:٩ -١١].

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} إلى آخرها، تقدمت.

{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني كما قال ابن كثير -رحمه الله -: **اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا**، فأطلق ذلك على الاستعاضة، والاختيار والإيثار، آثروا ملاذ الدنيا وشهواتها على اتباع ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم - من ربه، وهذا يقال له: اشتراء، ويقال له: استبدال، واستحبوا

العمى على الهدى {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [سورة البقرة:١٦] كل هذا يدور ويرجع إلى هذا المعنى كما قال الشاعر:

بدّلت بالجُمة رأسا أزعرا *** وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا ***

يعني اختار، فــ"اشتروا" هنا {بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} يعني بما استعاضوا به من اتباع أهواء النفوس والشهوات، وهذا لا إشكال فيه، خلافاً لمن حمل ذلك على اليهود باعتبار أن اليهود هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً بما كانوا يأخذونه من الرشى فيحرفون الكلم عن مواضعه؛ ولهذا قال بعض أهل العلم كالنحاس: إن هذه الآية في اليهود {اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ}، ثم قال بعدها: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً} يقول: هذه في اليهود ما فيه تكرار، والآية التي قبلها: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} في المشركين، هذا الفرق على قول النحاس، ولكن هذا فيه نظر -والله تعالى أعلم-، فهذه الآيات في الكفار، ويدخل فيها أيضا اليهود، فكل الكفار اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، كلهم {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} [سورة البقرة:١٧٥]، والمعاوضة تكون بأن يدفع شيئا ويأخذ شيئا مكانه، وهذا ليس بالضرورة من أثر الضلالة على الهدى، فإنه يكون قد استعاض واشترى كما قال الشاعر:

*** كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فلا يلزم أن تكون القضية مقايضة مثل أن يأخذ الرشوة ويحرف الكلم عن مواضعه في مقابل هذا مثلا، أو يكتم الحق أو نحو هذا لا يلزم أن تكون هذه الصورة فقط من أثر الضلال والكفر على الهوى، ويمكن أن يطلق عليه ويقال: {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} فهذه الآية في الكفار عموما، وإذا كانت في الكفار فيكون قوله: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} للتأكيد، وليس من قبيل التكرار، وسبق الكلام في مناسبات متعددة على أن التكرار المحض غير موجود، وأن كل آية محمولة على معنى فتؤسس معنى جديداً، فهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} لاحظ الفرق هناك: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}، وهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} فمن أهل العلم من قال: إن هذه الآية: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ} هي في عموم المؤمنين، وهناك في طائفة من المؤمنين، وهذا توجيه، وقد يقال غير هذا، {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}، وهنا {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} والآية الثانية لا شك أن العموم فيها أظهر، {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ} نكرة في سياق النفي، {اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ} فلفظة "صد" تأتي لازمة، وتأتي متعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى أنهم صدوا يعني في أنفسهم بإعراضهم عن قبول الحق واتباعه، وإذا كانت متعدية فتعني أنهم صدوا غيرهم عنه، صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦]، صدوا في أنفسهم لما رأوا أن الأيمان تدفع عنهم في الدنيا التهم والعقوبات فاستمرءوا ذلك فبقوا على ضلالهم {فَصَدُّوا} أي في أنفسهم، والمعنى الآخر {فَصَدُّوا} أي صدوا الناس عن الدخول في الإسلام، إذا جاء واحد يدخل في الإسلام قالوا: انتبه، إذا ارتددت تقطع رقبتك، وإذا سرقت تقطع يدك، وإذا زنيت ترجم فأحسن لك كن بعيداً!! وصدوا المسلمين أيضا عن الجهاد مع النبي -صلى الله عليه

وسلم - بالأموال، والأنفس كما قال الله -عز وجل -: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ} [سورة النساء:٧٢]، وقال: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، وصدوا أيضا المؤمنين عن إقامة حكم الله فيهم بسبب هذه الأيمان، وكل هذه المعاني داخلة في هذا، فالشاهد هنا {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي صدوا في أنفسهم وصدوا غيرهم عن اتباع الحق، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً} والذمة هي العهد، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} **يقول: سبق الكلام عليها.**

وهنا قال: {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}، وهناك قال: {فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} [سورة التوبة:٥]، والفرق واضح بين الآيتين، فليس هذا من التكرار، فهناك يُتركون إذا تابوا من كفرهم يعني بدخولهم للإسلام، {وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} فذلك يكون سببا لتخليتهم والإعراض عن قتالهم، وهنا أثبت لهم الأخوة في الدين.

{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [سورة التوبة:١٢].

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، {وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} أي: عابوه وانتقصوه، ومن هاهنا أُخذ قتل من سب الرسول -صلوات الله وسلامه عليه -، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص؛ ولهذا قال: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدد رجالا.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وروى عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه -، مثله.

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر -رضي الله عنه -، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مجوفة رءوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} رواه ابن أبي حاتم.

المجوفة يعني المحلوقة من الوسط يحلقونه ويتركون الباقي، الهَبَل قديم!! وليس هذا في هذا الوقت فقط، فهنا يقول: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} ذكر قضيتين: نكث العهد، والطعن في الدين {وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ}، هل المقاتلة {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} هنا يقال: إنها مرتبة على شرطين لا تحصل إلا باستجماعهما بمعنى لو طعنوا في الدين، وما نكثوا العهد -هكذا افتراضنا - لا نقاتلهم؟ أو نقضوا العهد وما طعنوا في الدين؟ هكذا فهم أبو حنيفة -رحمه الله -، قال: لو أنهم طعنوا في الدين، وما نكثوا العهد فإن ذلك لا يوجب أن نقاتلهم؛ لأن الله ذكر أمرين إن فعلوا كذا وكذا فقاتلوا، وليس ذلك معنى الآية أبداً، قطعا ليس هذا معنى الآية والعلم عند الله -عز وجل -؛ ولهذا قال الجمهور منهم مالك والشافعي قالوا: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} إن نكث العهد يكفي لمقاتلتهم كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم - مع

قريش حينما أعانوا حلفاءهم على حلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، ولا يشترط أنهم يطعنون في الدين، وإذا طعنوا في الدين يكون عهدهم قد انتقض، وقد يجمعون بين الأمرين، وقد يوجد واحد منهم، {فقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فنقض العهد منهم يقع بصور شتى منها: الطعن في الدين، وسب الرسول -صلى الله عليه وسلم -، وقريظة نقضوا العهد، ودخلوا مع الأحزاب، وطعنوا في الدين وسبوا النبي -صلى الله عليه وسلم - {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فالذمي إذا طعن في الدين فإنه يقتل، ومن سب الرسول -صلى الله عليه وسلم - يقتل، يكون قد انتقض عهده هكذا فهم الجمهور، وهنا **قال: ومن هنا أُخذ قتل من سب النبي -صلى الله عليه وسلم -** باعتبار أنه يكون قد نقض العهد مع أن الآية في المقاتلة وفرق بين المقاتلة والقتل، ولهذا يقول الله -عز وجل -: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ} [سورة التوبة:٢٩] إلى آخره، ويقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله))[١]، والفقهاء يقولون مثلا: إن الطائفة التي تنتسب للإسلام إذا امتنعت عن شيء من شرائع الدين فإنها تقاتل، وكذلك في قوله: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي} [سورة الحجرات:٩]، قاتلوا، ما قال فاقتلوا التي تبغي! فالمقاتلة غير القتل، فهنا قال: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} يقاتلون، وإن كان الذي فعل ذلك من أهل الذمة فمثل هذا يكون نقضا للعهد، وإذا نقض العهد استحق القتل، وهنا قال: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} هنا ذكر بعضهم كقتادة: أن أئمة الكفر كأبي جهل وعقبة وشيبة وأمية بن خلف إلى آخره، وهذه الآية نزلت متأخرة يعني كما عرفنا بعد فتح مكة نزلت سورة براءة وأئمة الكفر هؤلاء الذين سماهم قتادة قد ذهبوا وولوا قتل أكثرهم في غزوة بدر، فقاتلوا أئمة الكفر وهم لا شك أنهم أئمة الكفر، لكن هل هم من أراد الله -عز وجل - بهذه الآية: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} إن نكثوا عهدهم؟، أئمة الكفر: الإمام هو المقدم في الناس الذي يتبعه غيره، أو يقتدي به غيره، فهؤلاء الذين يعقدون العهود، وينوبون عن قومهم في المعاهدات وما أشبه هذا، ويقودون الجيوش، هؤلاء كلهم أئمة لقومهم فإذا نكثوا العهد قوتلوا، وليس هؤلاء الذين يقاتَلون فقط، بل يقاتَلون ومَن وراءهم: {فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فالآية عامة فيدخل فيها أئمة الكفر من المشركين، ويدخل فيها أيضا أئمة الكفر من سائر الطوائف، وذكر أئمة الكفر؛ لأن كسرهم يكون سبيلا لظهور الإسلام وبلوغ كلمة الحق للعالمين، لأن هؤلاء هم الذين يقفون دون ذلك.

{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٣-١٥].

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول -صلوات الله وسلامه عليه - من مكة.

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} [سورة التوبة:٥]، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...، برقم (٢٠).

{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا} هذا الاستفهام استفهام توبيخي وهو يتضمن التحضيض والتحريض.

كما قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة الأنفال:٣٠].

وقال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} الآية [سورة الممتحنة:١]، وقال تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} [سورة الإسراء:٧٦]، وقوله: {وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال، بغيا وتكبرا، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، حتى سار إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

يعني المراد بالبدء أول مرة هل المقصود به يوم بدر هم جاءوا وأرادوا القتال؟ أو في النقض هم الذين بدءوا بالنقض؟، وهذه الآية: **{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}** والذين هموا بإخراج الرسول -صلى الله عليه وسلم - هم قريش، فهذه الآية إذا كانت نزلت متأخرة بعد فتح مكة فيبقى فيها إشكال وهو أن هؤلاء قد قاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وفتح مكة، وأظهر الله -عز وجل - رسوله -صلى الله عليه وسلم - عليهم فكيف جاء التحريض هنا **{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ}؟!** قاتلوهم وانتهوا، ولا يمكن أن يقال هنا: **{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ}** إن المراد به عموم الكفار؛ لأنه قال: **{نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}** فالذين هموا بإخراج الرسول -صلى الله عليه وسلم - هم كفار مكة، وهذا الهم معروف قبل الهجرة حينما تواطئوا وتمالئوا وآذوه فتسببوا في إخراجه، هموا بإخراج الرسول مع أنهم في نهاية الأمر أرادوا ألا يخرج، ولكن تضييقهم عليه كان سبباً في إخراجه، وكانت إحدى الأفكار التي يتداولونها بينهم أن يخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم - من بين أظهرهم فيستريحوا منه، ثم بعد ذلك تراجعوا عن هذا، والله -عز وجل - قال: **{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ}** [سورة الممتحنة:١] وهم كانوا لا يريدونه أن يخرج، ولكن لما ضيقوا عليه كانوا متسببين في إخراجه، وإخراج المؤمنين فنسب ذلك إليهم قال: **{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ}**، فمن أهل العلم من لاحظ هذا المعنى **{وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}** وهم كانوا لا يريدونه أن يخرج، كانوا يريدون قتله -عليه الصلاة والسلام -، فبعضهم قال: هذا كان حينما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم - ليعتمر بعد صلح الحديبية، وأن خزاعة امتنعت ولم تواطئهم على هذا، وكان ذلك سببا لحصول خلاف مقصودهم، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي.

هذا الاستفهام هنا **{أَتَخْشَوْنَهُمْ}** استفهام للتوبيخ والتقريع.

فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعِكْرِمة، والسدي في هذه الآية: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} يعني: خزاعة.

وأعاد الضمير في قوله: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} عليهم أيضا.

قيل: خزاعة باعتبار أنهم قد كُلموا، وهذا السياق كله على هذا التفسير تكون الآيات نازلة قبل فتح مكة، وعامة سورة براءة نزلت بعد ذلك، وكثير منها نزل في غزوة تبوك، وبعد غزوة تبوك، فعلى هذا التفسير -أنهم خزاعة- يكون الكلام كله على أن هذه الآية أو الآيات نازلة قبل فتح مكة، ولذلك فإن الكثيرين من المفسرين لا يتكلمون عن هذا، بل ما رأيت أحدا يتعرض لهذا، ولم أستقص، باعتبار أن الآية تتحدث عن شيء كان، لا يصرحون بهذا، لكن عندهم الآية تتحدث عن شيء قبل فتح مكة، وممن قال بأنها في خزاعة مجاهد وعكرمة والسدي، ومما يدل على هذا هنا: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}، {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} قيل: خزاعة باعتبار أن خزاعة كانوا على الإسلام، وهذا فيه خلاف بين أهل السير، وأنهم قد كُلموا وقتلوا:

*** وقتلونا ركّعاً سجداً

فكانوا في غاية الحنق وجاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال قائلهم القصيدة المشهورة المعروفة، وقال الله: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}، ولو قيل: إنها لا تختص بخزاعة، إن كانت خزاعة على الإسلام فهم من جملة المؤمنين الذين يحصل لهم الشفاء،

تَعلَّم شفاءَ النفسِ قهرَ عدوها ***

فيحصل التشفي بقهر الأعداء؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٠]، فهذا نوع من التشفي أن يهلك الله العدو وأنت تنظر، وأبلغ من هذا أن يكون هلاك العدو على يد عدوه، قال: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} بالفتح وانتكاسة العدو وهزيمته، وقتل الكفار فيحصل به التشفي، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} لا حاجة أن يقال: لخزاعة فقط بل خزاعة وغير خزاعة من أهل الإيمان، يذهب الحنق الذي في النفوس يذهب بالانتصار على الأعداء، وقهرهم ودحرهم وقتلهم، {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} وهذا يحصل بالنصر عليهم، وقتلهم، والعلماء -رحمهم الله- منهم من تكلم على الفرق بين الأمرين شفاء الصدور وذهاب غيظ القلوب، فبعضهم قال: هذا للتأكيد، هذا بمعنى هذا، وهناك فرق بين شفاء الصدر وبين ذهاب الغيظ، فشفاء الصدر أبلغ من ذهاب الغيظ، وبعضهم قال: شفاء الصدور يكون بالنصر وظهور الإسلام، وذهاب الغيظ بقتلهم، من انتقم من عدوه فإنه بذلك يكون قد ذهب ما فيه من الحنق والكمد والغيظ على هذا العدو، وهذه أمور يبدو أنها متلازمة، قال: **وأعاد الضمير في قوله: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} عليهم أيضا**، قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ} أي من عباده، فالأول والذي قبله

مجزوم، {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ} باعتبار أنه جواب للشرط إذا قاتلتموهم عذبهم الله، {يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ} الأشياء التي ذكرها هنا نتيجة القتال تعذيب الله -عز وجل- لهم بأيديكم، وإخزاؤهم، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، هذه خمسة أشياء وكلها مجزومة هي نتيجة لمقاتلتهم، ثم جاء ما بعده مرفوعا قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ} فـ {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء} ليست نتيجة لمقاتلتهم، فالخمسة الأولى هي نتيجة للمقاتلة {قَاتِلُوهُمْ} تَحصُلْ هذه الفوائد الخمس، ثم قال: {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء} يعني هذا يذكر الله -عز وجل- فيه ما سيكون في المستقبل في علم الغيب من دخول بعضهم في الإسلام، كما دخل أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو العامري، والحارث بن هشام، وعكرمة، وأمثال هؤلاء كلهم قد أسلموا كما قال الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة الممتحنة:٧]، وكما جاء عن ابن عباس وغيره أن "عسى" من الله واجبة، يعني لابد أن يتحقق، فأسلم من أسلم من هؤلاء ومنهم أبو سفيان -رضي الله عنه-، فهنا قوله: {وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} يعني بدخولهم في الإسلام كما قال ابن جرير وغيره.

{وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} أي: من عباده، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بما يصلح عباده، {حَكِيمٌ} في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٦ إلى الآية ٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٦].

يقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ} أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب، ولهذا قال: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [سورة العنكبوت:١-٣] وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} الآية [سورة آل عمران:١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده، من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا} "أم" هذه هي المنقطعة التي بمعنى "بل"، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ}، {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ} فالله -تبارك وتعالى- عالم بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ومثل هذا يراد به العلم الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لا يعذب خلقه بمقتضى علمه، فالله -جل جلاله- علم منذ الأزل كل من سيخلق ويوجد، وعلم ما هو عامل، ولكن الله -عز وجل- من لطفه ورحمته وكمال عدله لا يعذب بمقتضى هذا العلم الأزلي، والله -جل جلاله- لا يتجدد له علم بشيء كان خافياً عليه إطلاقاً، ولا يحاسب خلقه ولا يعذبهم إلا بأعمالهم، فمثل هذا {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} يعني العلم الذي يترتب عليه الجزاء، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} [سورة محمد:٣١]، يعني العلم الذي يكون بعد تحقق الوقوع وهو مناط الجزاء، هذا هو المراد في هذا ونظائره، والله تعالى أعلم، قال: {وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} قال الحافظ ابن كثير -رحمه

الله - في معنى الوليجة: **أي بطانة ودخيلة**، كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فإنه يقال له: وليجة، وقد فسر بالبطانة، وهذا صحيح، فالذي يدّعي الإيمان ويظهر الإيمان ويكون له وجه إلى الكفار يتخذهم ويجعل منهم خاصة له يطلعهم على أمور المسلمين، ويظهر لهم مواضع الضعف في الأمة، أو بجعلهم إما مستشارين له أو مقربين إليه يطلعون على أمور ما كان ينبغي لهم أن يطلعوا عليها فهذا من اتخاذهم وليجة، لا تُدنِهم ولا تقربْهم، ولا تدخلهم ولا تطلعهم على شيء من أمور المسلمين الخاصة، أمّا مجرد تقريبهم بحيث إن هذا التقريب يطلعهم على أمور ما كان ينبغي لهم أن يطلعوا عليها كأن تتخذه كاتباً، أو مستشارا أو في مركز يمكنه من الاطلاع على كثير من الخبايا والخفايا فهذا لا يجوز، وهذا من اتخاذهم وليجة، أو كان ذلك بالإفضاء إليهم، يجعلهم جلساء وخاصة له، ويطلعهم ويخبرهم فهذا كله لا يجوز، وهو من موالاتهم، عبارة ابن كثير هنا يقول: **أي بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر** يعني الآية **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً}** وإنما يتخذ من أهل النصح لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم - أهل الصدق والإيمان.

{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [سورة التوبة:١٧ -١٨].

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: "مسجد الله" فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك.

{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} **أي: بشركهم، {وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}، وقال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}** **[سورة الأنفال:٣٤].**

هنا في قوله: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ}** مثل هذا الاستعمال تارة يرد في الممتنع شرعاً مثل قول الله -عز وجل -: **{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ}** [سورة التوبة:١٢٠]، وتارة يأتي في الممتنع عادة، وتارة يأتي في الممتنع عقلا، فالله -عز وجل - يقول: **{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ}** [سورة الأحزاب:٤٠]، **{مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}** [سورة النمل:٦٠]، فالسياق هو الذي يبين المراد، وهنا الله -تبارك وتعالى - يقول: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}** أي أن ذلك لا يقع منهم، ولا يتأتى منهم، ولا ينتظر منهم؛ لأنهم على الضد من ذلك، **{أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ}** فهم ليسوا بكفء ولا أهل لهذا، **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}** إنما تكون عمارة المساجد من قِبل أهل الإيمان، وقوله هنا: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا**

{مَسَاجِدَ اللَّهِ} قرء الجمهور **{مَسَاجِدَ اللَّهِ}** بالجمع، وهناك قراءة أخرى أشار إليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي متواترة قرأ بها أبو عمرو وابن كثير {أن يعمروا مسجد الله}، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن مسجد الله المراد به المسجد الحرام ذكره بعض السلف، بل إن من أهل العلم من قال: إن **{مَسَاجِدَ اللَّهِ}** عبر به عن المسجد الحرام بناء على القاعدة المعروفة أنه قد يعبر بالجمع عن المفرد والعكس، فقالوا: إن **{مَسَاجِدَ اللَّهِ}** بمعنى مسجد الله، والحسن البصري -رحمه الله- وجه هذا باعتبار أن المسجد الحرام هو قبلة المساجد، فمن عمر المسجد الحرام فهو عامر لسائر المساجد، ومساجد الله جمع، ومسجد الله أيضا مفرد مضاف، والمفرد المضاف يفيد العموم، فيمكن أن تكون القراءتان بمعنى واحد، إما باعتبار أن مسجد الله بمعنى الجمع، أو عكس هذا أن **{مَسَاجِدَ اللَّهِ}** يقصد به المسجد الحرام، والذين قالوا: إن المقصود بهذا هو المسجد الحرام نظروا الى أن الآيات تتحدث عن المشركين الذين كانوا يفتخرون بعمارة المسجد الحرام كما قال الله -عز وجل-: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** [سورة التوبة:١٩]، فإذا كان هذا هو المراد فهنا احتاجوا إلى أن يقولوا: إن **{مَسَاجِدَ اللَّهِ}** بمعنى المسجد الحرام هذا هو السبب، وهذه الآيات وإن كانت تتحدث عن المشركين الذين افتخروا بعمارة المسجد الحرام إلا أن ظاهرها العموم، فهي فيهم وهم السبب المتعلق بنزولها، ولكن العبرة بعموم اللفظ، إذا حملنا ذلك على العموم، فيقال: هذا فيهم وفي غيرهم ممن يفعل المتناقضات، ويحارب دين الله -عز وجل-، ويسعى في الأرض فساداً ثم بعد ذلك يدعي أنه يبني المساجد ويعمرها، ويفاخر بها وما أشبه هذا، وهذا موجود في بلاد كثيرة، تجد حرباً لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتجد في المقابل من يبني مسجداً تحفة معمارية هائلة ويأتيه السواح عراة يتفرجون عليه من أقطار الدنيا، تحفة معمارية للسياحة تنفق فيه أموال هائلة في بلاد يطحنها الفقر، وهذا الذي بناه يحارب الدعوة إلى الله، ويحارب الدعاة، ويحارب العلماء، ويحارب الحجاب، ويحارب الإسلام والمسلمين، فهذا تناقض، والعمارة يدخل فيها العمارة الحسية ببنائها وتشييدها من غير مبالغة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن تشييد المساجد وبنائها للمباهاة، ويدخل فيها العمارة المعنوية عمارة المساجد بذكر الله -عز وجل-، وإقام الصلاة، وما شابه ذلك من المعاني التي بنيت المساجد من أجلها، إقامة ذكر الله -عز وجل- في الأرض، فهذا كله من عمارتها، والمشركون على خلاف هذا، فكيف يعمرون المساجد عمارة حسية؟!

وأيضا إن نظرنا إلى المشركين في مكة الذين تتحدث عنهم الآيات هؤلاء **{وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً}** [سورة الأنفال:٣٥]، تصفيق وتصفير هذه عمارة المسجد الحرام عندهم، والشرك بالله -عز وجل- وتلبية شريكه كما تعرفون، "لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك"، فهذا هدم للمساجد وليس ذلك من عمارتها في شيء.

مسألة: بناء الكافر للمسجد: بمعنى أنه يتبرع ببناء مسجد، فمن أهل العلم من يقول: إن هذا لا يفعله الكافر؛ لئلا يكون له منة على المسلمين، ومثل هذه القضايا ينظر فيها إلى المصلحة، ينظر فيها إلى المصالح الشرعية، فقد يتخذ المسلمون مسجداً بناه لهم الكفار يعني لو أن المسلمين في بلاد الكفار تبرعت لهم البلدية أو الجامعة التي يدرسون فيها ببناء وقالوا: هذا مسجد لكم صلوا فيه، فيُصلَّى فيه ولا يقال: لا، نحن نبنيه، أو

نشتريه بمالنا، فمثل هذا يقبل ويصلى فيه، لو قالوا لهم: هذه كنيسة ما صار يأتيها أحد، خذوها وغيروا معالمها واجعلوها لكم مسجداً فهذا لا إشكال فيه، لكن لو أن أحدا من الكفار جاء وقال في بلاد المسلمين وفيهم أهل غنى ويسار قال للمسلمين: أنا أريد أن أتبرع ببناء مسجد يمكن أن يقولوا له: لا نريد منك مسجداً، نحن في غنى عنك، يمكن أن يقولوا هذا، لكن لا يجب عليهم هذا الجواب، والآيات هنا تتحدث عن أناس يفتخرون أنهم أهل للدين وأهل مكة، وأهل عبادة و أهل عمارة المسجد الحرام يقولون: ماذا صنعتم أنتم؟ نحن أهل السقاية والرفادة، ونحن أهل الحرم والعمارة، فالله رد عليهم بهذا الاعتبار، وأما دخول الكفار إلى المسجد للبناء كأجير عامل، أو مهندس صوتيات أو نحو هذا فهذا لا إشكال فيه، يجوز ولا يحرم، وسيأتي قول الله -عز وجل -: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [سورة البقرة:١١٤]، لكن ليس المعنى أنه يحرم دخول الكافر المسجد ليس هذا معناه، لكن هناك صور يمنعون منها مثل إذا جاء هؤلاء العراة، الحفاة من الدين، إذا جاءوا يتفرجون ويتسكعون في بلاد المسلمين يريدون أن يدخلوا هم ونساؤهم المتبرجات العاريات ويتفرجوا على المساجد، والمساجد القديمة، كما يقولون: التراث الإسلامي يقال لهم: لا يدخل هؤلاء هذه المساجد، ففرق بين هذا وهذا، فالكافر يجوز أن يدخل المسجد إما أن يكون بنّاء أو يكون هذا الكافر يريد أن يسمع أو يرى المسلمين، فبعض الناس قد يأتي بكافر معه يقول: أريده أن يتعلم الإسلام، يريد أن يرى المسلمين وهم يصلون، وهم يفطرون في رمضان وهم كذا فهذا لا إشكال فيه، وهذا يقع كثيرا في البلاد التي فيها جاليات وكذا، يأتى بكافر وهذا يأتي بصاحبه، وهذا يأتي بشخص يعرفه لعله يسلم ويرى المسلمين وما يعملونه بالمسجد فلا إشكال في هذا، بل حتى المسجد النبوي حرم المدينة لا يمنع من دخوله الكفار، والنبي -صلى الله عليه وسلم - ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وجبير بن مطعم في المسجد، وجاء وفد نجران للنبي -صلى الله عليه وسلم -، وقيل: إنه أسكنهم بالمسجد، الآن إذا قلنا العمارة محمولة على هذا وهذا واعتبرنا أو قلنا بالمجاز: فالعمارة التي هي بالمعنى الحقيقي تصدق على العمارة الحسية أي البناء، وكون عمارة المساجد بالذكر والصلاة وكذا من قبيل المجاز فعلى القول بالمجاز ما ذكرناه من أن العمارة تشمل هذا وهذا يكون هذا من قبيل حمل اللفظ على معنييه الحقيقي والمجازي وهو أحد وجوه الجمع بين الأقوال في التفسير المشترك، يحمل على معنييه أو معانيه إذا لم يوجد مانع، وكذلك الحقيقة والمجاز عند القائل به إلى غير ذلك من الصور المتعددة.

ولهذا قال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} فشهد تعالى بالإيمان لعُمار المساجد، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه.

هنا سقطَ حديث من الأصل عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان))[1]، وقوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ} من تمام الحديث وتخريجه هو الذي قال فيه رواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه، فهذه سقطت ولكن لابد منها.

وهذا الحديث لا يصح.

وقال عبد الرازق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم يقولون: ((إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها))[2].

وقوله: {وَأَقَامَ الصَّلاَةَ} أي: التي هي أكبر عبادات البدن، {وَآتَى الزَّكَاةَ} أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، {وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ} أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، {وَأَقَامَ الصَّلاَةَ} يعني: الصلوات الخمس، {وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ} يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [سورة الإسراء:٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل "عسى" في القرآن فهي واجبة.

هنا يقال كقوله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وهكذا أيضا الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، لكن كثيراً ما يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الدافع والمحرك للإنسان من أجل العمل، والامتثال والوقوف عند حدود الله -عز وجل-، وهكذا في ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكذلك الصيام والحج لكنه كثيراً ما يكتفي بهذا للأمور التي ذكرناها، الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين بين حسن صلته مع الله، وبين إحسانه إلى المخلوقين، فهنا أيضا في قوله: {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، وقال: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} أي سيبعثك، **وكل "عسى" في القرآن فهي واجبة**، وعسى من المخلوق ليست واجبة؛ لأنها قد تحصل وقد لا تحصل، لكن القرآن جاء بلغة العرب، ومن عادة العرب أن الملوك والعظماء يأتون بالوعد بقولهم: "عسى أن نعطيك ما أردتَ"، "عسى أن يحصل لك ما قصدتَ"، وهم يقصدون بذلك الوعد، فـ"عسى" من الله واجبة هذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أيضا، بمعنى أنها متحققة الوقوع، يعني إذا قال الله -عز وجل- عسى أن نفعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فهذا أمر متحقق الوقوع، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة

---

١ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٧)، وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، برقم (٨٠٢)، وأحمد في المسند، برقم (١١٧٢٥)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٥٠٩).

٢ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٢٩٤٣)، وعبد الرزاق في المصنف، برقم (٢٠٥٨٤).

الممتحنة:٧]، وحصل هذا بإسلام أبي سفيان وسهيل بن عمرو العامري، وأمثال هؤلاء كصفوان بن أمية وكذلك أيضا {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} [سورة المائدة:٥٢]، وكل ذلك قد تحقق، فإذا قال الله مثل هذا: عسى الله أن يفعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فالله -عز وجل - لا يترجى {فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}؛ لأن أصل "عسى" للترجي، والله لا يترجى؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، عالم بكل شيء، وإنما يترجى المخلوقُ الذي لا يدري هل يحصل أو لا يحصل هذا الشيء؛ لهذا السبب يقولون: "عسى" من الله واجبة، فالترجي لا يكون إلا لمن لا يعلم عواقب الأمور، ومن أهل العلم من يحمل مثل هذا على قاعدة أن الكلام قد يرد باعتبار أو بالنظر إلى حال المخاطب يعني مراعى فيه حال المخاطب، وله صور منها: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤] يعني على رجائكما، باعتبار نظر المخلوق كما سبق، وكذلك ما يرد للشك على القول بأن "أو" للشك {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧] يعني الناظر إليهم من المخلوقين يحزرهم هكذا، {مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} على هذا القول، ويمكن أن يكون بالنظر إلى المخاطب، والأحسن أن يقال: "عسى" من الله واجبة، وأن هذا جاء على طريقة العرب في الكلام أن العظماء والملوك حينما يتكلمون يُخرجون الكلام بهذه الصيغة ويقصدون به الوعد المتحقق.

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة التوبة:١٩ -٢٢].

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد, وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعُماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ} [سورة المؤمنون:٦٦ -٦٧] يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال {بِهِ سَامِراً} كانوا يسمرون به ويهجرون القرآنَ والنبيَّ -صلى الله عليه وسلم -، فخَيّر الله الإيمان والجهاد مع النبي -صلى الله عليه وسلم - على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به، قال الله تعالى: {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

هذه الآية رد على المشركين، وإنكار عليهم حيث افتخروا، وفضلوا ما هم فيه من العمل وسقاية الحاج على من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ} يعني أنهم يسمرون بالبيت ويقولون كلاماً قبيحاً في القرآن، وفي النبي -صلى الله عليه وسلم -، وهنا: {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} نفي الاستواء هنا يدل على تفضيل الطائفة الثانية، {لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} يعني أهل الإيمان أفضل منهم، {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني المصرين على ظلمهم، وإلا فإن الله -عز وجل - قد هدى كثيراً من الظالمين

والكافرين فمثل هذا يحمل على هذا المعنى، -والله أعلم -، وقيل غير ذلك، يعني بعضهم يقول: الذين سبق في علمه أنهم أشقياء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله -عز وجل -: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ -إلى قوله - وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} يعني أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبلُ ما كان في الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج، فأنزل الله {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} الآية.

هذا الأثر مرسل.

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلابد من ذكره هنا، روى عبد الرزاق عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه - أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر -رضي الله عنه - وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الجمعة -، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي -صلى الله عليه وسلم - فسألناه، فنزلت {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -إلى قوله - لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ}[٣].

هنا ثلاث روايات في سبب النزول تأملوها ونريد أن نعرف ما هو سبب النزول منها:

الأولى: عن ابن عباس -رضي الله عنهما - نزلت في العباس بن عبد المطلب حينما أسر يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني قال الله -عز وجل -: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ}**، هذه الرواية غير صحيحة، وغير صريحة في سبب النزول، وإنما مما يدخل في معناها العباس بن عبد المطلب.

والثانية: عن الضحاك بن مزاحم: لمّا أنّبوا العباس، وهي رواية ضعيفة.

والثالثة: في صحيح مسلم في الرجلين من المسلمين اللذين قالا ما قالا فنزلت الآية، لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم - فهذا هو سبب النزول.

ولو فرضنا أن رواية على بن أبي طلحة صحيحة مثلا، أو أن رواية الضحاك بن مزاحم صحيحة يمكن أن يقال: الحادثتان متقاربتان، فإن كان عندنا علم بأن الحادثتين متقاربتين نقول: الآية نزلت بعد الحادثتين، وإذا لم يكن عندنا علم بهذا فنقول: إن كان الزمان متقارباً فقد نزلت آية بعد آية، وإن كان الزمان متباعداً فيمكن أن تكون الآية نزلت مرتين، ومن أمثلة ما يحتمل أن تكون الآية نزلت مرتين أو أن الزمان متباعد قصة هلال بن أمية وعمير العجلاني كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))[٤]، فإن

---

٣ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٨٧٩).

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦).

كان نزل عليه الحكم -حكم اللعان - فلن يقول له: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))، وكلاهما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم - هذا، فدل ذلك على أن الآية نزلت بعد الواقعتين، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٢٣ -٢٤].

أمر الله تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباءً أو أبناءً، ونهى عن موالاتهم إذا {اسْتَحَبُّوا} أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} الآية [سورة المجادلة:٢٢].

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} الآية[1].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا} أي: اكتسبتموها وحصلتموها {وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا} أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا} أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وروى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد، عن جده قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه))، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله: ((الآن يا عمر))[2]، انفرد بإخراجه البخاري.

---

١ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٨٢٩١)، وقال: وجعل أبوعبيدة يحيد عنه.

٢ - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم -، برقم (٦٢٥٧).

وروى الإمام أحمد وأبو داود -واللفظ له - عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم))[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ}** أورد المصنف -رحمه الله - ما رواه البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة.... إلى آخره، وفيها أن سبب نزول الآية هو أن أبا عبيدة -رضي الله عنه - قتل أباه في يوم بدر، وهذا لا يثبت ولا يصح، وليس بسبب لنزول الآية، وقوله -تبارك وتعالى -: **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ}** إلى آخر ما ذكر، في الأولى قال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء}** والإنسان يتقوى بآبائه ويعتز بهم، ويستنصر بإخوانه؛ فذكر الآباء والإخوان في الموالاة، وفي الآية التي بعدها: **{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ}** العلماء في مثل هذا يذكرون بعض التوجيهات التي من أجلها قدم هذا على هذا، وهذه ليست بقاطعة، ولكن منها ما يكون ظاهراً، ومنها ما يكون خفياً، والكلام فيه لا يخلو من التكلف، ومما ذكر في هذا أن الله -عز وجل - ذكر الآباء أولاً؛ لأنهم أصل الإنسان الذين يعتز بهم، فالإنسان يعتز بآبائه فابتدأ بذكرهم هنا، ثم ذكر الأبناء؛ لأنهم امتداد له ويتفرعون منه، وهم زينة الحياة الدنيا، ولشدة علوق القلب بهم، ثم ذكر الإخوان؛ لأنهم يلونهم في القرب، ولأن الأخ هو الناصر، وذكر بعده الأزواج، فالأزواج عنهن عوض، فلسن كالآباء والأبناء والإخوان، فهؤلاء لا عوض عنهم، وذكر الزوجات من ضمن هؤلاء؛ لأن الإنسان يحب زوجته، ولربما كانت سببا لترك كثير مما أمره الله -عز وجل - به كما قال الله -تبارك وتعالى -: **{إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** [سورة التغابن:١٤]، وكما ذكرنا من قبل أن هذه العداوة الجالب لها المحبة، فزوجته لربما من شدة محبتها له ثبطته عن كثير من الأعمال الصالحة من الجهاد في سبيل الله، والحج، والعمرة، أو الهجرة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، ثم ذكر العشيرة وهم رهطه وقومه الأدنوْن، قيل: الذين يتفرعون إلى الجد العاشر، عشيرة وهذه اللفظة تدل على المعاشرة والمخالطة، فالناس حينما كانوا مع قبائلهم وفيهم فالذين تكثر مخالطته لهم هم الأقرب إليه من هذه القبيلة، وهم عشيرته، فهذا يدل على كثرة المخالطة والمعاشرة، فهو يحبهم ويأنس بهم، وهم قريبون منه، ثم بعد ذلك ذكر الأموال التي اكتسبوها **{وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا}**، وأصل الاقتراف الاقتطاع، اقتطاع الشيء من مكانه يقال له: اقتراف، وهذه اللفظة تدل على معنى الدنوّ، فالكاسب والمقترف يُدني هذا المكسب إلى نفسه، ويدخله تحت ملكه، **{وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا}**، فقدم الأموال التي اقترفوها على التجارة التي يخشون كسادها فالأموال التي حصلوها هي أعلق بقلوبهم من التجارة التي يرجون نفعها فهذا شيء حصلوه فهو بمنزلة رأس المال، وأما التجارة فالمنتظر فيها الربح، ومن غرائب التفسير التي تذكر في

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، برقم (٣٤٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٢٣).

هذا ما جاء عن ابن المبارك -رحمه الله- أنه فسر التجارة التي يخشى كسادها بالأخوات والبنات، يعني أنه يهاجر فيترك أخواته أو بناته ثم بعد ذلك لا يتزوجن، وكذلك لربما هاجر معهن فينتقل إلى بلاد يكون غريباً فيها ثم تبقى بناته وأخواته لا يتزوجن، وهذا لا تُحمل عليه الآية، ولا يقال للأخوات والبنات: إنهن تجارة، مع أنه يقال لبقاء البنت أو الأخت التي لم تتزوج، يمكن أن يقال في كلام العرب: إنها كسدت، لكن لا تسمى تجارة، فالله -عز وجل- يقول هنا: {وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا}، ثم بعد ذلك ذكر المساكن التي يرضونها المساكن الطيبة المريحة فهذا آخر هذه الأمور، وما قبله لربما يكون أكثر شغلاً وتعلقا بالقلب منه، هكذا ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والله تعالى أعلم.

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

[سورة التوبة:٢٥ -٢٧].

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من سورة براءة.

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه -إن شاء الله تعالى- مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

هنا ما نقله عن مجاهد من أن هذه أول آية نزلت من "براءة"، والكلام في أول ما نزل وآخر ما نزل مرجعه إلى النقل ممن شهدوا التنزيل، وبهذا الاعتبار إذا قال التابعي: إن هذه أول آية نزلت فإن هذا يكون له حكم المرسل، والمرسل من أنواع الضعيف، بهذا الاعتبار هذه أول آية نزلت من "براءة"، و"براءة" لم تنزل جملة واحدة، وهذه الآية: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} من الآيات التي مر ما قد يفهم منه أنها نزلت قبل فتح مكة كما قال الله -عز وجل-: {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [سورة التوبة:١٣-١٤]، وأما هذه الآية فصريحة أنها نزلت بعد فتح مكة وغزوة حنين، فالله تعالى أعلم، وهنا يقول الله -عز وجل-: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} المواطن جمع موطن وهي مقامات الحرب كيوم بدر وغيرها مما نصر الله -عز وجل- به المسلمين، {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} الرحب هو المكان الواسع، والرحب يعني السعة {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} يعني على سعتها {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ} هذه حال الإنسان المنهزم:

وضاقت الأرضُ حتى ظن هاربهم *** إذا رأى غيرَ شيء ظنه رجلا

فالشاعر يصف حال المنهزمين: حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شيء يعني يظن أنه مقاتل أو فارس يطارده،

فهنا ضاقت بما رحبت، والناس يقولون: على الرحب والسعة، والرحب يعني المكان الواسع، يعني لو قالوا: على الرحب -والرحب يعني على السعة والمكان الواسع - فيؤدي نفس المعنى:

فما زلتَ تحسب كلَّ شيء بعدهم *** خيلاً تكر عليهم ورجالا

هذا يصف حال المنهزم.

وقد كانت وقعة: "حُنين" بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ -عليه السلام - من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري...

"النضري" ليس من بني النضير، وإنما هو مالك بن عوف النضري، وهو قائد هوازن، ومَن جاء معهم من ثقيف، وكان قائدهم غير مالك بن عوف، لكن القائد العام هو مالك بن عوف النضري وإلا فإن مع هوازن من بني عبد ياليل، ومعهم آخرون من بني جشم، وكان معهم قائد كبير عمره مائة وعشرون سنة وهو دريد بن الصمة الشاعر المعروف كان فارساً، وداهيةً، ورجلا مجرباً، ولم يكن فيه غناء من جهة الحرب لضعفه وكبر سنه، وكان أعمى لكن جيء به للانتفاع برأيه، لما جاءوا به سأل عن المكان وسأل عما فعل مالك بن عوف فقيل له: إنه أمر الناس أن يخرجوا بأموالهم ونسائهم وكل شيء، فجعلوا النساء والأطفال خلف الجيش، وجعلوا خلفهم الإبل والبقر والغنم بحيث إن الإنسان يموت دون أهله وماله، فلما قالوا لدريد بن الصمة نبر بنغمة يعني أصدر صوتا من شفته يستهزئ، وقال: راعي غنم، وذكر أن هذا لا يصلح؛ لأن الرجل إذا انهزم فإنه لا يرده شيء، المنهزم لا يلوي على شيء، فمالك بن عوف أبى وهددهم إن لم يقبلوا كلامه أن يقتل نفسه! فالحاصل أنه حصل ما حصل وانهزموا الهزيمة المعروفة وكان دريد يقول:

ليتني فيها جَذَعْ *** أَخُبُّ فيها وأضع

لذلك قتل بعد المعركة، أسر ثم ضربت عنقه وهو شيخ كبير أعمى، والسبب أنهم كانوا يستفيدون من رأيه في الحرب، جاءوا به من أجل هذا.

وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له: "حنين"، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن.

حنين في شرق مكة، يبعد عن مكة حوالي "٣٠" كيلو، وأنت متجه من جهة عرفة طريق الطائف إلى مكة تأتيك الشرائع بعد ثلاثين كيلو تقريبا أو "٢٨" كيلو، هناك وادي حنين منسوب إلى قرية هناك وبئر.

فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله -عز وجل.

هؤلاء كانوا رماة عُرفوا بهذا، لا تكاد تخطيء لهم رمية، فجاءت النبال كأنها مطر تزعزعه الريح، والمسلمون على غفلة ما ظنوا أن هؤلاء قد وُجدوا في هذا المكان، وكمنوا لهم في الوادي، فصاروا أمام سيل من مطر من النبال فتقهقرت دوابهم، وتقهقر الناس وانهزموا وما بقي مع النبي -صلى الله عليه وسلم - كما جاء في بعض الروايات إلا تسعة، وقيل غير ذلك، ثم بعد ذلك دعا النبي -صلى الله عليه وسلم - أهل الشجرة، وأهل سورة البقرة، فعطفوا عليه عطف البقر على أولادها، قالوا: لبيك لبيك، وكان الرجل منهم إن لم يطاوعه بعيره من شدة الهلع من كثرة النبال والرماح والحراب نزل فتركه.

وثبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوِّه باسمه -عليه الصلاة والسلام -، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: إليَّ يا عباد الله، إليَّ أنا رسول الله"، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب**

وهذا منتهى الشجاعة، راكب على بغلة لا تحسن الكر والفر، ولا تسرع، بغلة، والبغلة لا تستعمل لمثل هذا للإغارة على العدو أو الخلاص منه والفرار لأنها تدرَك بسرعة، وينوِّه باسمه في هذا الموقف الرهيب، والنبال والناس انهزم الشجعان "١٢" ألفا انهزموا، وما بقي معه إلا نحو تسعة وهو يقول:

أنا النبي لا كذب *** أنا ابن عبد المطلب.

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون.

والذين ثبتوا في أول الأمر تسعة أو عشرة، وذكر الحافظ في الفتح كلاماً من هذا، وذكر بعض الأبيات التي افتخر بها من افتخر منهم، وكذلك في السيرة لابن هشام وفي غيرها، ثم بعد ذلك تتابع الناس، وتكاثروا، وثبت معه الذين رجعوا لما دعا وقال: يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، جاء معه عدد عشرات من الناس، وثبتوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وتكلم من تكلم ممن خرج في هذه الغزوة ممن هم حدثاء عهد بالإسلام، وبعضهم لم يسلم مثل صفوان بن أمية كان موجوداً في هذه الغزوة، خرج وخرج أبو سفيان وخرج مُسلمة الفتح، وصفوان خرج ينظر في هذه الغزوة ولم يخرج مقاتلاً، ومعه أخ له لأمه فلما نظر إليهم منهزمين، قال: الآن بطل سحر محمد، والله لا يردهم إلا البحر، فقال له صفوان بن أمية: اسكت قطع الله لسانك، أو قال: فض الله فاك لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، يعني من باب العصبية أن يسودني رجل من قريش أحب إلى من أن يسودني رجل من هوازن ثم بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه -رضي الله تعالى عنه.

فمنهم: أبو بكر، وعمر -رضي الله عنهما -، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم -رضي الله عنهم.

هذا أبو سفيان بن الحارث هو الذي يهجوه حسان بن ثابت كان من أشد الناس عداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم -، وهو من أكثرهم شبها به في الخلقة، الذين يشبهون النبي -صلى الله عليه وسلم - الفضل بن عباس

وأبو سفيان بن الحارث، وهوشديد الشبه به، وكان شديد العداوة جداً، والهجاء الذي تعرفونه من كلام حسان -رضي الله عنه - في هذا وليس في أبي سفيان بن حرب قائد قريش:

ألا أبلغْ أبا سفيان عني *** فإنك مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ *** فشرُّكما لخيركما الفداء.

يقصد أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم.

ثم أمر -صلى الله عليه وسلم - عمه العباس -وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة -يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه.

هذا هو الراجح: قيل بايعوه على الموت، والراجح أنهم بايعوه أن لا يفروا.

فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فرجعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فلما رجعت شرذمة منهم، عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم -...

الشرذمة يعني فئة قليلة، والناس يتوهمون كثيرا أن الشرذمة يعني الطائفة المذمومة، وليس كذلك، مثل كلمة **{هَلَكَ}** يظنونها تعني المعنى المذموم، وليس ذلك صحيحاً، إنما تعني: فارقَ الدنيا **{حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}** [سورة غافر:٣٤].

أمرهم -عليه السلام - أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: "اللهم انجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

حينما رجعت الطائفة التي هي الخلاصة والصفوة، والتي تربت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أصحاب الشجرة أصحاب سورة البقرة، كما حصل في حروب الردة في قتال مسيلمة يوم اليمامة تقهقر الناس وانهزموا، فجاء خالد بن الوليد -رضي الله عنه - فكان الأعراب هم الذين في أول الصفوف، فأبعدهم وجاء بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من أهل بدر، فوضعهم في الصفوف الأولى في الصف الأول فانتصروا.

وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما -، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يوم حنين؟، فقال: لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوما رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب**[4]

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفرٍّ ولا لكرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين -، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} أي: طمأنينته وثباته على رسوله، {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي: الذين معه.

يعني من المحتمل أن الله أنزلها على بقية المؤمنين، على الجيش الذين معه فبعد ذلك حصل لهم الثبات ورجعوا وتتابعوا، ويحتمل أن يكون المراد {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} يعني الذين رجعوا إليه فصبروا وقاتلوا معه حتى حصل الانتصار.

{وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف -هو ابن أبي جميلة الأعرابي - قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بَرْثَن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يوم حنين لم يقوموا لنا حَلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

العلماء اختلفوا في قتال الملائكة، والراجح أنه لم يحصل قتال من الملائكة إلا في يوم بدر، وأما ما عدا ذلك من المواطن فكانوا يثبتون المؤمنين، ويقذفون الرعب في قلوب الكافرين.

وقوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدِموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما.

يعني قوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يحتمل أن يكون المراد {يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:١٠٢] يعني الذين انهزموا {يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}، فكما قال الله -عز وجل - في الذين انهزموا في يوم أحد أو كادوا {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [سورة آل عمران:١٥٥]، فهنا {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} يمكن أن تفسر بهذه الآية، يتوب على من انهزم، والمشهور عند المفسرين -ولعله هو المتبادر والله تعالى أعلم -، أنه لما ذكر هوازن وما حل بهم، ومن جاء معهم وأنه عذبهم قال {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} يعني منهم، فأسلموا وجاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم - طائعين منقادين وأسلم قائدهم مالك بن عوف النضري لما لجأ إلى حصن الطائف

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، برقم (٢٧٠٩).

وحاصر النبيُّ -صلى الله عليه وسلم - حصنَ الطائف، ويذكر أهل السير أن النبي -صلى الله عليه وسلم - كتب إليه سراً ووعده، فالرجل تسلل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من الحصن وجاء إليه وأسلم ومدحه بقصيدة.

فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة.

هم جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك وتكلموا معه، وذكروا له قصيدة يستعطفونه -صلى الله عليه وسلم - بها، ويذكرون رضاعته عندهم، وما حل بهم من قدر الله -تبارك وتعالى -، وما حصل بهم من البلاء والمصيبة التي نزلت، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - خيرهم بين أزواجهم وأولادهم، وبين أموالهم، فقالوا: خيرتنا بين أموالنا و أحسابنا، أو قالوا: أعراضنا فاختاروا الأولاد والنساء فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم - بردها إليهم بعدما فُرقت يعني ابن عمر -رضي الله عنه - كان أخذ امرأة، وذهب بها إلى أخواله من أجل أن يصلحوها له فكان يطوف بالبيت وإذا برجل يأتي إليه يشتد ويقول: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قد رد إلينا نساءنا وأولادنا.

هو جاء بهم خلف الجيش، كانوا مجتمعين ما يحتاج أن يذهبوا إليهم في بيوتهم، في ميدان المعركة ستة آلاف.

فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل.

يعني أعطى أبا سفيان بن حرب مائة، وأعطى معاوية مائة، وأعطى صفوان مائة، وأعطى رجلا ما بين جبلين غنماً، فكان ذلك سببا لإقبالهم عليه -عليه الصلاة والسلام -، ومحبتهم له حتى قال قائلهم: إنه -صلى الله عليه وسلم - يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّضْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إنْ رَأيتُ ولا سَمعتُ بمثْلِه * في النَّاس كُلّهم بمثل مُحَمَّد**

أوْفَى وأعْطَى للجزيل إذا اجتُدِى * ومَتى تَشَأ يُخْبرْكَ عَمّا في غَد**

هذا البيت غير صحيح، والرجل حديث عهد بالإسلام، فلا يعلم ما في غد إلا الله، وتعرفون خبر الجاريتين كن يقلن:

أتيناكم أتيناكم *** فحيونا نحييكم

ولولا الحبة السمراء *** ما جئنا بواديكم

ثم لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم - قلن:

*** وفينا نبي يعلم ما في غد

فنهاهن النبي -صلى الله عليه وسلم - وقال: لا يعلم ما في الغد إلا الله، وأمرهن أن يَعُدن على ما كن يقلنه من الكلام الأول، فهذا كان حديثَ عهد بالإسلام، مثلما قال حديثو العهد الذين كانوا معه حينما ذهب إلى

حنين، ومروا على سدرة فقالوا: ((اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط))[٥]، والإنسان في مثل هذه الأمور يعذر بالجهل مثل حديث العهد بالإسلام يعذر بذلك.

وإذَا الكتيبة عَرّدَتْ أنيابها * بالسَّمْهَرِيّ وَضَرْبِ كُلّ مُهَنَّد**

فَكَأنَّه ليث على أشْبَاله * وسط الهَبَاءة خَادر في مَرْصَد**

وهذا وقع أيضا في نفوس الأنصار -رضي الله عنهم- حينما لم يعطهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ووَكَلَهم إلى إيمانهم، فقال بعضهم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لقي قومه فأعطاهم ولم يعطنا، وسيوفنا ما زالت تقطر من دمائهم، فجمعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لهم كلامه المعروف -عليه الصلاة والسلام-: ((يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟))، كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: ((ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم؟))، قال كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: ((لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)) [٦].

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء لتركبن سَنَن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٨٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٥٤٠٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٢٨ إلى الآية ٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [سورة التوبة:٢٨ -٢٩].

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين، الذين هم نَجَس دينًا، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: **أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام**، يعني أن المؤمنين جمعوا بين الطهارتين الطهارة الحسية فالمؤمن لا ينجس، والطهارة المعنوية وهي أنهم على الإيمان والهدى والحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم -، والكفار قال الله -تبارك وتعالى - عنهم: إنهم نجس، فيقول ابن كثير هنا: الذين هم نجس دينا يقصد أن نجاستهم معنوية باعتبار أنهم مشركون محادون لله -عز وجل -، متبعون للباطل، فهذا معنى كونه نجساً، ولذلك يقال: إن بدن الكافر طاهر، وهو الذي عليه الجمهور منهم الأئمة الأربعة، خلافا للظاهرية وما روي عن الحسن البصري الذين قالوا: إن نجاستهم حسية! وهذا غير صحيح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - أو قبل ذلك الله -تبارك وتعالى - أباح التزوج من المرأة الكتابية، ولو كانت نجسة لما جاز التزوج منها كيف يقارفها وهي نجاسة؟، وكذلك أيضا طعام أهل الكتاب حل لنا ولو كانت نجاستهم حسية لما حل، وكذلك أيضا النبي -صلى الله عليه وسلم - توضأ من مزادة مشركة، ودعته يهودية إلى طعام، وكذلك في يوم خيبر لما دعته اليهودية على شاة مصلية، فكل هؤلاء كفار ومع ذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يأكل طعام أهل الكتاب، وكان يتوضأ من مزادة المشركة، فهذا كله يدل على أن نجاستهم نجاسة معنوية، وليست حسية، بمعنى أنك لو مسست الكافر وهو رطب فإنك لا تحتاج إلى أن تغسل يدك، أو تعيد الوضوء، كما نقل عن بعضهم أنه إذا صافح الكافر توضأ!، فهذا نقل عن بعض السلف وهم قليل إلا أن الجمهور على خلاف هذا، فـ"نجس" هذا مبالغة في وصفهم بالنجاسة، كأنهم عين النجاسة، وبعضهم يقول: على تقدير "ذوو نجس" إنما المشركون ذوو نجس، ولا حاجه لمثل هذا -والله أعلم -، **{إِنَّمَا**

{الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} كأنهم هم عين النجاسة، واعتبر هذا بما يقوله كثير من المأفونين المفتونين الذين يستكثرون على الكافر أن يقال له: كافر هذه لغة القرآن {نَجَسٌ}.

وكان نزولها في سنة تسع.

يعني {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} الراجح أن المقصود {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} أي بعد سنة تسع لأن الآيات قرئت على الناس بذلك الحين في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- خلافا لمن قال: إن المراد سنة عشر {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}، وهذا في غاية البعد، فالمقصود أنهم حجوا سنة تسع مع المسلمين، فكان ذلك آخر العهد {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} يعني بعد سنة تسع حيث حجوا فيها مع المسلمين.

ولهذا بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليًّا صحبة أبي بكر -رضي الله عنهما-، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك، وحكم به شرعا وقدرا.

وروى عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} إلا أن يكون عبدًا، أو أحداً من أهل الذمة.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}.

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح: ((المؤمن لا ينجس))[1].

قوله هنا: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ} قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة، قال روى عبد الرزاق عن جابر في قوله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} بمعنى أنه إذا كان عبداً أو أحداً من أهل الذمة، على هذا القول يجوز له أن يدخل الحرم، يدخل المسجد الحرام، وهذا أحد الأقوال في المسألة، والأقرب أنه لا يجوز لهم دخول الحرم ولا المسجد الحرام بظاهر هذه الآية {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} فهذا يشمل ما إذا كان هذا المشرك عبداً أو كان من أهل الذمة فلا فرق، ونقل عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه قال: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، هنا الله -تبارك وتعالى- قال: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، ولم يقل: سائر المساجد فيوقف عنده، عند ظاهره بحيث يمنعون من دخول المسجد الحرام، أما بقيه المساجد فالآية لا تدل على هذا، والذين عمموها وقالوا: إنها تشمل سائر المساجد نظروا إلى العلة، ما العلة في منع دخولهم إلى المسجد الحرام؟ هو ما ذكر قبله قال: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، (فلا يدخلوا) فـ"الفاء" هذه تدل على أن ما بعدها مرتب على ما قبلها، وهذا الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإيماء والتنبيه أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً في نظر العقلاء،

---

١ - رواه البخاري، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، برقم (٢٨١)، ومسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، برقم (٣٧١).

فلا يدخلوا المسجد الحرام؛ لأنهم نجس، فهذه النجاسة علة مانعة من دخولهم سائر المساجد التي هي محل الطهر والطهارة من هذا الباب، لهذا السبب عممها بعض أهل العلم باعتبار أن العلة قد تعمم وقد تخصص.

وقد تُخصص وقد تُعمم *** لأصلها لكنها لا تخرم

فهذا مثال عند القائل بهذا القول على أن العلة تعمم، الحكم المعلول، ومنعُ المشركين من دخول المساجد عموما -منع الكفار من دخول أي مسجد- هو قول معروف للمالكية، والشافعي -رحمه الله- فرق قال: يجوز أن يدخلوا للحاجة ليس في الحرم، وإنما في المساجد أن يدخلوا للحاجة، وأما ما يروى عن أبي حنيفة فهو أنه أطلق أنه يجوز لحاجة وبغير حاجة، بل حتى في المسجد الحرام هذا مروي عنه -إن صح- حتى في المسجد الحرام أنه يجوز لهم أن يدخلوا فيه، وقال الآية: {فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، يعني الحج، وإن القضية في منعهم من الحج أن لا يحجوا مع المسلمين، ((أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان))[٢]، هكذا فهم -رحمه الله-، رأيتم كيف العلماء يفهمون؟ رأيتم كيف يختلفون؟ والآن لو جاء وقال: يجوز للمشرك أن يدخل الحرم، فإنه يُشنع عليه وربما يتهم في دينه، ويتهم في عقله، ويتهم في علمه، على أن هذا القول مرجوح لا يصح، والراجح أنه لا يجوز لهم أن يدخلوا المسجد الحرام لا أهل الذمة ولا غير أهل الذمة، حتى ولو كان مملوكاً أو أجيراً أو خادماً أو غير ذلك، ومن أهل العلم من خص المسجد الحرام بالمسجد نفسه أما الحرم فقال: يجوز لهم أن يدخلوا فيه، وهذا غير صحيح، وإنما يطلق المسجد الحرام على المسجد وعلى الحرم كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح:٢٥] يعني عن الحرم، و{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [سورة الإسراء:١] على أحد الأقوال المشهورة أنه الحرم إلى غير ذلك مما يأتي من إطلاق المسجد الحرام مراداً به منطقة الحرم كلها فهم لا يدخلونها، ومن السلف كقتادة من فرق بين الذمي وغير الذمي، فقال: أهل الذمة يجوز لهم أن يدخلوا الحرم، والمسجد الحرام، وغير الذمي من المشركين لا يجوز له أن يدخله، فهذا خلافهم فيما يتعلق بالحرم، وأما ما يتعلق بدخولهم جزيرة العرب فخلافهم في هذا أكثر، فمنهم من قال: اختلفوا في تحديدها أصلا هل هي الحجاز فقط، وهذا قال به طائفة من أئمة السلف، ومنهم من حدد جزيرة العرب بحد أكبر من البحر إلى البحر شرقاً وغرباً، و جنوباً وشمالا من البحر إلى أطراف الشمال، ولكن ذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب))[٣]، وقال: ((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب))[٤]، فهل المقصود بهذا أن يخرج من كان مستوطنا فيها مثل اليهود الذين في خيبر والنصارى الذين في نجران مثلاً أو نحو هذا؟ أو المقصود به كل يهودي ونصراني ومشرك حتى لو كان أجيراً أو عبداً أو مملوكاً أو نحو هذا؟

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، برقم (١٥٤٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب جوائز الوفد، برقم (٢٨٨٨)، وبرقم (٢٩٩٧)، في أبواب الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم (١٦٣٧).

٤ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٨٥٣١)، ومالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، برقم (١٥٨٤)، وابن أبي شيبة في المصنف، برقم (٣٢٩٩٢)، وعبد الرزاق في المصنف، برقم (٩٩٨٤).

إذا نظرت إلى فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وفعل الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم تجدهم لم يفعلوا ذلك، يعني عمر أخرج اليهود من خيبر لكن بقي النصارى واليهود في نجران، اليهود كانوا موجودين إلى عهد قريب، يعني يحتمل من خمسين سنة في نجران وفي الأحساء، وفي اليمن لا زالوا موجودين وهي من جزيرة العرب على أحد التفسيرات، لم يخرجهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا الخلفاء الأربعة، فمثل هذه القضايا تحتاج إلى شيء من الفقه والفهم والتروي، ولا يقال: إن الصحابة عجزوا عن هذا مثلا، كانوا في ضعف، الخلفاء والدولة الأموية والعباسية والعثمانية كلها كانت في ضعف ما قويت، والآن الأمة قوية وممكَّنة وعندها قدرة أن تفعل ما لم يستطيعوا فعله في القرون المتطاولة خلال الألف والأربعمائة سنة، عندها ثبات الدين، والقوه في اليقين والغلبة على العدو والقهر أنها تستطيع أن تفعل هذا ولم يستطيعوا أن يفعلوه؟! أو أن المراد غير هذا، وإذا كان عمر -رضي الله عنه- كان له وجهة نظر سياسية وهي أن المدينة يوضع عليها سور ما يدخلها أحد من الأعاجم، لا يدخلها أحد من هؤلاء، نظرة سياسية أن تبقى المدينة رمزاً فالشاهد أنه ما وافقه على هذا بعض الصحابة كالعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن عباس، فترك رأيه وصاروا يأتون، فالمغيرة بن شعبة جاء بقيْنٍ -صانعٍ حدّادٍ- هو أبو لؤلؤة المجوسي إلى المدينة، وهو الذي قتل عمر -رضي الله عنه-، جاء به الصحابة إلى المدينة، وليس إلى مكان آخر، فكانوا يأتون بهؤلاء الخدم والعبيد والأرقّاء إلى المدينة، وغير المدينة بكثرة، لما طعن عمر قال للعباس وقال لابن عباس: كنت أرى ألا يدخلها كذا فقال له: إن شئت أخرجناهم وقتلناهم قال: هيهات بعد أن تكلموا لغتكم، ودانوا دينكم، اختلطوا مع الناس وامتزجوا، لكن كان يؤتي بهم أي السبايا والأسرى يؤتى بهم إلى المدينة، المقصود من هذا ليس التبرير لتصرفات كثير من الناس حيث إنه يأتي بخادمة مثلا مشركة، نحن نقول: لا تأتِ بها، أو سائق كافر نقول لا تأتِ به، لكن في المقابل يحتاج الإنسان أن يكون عنده فقه في النظر إلى مثل هذه الأشياء، ولا ينظر إليها بجهل أو هوى، وإن كان جاهلاً لا يتكلم، فكثير من الأحيان الإنسان لو نظر إلى قول يخالف قوله لربما اتهم القائل بعقله، بينما تجد هذا القول قال به كثير من السلف، وكذا مسائل الحج، فالذي يعتقده الإنسان شيء يعني أنا اعتقد أنه لا يجوز الرمي قبل الزوال، والمبيت بمنى واجب، ولا يجوز الخروج من عرفة قبل الغروب، وأن السعي ركن، كل هذا الكلام أعتقده، لكن أعلم أنه يوجد من قال بأن السعي سنة!! وأن المبيت في منى سنة، وأن المبيت بمزدلفة سنة، أئمة كبار معتبرون، ويوجد من يقول بأنه لا يجب أن يكون الرمي بعد الزوال، ويجوز الخروج من عرفة قبل الغروب، وهم أئمة كبار، و لذلك فمن الناس من لو وجد من يقول بأن السعي بين الصفا و المروة سنة كان يقول: هذا يربط ويضرب بمقاريع على رأسه حتى ينطحن الحب الذي في رأسه، بهذه اللغة؟ وهذا غير صحيح، فرق بين من يتكلم بهوى أو جاهل وبين من اجتهد وبذل وسعه في الاجتهاد، واتقى الله قدر استطاعته، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فرق بين هذا وبين هذا، ثم هناك فرق بين الإنسان الذي يتبين له رأي أو مسألة من المسائل وبين أنه يبدأ يحكم بمقتضى هذا الرأي ويطبق فهذه مشكلة أخرى كبيرة!!.

والكلام في قضايا الخلاف وما أشبه ذلك الذين يتكلمون فيها للأسف منهم من يتكلم بهوى بحيث يريد أن يضيع حقائق الدين ويحتج أنه فيه خلاف، فيه أقوال تدل عليها الدليل، وفيه شيء يخالف الدليل، فيريد أن

يضيع حقائق الدين بحجة أنه فيه خلاف، فيحتج بالخلاف على تضييع حقائق الدين وهذا غلط، فأحياناً تحتاج أن تذكر مثل هذا الكلام الذي سمعتموه الآن، لكن ممكن الكلام نفسه يقوله صاحب هوى، ومن الفهم والفتاوى ترى أنها ليست فيه، بل قيل عكس هذا تماماً، وترى العلماء كثر، هذا يقوله ناس وجعلوا العامة في لبس وحيرة، فتنة للناس، فالعامة لا يخاطبون بهذه الطريقة إطلاقاً، العالم يجتهد بعيداً عن الهوى فإذا أداه اجتهاده إلى شيء من هذا فلا يعاب ولا يذم، وأما إذا تكلم الإنسان بجهل أو بهوى، ولو كان عنده علم فهذا لا يقبل منه، ويرد عليه -والله أعلم -، فالحاصل أن عطاء هنا يقول: **الحرم كله مسجد** {فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} يعني فلا يقربوه.

وقوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتُقْطعنّ عنا الأسواق، ولتَهلكنّ التجارة وليذهبنّ ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} من وجهٍ غير ذلك {إِنْ شَاءَ} إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: إن هذا عِوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية.

وهكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

يعني الآن {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} عيلة يعني الفقر لمّا يمنع هؤلاء الكفار من المجيء إلى الحجن كانوا يأتون معهم من أنحاء الجزيرة يأتون بالبضائع والأسمان والأزباد و غيرها من البوادي، ومن الحواضر فخاف المسلمون أن ينقطع ذلك عنهم، ويسبب لهم هذا ضيقا في الحال، فوعدهم الله -عز وجل - بالإغناء من فضله، بأن يفتح لهم أبواباً أخرى سواء كان ذلك من الجزية أو كان ذلك بإنزال الغيث، وإخراج الأرض النبات، وما يحصل من البركات، أو غير ذلك من الأسباب فلا يخص ذلك بسبب دون سبب، والله أعلم.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ} أي: بما يصلحكم، {حَكِيمٌ} أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره -تبارك وتعالى -؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم - لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد -صلوات الله عليه -، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}.

{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} هذه الآية -والله تعالى أعلم- مختصة بأهل الكتاب كما هو ظاهر، ولهذا ذهب الشافعي وأحمد إلى أن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب، ومن أُلحق بهم وهم المجوس، وأما غير أهل الكتاب فإنهم لا تؤخذ منهم الجزية، بالقتال أو الإسلام، خلافاً للإمام مالك -رحمه الله- ومن وافقه الذين قالوا: تؤخذ من عموم الكفار حتى المشركين، واختلفوا في تفصيلات أخرى هل تؤخذ من نصارى العرب أو لا؟.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحر، وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامَه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله.

وقوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} أي: إن لم يسلموا، {عَنْ يَدٍ} أي: عن قهر لهم وغلبة، {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: ذليلون حقيرون مهانون.

{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} الجزية قيل: إنها من جزى يجزي، بمعنى كافأ يعني كأنها في مقابل الحماية التي تحصل لهم من المسلمين، فيدفعون هذا المال إزاء هذا المطلب، فالمسلمون يوفرون لهم الحماية، وهم يدفعون مقابل ذلك هذه الرسوم التي يقال لها: الجزية، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، فسروه بهذا وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنها بهذا الاعتبار، ومن أهل العلم من فسرها بغير هذا فقالوا: الجزية هي الطائفة، قطعة أو جزء من المال، جزية جزء من المال يدفعه أهل الذمة، بمعنى يجزوه أي يقضوه للمسلمين، يعني قضاء، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، ومن الفقهاء ابن قدامة، {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} **قال: أي إن لم يسلموا** يعني يعطوا الجزية قال: {عَنْ يَدٍ} **أي: عن قهر لهم وغلبة**، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، واختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- {عَنْ يَدٍ}، وبعضهم قال: يعني عن يد مواتية غير ممتنعة {عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وهذا كأنه فيه بعد، وبعضهم قال: {عَنْ يَدٍ} يعني أن يسلمها بيده غير مستنيب، لا يستنيب أحداً، لماذا لا يستنيب أحداً؟ ليكون ذلك إذلالاً له، كل واحد يأتي بجزيته بنفسه ما في أحد يقول: يرسل الخادم ولا يرسل السائق، ولا يرسل طرفا آخر يؤديها عنه، لا، لابد أن يأتي هو بها فلا يستنيب كما قال ابن جرير: من يده إلى يد الأخذ مباشرة ما في وسيط، ولا يضعها في صندوق ولا يضعها في حساب، وإنما يدفعها يسلمها بيده مباشرة؛ لأن هذا فيه شيء من الإذلال ولا يخفى، وبعضهم يقول: {عَنْ يَدٍ} يعني نقداً ما يدفعها مقسطة، وبعضهم يقول: {عَنْ يَدٍ} يعني منكم، أنتم تفضلتم وتكرمتم بقبولها منهم، وما قتلتموهم أو أخرجتموهم، فهذا تفضل منكم {عَنْ يَدٍ} يعني منكم تجاههم أي إنعام صادر منكم، وهذا بعيد غاية البعد، وقوله هنا: {عَنْ يَدٍ} **أي: عن قهر لهم وغلبة**، قال: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي

ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم عن المسلمين إلى آخره، فبعض أهل العلم قال: **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** أي يأتي بها ماشياً، ويدفعها بنفسه ما يركب وهو قادم بها!! إذلالا، وبعضهم قال: لابد أن يشعر بالمهانة والذلة بحيث إنه يُترك فترة ينتظر، يعني يشعر بالاستخفاف، ولهذا قال الإمام أحمد: يستحب أن يشعر بالمهانة أو بالذلة أو نحو ذلك؛ لأن الله قال: **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** ما يأتي مكرماً ومعززاً ويستقبل وتؤخذ منه، يأتي بها وهو صاغر ويدفعها، وبعضهم قال: يكون الآخذ جالساً والمعطي واقفا، وبعضهم يقول: يدفعها هكذا يعني يكون الآخذ يده فوق والمعطي يده أسفل ؛ لأن ((اليد العليا خير من اليد السفلى))[5]، والعادة أن اليد التي تعطي هي اليد العليا، قال: لا **{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** لابد أن يكون هكذا، وبعضهم قال أكثر من هذا قال: يُترك فترة حتى يشعر بالمهانة ثم يُجر!!.

ولا يساء إليهم بهذه الطريقة بتلْتلتِهم وكذا، وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن هذا ليس هو المطلوب، وإنما المقصود أن التزامه بأحكام الملة وجريان الجزية عليه هذا هو الصغار، والذل فـ **{يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** خلاص قبل أن يدفع هذه الجزية، ومن الصور التي يحصل بها مثل هذا أن يأتي بها بنفسه مثلا كما قال بعض السلف، فهو لا يُعزَّز ولا يكرم.

فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه))[6].

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا.

يعني هذا على لسان النصارى، كتبوه لعمر.

وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قِلاية ولا صَوْمَعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خُطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا، ولا ندعو إليه أحدًا؛ ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، برقم (١٣٦١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، برقم (١٠٣٣).

٦ - رواه الترمذي، كتاب السير عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، برقم (١٦٠٢)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند، برقم (٧٦١٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٠٤).

إذا كانوا لا يبنون كنيسة جديدة، ولا يجددون القديمة، فمعنى ذلك أن المسألة مسألة وقت سيضمحل هذا كله، أماكن العبادة التي أقاموها ولا يجددون شيئاً منها ولا يبنون شيئا جديداً ثم يتلاشون وينتهون يعني هذه المسألة مسألة الجيل الموجود ينقرض وينتهي، والبقية يذوبون مع المسلمين، ويدخلون في الإسلام، أو يبقون بدون دور عبادة؛ لأنها ستندثر وتنهدم ولا يجددونها.

وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف.

يعني ما يركبون الخيل ولا يتقلدون، العرب من عادتهم تقلد السيف يضعون السيف كالقلادة، فهذه عادتهم والعجم يربطون حزاما ويكون بجانبه السيف، فلا يتشبهون بالمسلمين بتعليق السيف على صدورهم.

ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجزَّ مقاديم رءوسنا، وأن نلزم زِينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا.

الزنار معروف هو حزام عريض يضعه النصارى يلبسونه بطريقة معينة، ويكون نازلاً من إحدى الجهات يتميز به النصارى، ليس الحزام الذي يلبسونه على البنطال.

وألا نظهر صُلُبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيفاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَظَفْنَا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

هذه الشروط العمرية معروفة، ومشهورة، وفي بعض رواياتها أكثر من هذا راجعوا أحكام أهل الذمة، وهذا رد على الذين يقولون: الإسلام دين التسامح والمحبة، فإذاً الإسلام دين العزة، والعدل والقوة والقهر لأعداء الله -تبارك وتعالى -، لكن المسلمين إن كانوا ضعفاء فيأخذوا بالرخص من العفو والصفح والإعراض والصبر وما أشبه ذلك، وإذا كانوا أقوياء طبقوا عليهم مثل هذه الأشياء، والله المستعان يعني هناك فرق كبير بين أن نغير دين الله نمسخ دين الله ونكذب على الله، وبين أن نقول: هذا ليس وقته هذا كله حق وهذا هو الدين لكن الأمة ضعيفة لا تستطيع أن تطبق هذه الأشياء، فالمصلحة تقتضي أن المسلمين يكونون في مرحلة مثل المرحلة المكية، **{كفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}** [سورة النساء:٧٧]، إلا إذا اعتدى الكافر عليهم في بلادهم فيجب دفعه بكل مستطاع، فرق بين أن نقول هذا وبين أن نقول لا، الإسلام ما فيه جهاد، ولا فيه قتال، الإسلام دين العفو والصفح والتسامح والمحبة والوئام والسلام، وإذا ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر!! هذا هو الإسلام، والجهاد في سبيل الله هو حماية المشروع الإسلامي، والكلام الفارغ الذي يُكذب فيه

على الله، هذا الكلام ليس صحيحاً، الإسلام دين القوة والعزة والغلبة والقهر لأعداء الله -عز وجل -، لكن هذا إذا كان في المسلمين قوة، أما إذا كانوا ضعفاء فعندئذ الإعراض والصفح والصبر والأخذ بأسباب القوة حتى تتمكن الأمة من أعدائها وتستطيع أن تحمي نفسها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة التوبة:٣٠ -٣١].

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفِرْية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في عُزَير -عليه السلام-: "إنه ابن الله"، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وأما ضَلال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: {ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، {يُضَاهِئُونَ} أي: يشابهون {قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} وقال ابن عباس: لعنهم الله، {أَنَّى يُؤْفَكُونَ}؟ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} هذه المقالة أضافها الله -عز وجل- إلى اليهود، ويحتمل أن يكون ذلك من العام المراد به الخصوص، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ} يعني طائفة من اليهود، من العام المراد به الخصوص، وهذا هو الظاهر -والله تعالى أعلم- ومعروف أن العام منه ما هو عام باقٍ على عمومه، ومنه ما هو عام مخصوص، ومنه ما هو عام يراد به الخصوص، فهذا من هذا النوع الثالث باعتبار أن الذي قال ذلك هو بعض اليهود لا كل اليهود، ويمكن أن يضاف إلى جميع اليهود إذا كانوا يعتقدون هذا وقالوه، أو قاله أحدهم، أو بعضهم، وأقره الآخرون فيضاف إليهم، وهذا كثير في القرآن، ولما كان طوائف اليهود لا تقول بهذا القول، وإنما قال به بعضهم صح أن يقال: إنه من العام المراد به الخصوص، والله تعالى أعلم، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ}، والمرويات الواردة في هذا مأخوذة عن بني إسرائيل، وعامتها يدور على أن عزير جاءهم بالتوراة بعد أن ذهبت حينما غزاهم بُخْتُنَصَّر فلم يبقَ شيءٌ منها، يعني أن بُخْتُنَصَّر أتلفها، مسخ التوراة، وما كانوا يحفظون الكتاب، فجاء عزير بالتوراة على تفاوت في تلك الروايات واختلاف كيف حصل له ذلك، وهل هو الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها؟ ولا يثبت في هذا شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، -والله تعالى أعلم-، فالشاهد أن هذه المرويات الإسرائيلية تقول: إن سبب هذه

المقالة هو أنه جاءهم بالتوراة فبالغوا في تقديسه وتعظيمه، {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} فأضاف القول إلى الأفواه، ويحتمل أن تكون الإضافة إلى الأفواه هنا بمعنى أنه قول لا يجاوز الأفواه، بمعنى أنه لا حقيقة له، كما قال الله -عز وجل-: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة النور:١٥] في قصه الإفك فـ{ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي أنه قول لا يجاوز الأفواه، لا حقيقة له، ويحتمل أن يكون المراد التأكيد، ويسجل ذلك عليهم، كما تقول: كتب ذلك بيده، وتقول: مشيت إليه برجلي، ونظرت إليه بعيني، وقد يكون منه أيضا قوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [سورة الأنعام:٣٨]، {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة:٧٩]، وما شابه ذلك يحتمل أن يكون المعنى في كل موضع ما يناسبه، يعني مثلا {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} يعني قد يعبر بالطائر عن الإسراع، ولا يقصد به الطائر الحقيقي، قد يعبر بهذا فأكده وأرد أن يبين أنه طائر ذو جناحين فقال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} يحتمل هذا، تقول: طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحداناً، يعني أسرعوا إليه، وهنا يقول: {ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ}، يحتمل هذا وهذا، و{يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقول: **أي يشابهون**، هذا صحيح، المضاهاة: هذا يضاهي هذا أي يحاكيه ويشابهه، وقوله: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} هذه الكلمة تأتي للدعاء، وتأتي بمعنى اللعن، وهو عائد إلى الدعاء، "قاتله الله" أي لعنه الله، وقد قال بعض السلف: كل "قاتله الله" في القرآن فهي بمعنى لعنه الله، ثم صار ذلك أيضا يستعمل في كلام العرب للتعجب ولا يقصد معناه، يقال: قاتله الله ما أشجعه!، قاتله الله ما أصبره!، ما أجلده!، ما أحذقه!، ما أحفظه!، فيكون مثل: تربتْ يداه، ورغِم أنفُه، وما أشبه ذلك.

وقوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه-، أنه لما بلغته دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثمَّ منَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقدم عَدِيٌّ المدينة، وكان رئيسا في قومه طيِّئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: "بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم". وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا عدي، ما تقول؟ أيُفرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يُفرك؟ أيفرّك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟))، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: ((إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون))[1].

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥)، وجامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٤/٢١١).

ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

{لا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [سورة التوبة:٣٢ -٣٣].

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب {أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} أي: ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لابد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: {وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل "كافرا"؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [سورة الحديد:٢٠].

ثم قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها))[٢].

روى الإمام أحمد عن تميم الداري -رضي الله عنه -، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر))، فكان تميم الداري يقول: "قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلَّ والصغار والجزية"[٣].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [سورة التوبة:٣٤ -٣٥].

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٩٥٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: {لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [سورة المائدة:٦٣]، والرهبان: عُباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة المائدة:٨٢].

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: ((لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة))، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟))[٤]، وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ((وَمَن الناسُ إلا هؤلاء؟))[٥].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم؛ ولهذا قال تعالى: {لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم - استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ *** وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة.

وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال.

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} [سورة التوبة:١٠٣].

قوله -تبارك وتعالى -: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} "صد" هنا تحتمل أن تكون لازمة، وأن تكون متعدية، لازمة بمعنى يصدون في أنفسهم فهم يأخذون -أو يأكلون - أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله في

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم -: "لتتبعن سنن من كان قبلكم"، برقم (٦٨٨٩).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨٣٠٩)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وبرقم (٨٤٣٣)، ولفظه: "وما الناس إلا أولائك"، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

أنفسهم، ويحتمل أن تكون بمعنى المتعدية، ولا مانع من الجمع بين المعنيين؛ لأنهم يصدون في أنفسهم عن الحق، ويصدون غيرهم من الناس عن اتباعه، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** هذا الجزء يحتمل أن يكون مرتبطا بما قبله يعني أنه يعود إلى هؤلاء الذين تحدث عنهم **{إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}** يعني أن ذلك من أوصافهم أيضا يأكلون أموال الناس بالباطل، ويكنزون الذهب والفضة، ولهذا قال معاوية -رضي الله عنه- حينما وقع بينه وبين أبي ذر -رضي الله عن الجميع- محاورة واختلاف، فكان أبو ذر -رضي الله عنه- يرى أن ما زاد على حاجة الإنسان أنه كنز يكوى به جبينه وظهره وجنبه، فمعاوية -رضي الله عنه- لما قرأ أبو ذر -رضي الله عنه- هذه الآية قال له: هذه في أهل الكتاب، فأبو ذر -رضي الله عنه- قال: "هذه فينا وفي أهل الكتاب"، فهذه الآية ليست في أهل الكتاب، وإنما هذه الآية عامة، **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}** فهي لا تعود إلى الأحبار والرهبان، وإنما هذا كلام مستأنف **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا}**، والكَنز أصله في المعنى يرجع إلى الضم والجمع، فكل شيء جمعت بعضه إلى بعض فإن العرب تقول عنه: كنز، ولهذا يقال: مكتنز اللحم مثلا بمعنى مجتمع، وقوله: **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** فذكر هنا الذهب وذكر الفضة، وأعاد الضمير مفرداً، فيحتمل أن يكون الضمير يعود على أحدهما لاعتبار من الاعتبارات، كمن قال: إنه يعود إلى الذهب، الضمير الآن مفرد، ذكر شيئين وأعاد الضمير على أحدهما، يمكن أن يكون عائداً إلى أحدهما فعلاً، وهو الذهب **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** فالذهب العرب تذكره وتؤنثه، فـ **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** يكون عائداً إلى الذهب، والفضة معطوف عليه بهذا الاعتبار، ويحتمل أن يكون ذلك يعود إلى الفضة باعتبار أنها الأكثر في الاستعمال عندهم، فالذهب قليل، وأكثر ما كانوا يتعاطون و يتداولون الدراهم من الفضة، **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** أي الفضة، ويحتمل أن الضمير يرجع إلى الأمرين لكنه أعاده إلى أحدهما اكتفاء بذلك عن الآخر، أو ليدل على الآخر كما سبق في قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}** [سورة الجمعة:١١]، وهذه الآيات يحتمل أن يكون **{انفَضُّوا إِلَيْهَا}** باعتبار أن التجارة هي المقصودة، فأعاد الضمير إليها **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}**، ويحتمل غير هذا، و هنا يمكن أن يكون أعاد الضمير إلى أحدهما إلى الفضة مثلاً ليدل ذلك على الآخر، وهذا كثير في كلام العرب، يقول الشاعر:

رَماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي *** بريئًا ومن جُولِ الطَّوِيِّ رماني

يعني بريئين، فهذا معروف في كلام العرب يعود الضمير إلى أحد المذكوريْن لمعنى من المعاني، وبعضهم يقول: إنه يعود إليهما، والمقصود **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** يعني الأموال يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها، وبعضهم يقول: **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** يعني الزكاة، وهذا فيه بُعد، وبعضهم يقول: إن الذهب والفضة جنسان تحتهما أفراد دنانير ودراهم، **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا}** يعني باعتبار ما تحت هذا الجنس الذي هو الذهب والفضة كما قال الله –عز وجل-: **{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}** [سورة الحجرات:٩] ما قال: اقتتلا باعتبار أن الطائفتين كل طائفة تحتها أفراد فأعاد الضمير مجموعاً بعد أن ذكر شيئين، والعلم عند الله -عز وجل.

قوله: **{وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ}** هذا الذي عليه عامة الصحابة -رضي الله عنهم- بل كل الصحابة -سوى أبي ذر- وهو الذي عليه أهل العلم: أن المقصود

من لم يخرج الزكاة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أرسل معاذاً إلى اليمن أخبره بأن يأمرهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوه لذلك فيخبرهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات، ثم ذكر الزكاة، و الإنسان لا يزكي إلا إذا كان غنياً، وهذا الغنى معناه أنه عنده فوق حاجته، والمواريث تكون، إذا كان الإنسان ينفق ما زاد على حاجته لن يكون هناك ميراث، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عندهم أموال، وأخبارهم في هذا مستفيضة عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان وأما ما قد يفهم منه أن الإنسان لا يجوز له أن يدخر شيئاً مثل الرجل الذي توفى من أهل الصفة فوجد أنه قد ترك دينارين، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كَيَّتان))[6]، فهذا محمول على أنه كان في أول الأمر لضيق الحال والشدة لا يجوز للإنسان أن يدخر فوق حاجته، ثم بعد ذلك رُخص للناس أن يدخروا، وإذا كان الإنسان قد أخرج الزكاة فإن ذلك لا يكون كنزاً سواءً كان فوق الأرض أو في باطنها، قلّ ذلك أو كثر هذا الذي عليه عامة الصحابة وأهل العلم ، أما أبو ذر -رضي الله عنه- فقد اعتذر له بعض الصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم بأنه كان يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم-، جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسمع منه أشياء ثم رجع إلى قومه، وبقي فيهم مده طويلة، وفاته أشياء، فلم يبلغه بعد ذلك الترخيص في هذا -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: إن هذه الآية منسوخة بقوله: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}** [سورة التوبة:١٠٣] والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ولذلك يمكن أن يقال: إن هذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي محكمة وهي في من لم يخرج الزكاة فهو متوعد بهذه العقوبة.

وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة؛ ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقي، روى عبد الرزاق عن علي -رضي الله عنه-، في قوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تَبًّا للذهب، تَبًّا للفضة))، يقولها ثلاثا، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ فقال: عمر -رضي الله عنه-، أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، وقالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ قال: ((لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه))[7].

وقوله تعالى: {يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما في قوله: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [سورة الدخان:٤٨ -٤٩] **أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب -لعنه الله- جاهدًا في عداوة الرسول،**

---

٦ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٨٨)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة عتيبة وبريد بن أصرم، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٦٢٥٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (٣٢٦٣)، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٣٧).

٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣١٠١)، وقال محققوه: " حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح غير سلم -وهو ابن عطية الفقيمي- فقد لينه الحافظ ابن حجر في التقريب"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٩٠٧).

-صلى الله عليه وسلم - وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا {فِي جِيدِهَا} أي: عنقها {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [سورة المسد:٥] **أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه -كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.**

خص الجباه والجُنوب والظهور فيمكن أن يقال: إن هذه المواضع أشد إيلاماً لما تحويه فهي أعضاء شريفة، وتحوي ما تحوي مما يحصل به شدة الألم إذا حصل إحراقها، ويحتمل أن يكون أراد -والله تعالى أعلم - جميع الجهات تكوى بها جباههم هذا الأمام، وجنوبهم يعني الأمام يدل على الخلف، والظهر يدل على المقدمة، والجبهة على أعلاه، والجنب على الناحية الأخرى الجنب الآخر، يعني أنه يحرق بالنار من كل الجوانب.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ثوبان أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ((من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شُجاعًا أقرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك، ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيُقَصْقِصَهَا ثم يتبعها سائر جسده))[٨]، ورواه ابن حبان في صحيحه[٩]، من حديث يزيد، عن سعيد به، وأصل هذا الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه -[١٠].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه -، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يَرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار))[١١] وذكر تمام الحديث.

هذا الجزء من الحديث هو الذي استدل به عامة أهل العلم على أن من منع الزكاة بخلا أنه لا يكفر، يعني الله -عز وجل - يقول: **{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ}** [سورة التوبة:١١] فهذه من الأدلة على أن تارك الصلاة كافر؛ لأن مفهوم المخالفة في الآية أنه إن لم يفعل ذلك فليس من إخواننا في الدين، فهذا في الصلاة، والزكاة لو بقينا مع هذه الآية فقط **{فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}** لفهم منها هذا، فإذا نظرت إلى الأحاديث والنصوص الواردة في الصلاة والزكاة تجد أن الأحاديث الواردة في الصلاة ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة

---

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٤/٢٣٢).

٩ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (٣٢٥٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٢٥٥).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (١٣٣٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٨).

١١ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (٩٨٧).

فمن تركها فقد كفر))[١٢]، ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة))[١٣] إلى غير ذلك، أما الزكاة فمثل هذا الحديث يدل على أنه لا يكفر إن تركها وامتنع منها بخلا؛ لأنه قال هنا: ((ثم يرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى النار)) ولا يمكن أن يرى سبيله إلى الجنة إذا كان كافراً، و الله أعلم.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال: "مررت على أبي ذر بالرَّبَذَة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟، قال: كنا بالشام، فقرأت: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم"[١٤].

---

١٢ - رواه النسائي، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، برقم (٤٦٣)، والترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ما جاء في ترك الصلاة، برقم (٢٦٢١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، برقم (١٠٧٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٣٠٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٤٣).

١٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، برقم (٨٢).

١٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** [سورة التوبة:٣٦].

روى الإمام أحمد عن أبي بكرة -رضي الله عنه -، أن النبي -صلى الله عليه وسلم - خطب في حجته، فقال: ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان))، ثم قال: ((أي يوم هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس يوم النحر؟))، قلنا؛ بلى، ثم قال: "أي شهر هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس ذا الحجة؟)) قلنا: بلى، ثم قال: ((أي بلد هذا؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: ((أليست البلدة؟))، قلنا: بلى، قال: ((فإن دماءكم وأموالكم -قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه))[١] ورواه البخاري[٢] في التفسير وغيره، ورواه مسلم[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ}** المراد بـــ"كتاب الله -عز وجل -" هنا اللوح المحفوظ، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)) من أهل العلم من قال: المراد به أنهم كانوا يتلاعبون بأشهر السنة، فمنهم من جعل السنة ثلاثة عشر شهراً، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - أخبر بهذه الآية، **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ}**، فأبطل ذلك وأقر الشهور وأبقاها على ما خلق الله -تبارك وتعالى -، ومن أهل العلم من يقول: كانوا يتلاعبون بالشهور بمعنى أنهم يؤخرون محرم إلى صفر، وصفر إلى ربيع الأول، وربيع

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٣٨٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٢ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٦٥٤).

٣ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩).

الأول إلى الثاني وهكذا، فلما حج النبي -صلى الله عليه وسلم- في تلك السنة كان عندهم لربما شهر ذي الحجة يقع في شهر محرم، فلما حج النبي -صلى الله عليه وسلم- كان شهر ذي الحجة في ذي الحجة، ووقعت حجته في شهر ذي الحجة، وبعضهم يقول: وقع ذلك في حجة أبي بكر ثم استمر ذلك و أبطل ما كان عليه عمل أهل الجاهلية من إنساء الشهور ابتداء من حجة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وبعضهم يقول: إن المراد أن الحجة التي وقعت للنبي -صلى الله عليه وسلم- كانت في وقت الاعتدال بين النهار والليل، فالليل مساوٍ للنهار ((ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)) يعني معتدلا طول الليل كطول النهار، فيحصل النقص والزيادة في بعض الأوقات في السنة صيفاً وشتاءً، وبعضهم يقول غير هذا.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السَّخاوي في جزء جمعه سماه "المشهور في أسماء الأيام والشهور": أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرا محرما، وعندي أنه سمي بذلك تأكيدا لتحريمه؛ لأن العرب كانت تتقلب به، فتحله عاما وتحرمه عاما، قال: ويُجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم.

بمعنى أنهم كانوا يستطيلون ثلاثة أشهر محرمة، ما يصبرون، أي ذو القعدة يقعدون فيه ما ينطلقون ولا يحصل منهم غزو ولا غارة، وفي الحج يحجون فيأتيهم محرم وهم يتلمظون على الغارات، ولربما حصل لهم شيء من المسغبة والحاجة؛ لأن كثيراً منهم يعيش على الغارة والنهب والسلب، فيطول عليهم الأمر ثلاثة أشهر بلا نهب ولا إغارة، وذلك قوام عيش كثير منهم فيتلاعبون بشهر محرم، يجعلونه في صفر، ويجعلون صفر هو المحرم، وهي فرصة أيضا ثمينة أن الحجاج يرجعون فينهبونهم ويغيرون عليهم، غنيمة باردة.

صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار.

يعني كأن البيوت تكون صفراً من أهلها، ينتشرون بعدما تنتهي أشهر التحريم، هم يستطيعون أن يسافروا في أشهر التحريم لكن المقصود الإغارة، فهذا يدل على كثرة ما يقع من ذلك عندهم، تخلو البيوت.

يقال: صَفِرَ المكان: إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال.

وشهر ربيع أول: سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع الإقامة في عمارة الربع، ويجمع على أربِعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربِعة، كرغيف وأرغفة.

الارتباع الإقامة في عمارة الربع، يعني الدار يرتبعون أي يقيمون فيها.

وربيع الآخر: كالأول.

وجمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولابد من دورانها، فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيلَةٍ منْ جُمادى ذَاتِ أَنْدِيَة * لا يُبْصِرُ العبدُ في ظَلماتها الطُّنُبَا**
لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غَير وَاحدَةٍ * حَتَّى يَلُفَّ عَلَى خُرْطُومه الذَّنَبَا**

الآن بهذا الاعتبار إذا قيل: إن جمادى؛ لتجمد الماء، ومعروف أن جمادى قد يكون في الصيف، وأن شهر رمضان مثلاً؛ لشدة الحر، وقد يأتي رمضان في الشتاء، فيقول هنا: **وكانت الشهور في حسابهم لا تدور،**

يعني دائماً جمادى في البرد ورمضان في الحر الشديد، لكن هذا فيه إشكال بهذا الاعتبار! ربيع قبل جمادى والربيع يكون بعد الشتاء، يقول: **وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولابد من دورانها فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد** يعني سمي في وقت كانت الأجواء بهذا الاعتبار، فرمضان شديد الحر فسمي بهذا، وهكذا، ثم استمر هذا ولو صار جمادى في شدة الحر ورمضان في شدة البرد، والعلم عند الله -عز وجل -، ومثل هذا لا يترتب عليه عمل.

ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وحُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة.

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورجَاب، ورَجَبات.

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعْبانات.

ورمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رمضت الفصال: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانات ورَماضين وأرْمِضَة قال: وقول من قال: "إنه اسم من أسماء الله"؛ خطأ لا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام.

شوال: من شالت الإبل بأذنابها للطراق، قال: ويجمع على شَوَاول وشَوَاويل وشَوَّالات.

القَعدة: بفتح القاف -قلت: وكسرها - لقعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة.

الحِجة: بكسر الحاء -قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحاد ووحود، ثم يوم الإثنين، ويجمع على أثانين، الثلاثاء: يمد، ويُذَكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابيع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس، ثم الجمعة -بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضا - ويجمع على جُمَع وجُمُعات.

السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع؛ لانتهاء العدد عنده، وكانت العرب تسمي الأيام أول، ثم أهون، ثم جُبَار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر -من العرب العرباء العاربة المتقدمين -:

أُرَجِّي أن أعيشَ وأن يَومي * بأوّلَ أو بأهونَ أو جُبَارِ**

أو التالي دُبَار فإن أفُتهُ * فمؤنس أو عروبةَ أو شيارِ**

وقوله تعالى: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: "البَسْل"، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديدًا.

وأما قوله: "ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبيّن -صلى الله عليه وسلم - أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحُرِّم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو

المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول.

وقال تعالى: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحج:٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما - قوله: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا} الآية {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} في كلِّهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعَظَم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة في قوله: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذِكْرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فَعَظِّموا ما عظّم الله، فإنما تُعظَّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وخلاصة ما ذكر في مرجع الضمير في قوله: {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} أنه يرجع إلى الأشهر جميعاً، {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} يعني في كلهن، والمعنى الثاني وهو المشهور الذي عليه الجمهور {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} يعني الأشهر الحرم، وهذا هو الأقرب، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولا يقال هنا: إن مفهوم المخالفة {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} أي في الأشهر الحرم، يعني أنه يجوز أن يظلم الإنسان في ما عدا الأشهر الحرم، وإنما لحرمة هذه الأشهر فإن الظلم يقع فيها، فإذا وقع فيها فإنه يكون أشد من سائر الشهور، {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ} أنفسكم بالقتال، و استباحة ما حرم الله -تبارك وتعالى.

وقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} أي: جميعكم، {كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} أي: جميعهم، {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

واعلموا أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ} الآية [سورة المائدة:٢]، وقال: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} الآية [سورة البقرة:١٩٤]، وقال: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} الآية [سورة التوبة:٥٠].

وأما قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} فهو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}

[سورة البقرة:١٩٤]، وقال تعالى: **{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** الآية [سورة البقرة:١٩١].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا كأنه يرد على من قال: إن الآية منسوخة، **{فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ}** يعني بقتال فنُسخت، نُسخ تحريم القتال عند بعض أهل العلم، بعضهم يقول: بهذه الآية: **{وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً}** يعني في كل زمان، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن معنى **{وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً}** أي جميعا، **{كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً}**، وهنا ابن كثير -رحمه الله- قال: إنّ **{وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً}** تحمل على أن المراد إنْ بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام، ثم بعد ذلك بدء يرد على الأدلة الأخرى التي استدل بها من قال بأن حرمة الأشهر أو القتال في الأشهر الحرم أن ذلك قد نسخ، ومن أهل العلم من يقول: إن الآية منسوخة بآية السيف.

وإذا قال ابن كثير -رحمه الله-: "الأشهر أنه منسوخ" لا يعني أنه يرجح هذا، إذا قال: الأشهر كذا لا يعني أنه يرجحه.

أما حصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم، لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يبتدئ قتالهم بالشهر، وهم الذين أعدوا الجموع واجتمعوا لحربه -صلى الله عليه وسلم- وخرجوا من الطائف، فإذا كان مثل هذا فإنه لا يمتنع القتال، ويقاتلون، وهذا لا يدل على أنه منسوخ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قاتلهم في شوال، وشوال ليس من الأشهر الحرم، ثم استمر القتال، وهذا من الأدلة التي يستدل بها من قال: إن القتال في الأشهر الحرم منسوخ، وهذا الجواب عنه.

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:٣٧].

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضَبِية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله: الأشهر الأربعة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} قال: النسيء أنَّ جُنَادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى "أبا ثُمَامة"، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال، فيحله للناس، فيحرم صفرا عاما، ويحرم المحرم

عاما، فذلك قول الله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} إلى قوله: {الْكَافِرِينَ} وقوله {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} يقول: يتركون المحرم عاما، وعاما يحرمونه.

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} أصل لفظة النسيء من الإنساء وهو التأخير، يعني حينما يؤخرون المحرم إلى صفر فهذا من الإنساء، وقوله: {زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} يعني زيادة على كفرهم بالله -تبارك وتعالى- هم كفار مشركون، ومع ذلك يأتون بهذا التبديل والتغيير لدين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عن {زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، بالبناء للمجهول على قراءة الكوفيين، و قراءة الباقين {يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} والمعنى على القراءتين يضلهم الشيطان، يضلهم به رؤساؤهم وكبراؤهم وشياطينهم، {يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي يذهبون عن الحق والصواب وملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وهذه الآية تدل على أن الكفر وأن الكفار على مراتب في كفرهم وشدته وغلظه، فإضافةً إلى الإشراك بالله -عز وجل- يكون عندهم جرائم أخرى يعذبهم الله -عز وجل- عليها، ولهذا قال الله تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [سورة المدثر:٤٢-٤٥] وما أشبه هذا من الآيات والنصوص التي تدل على هذا المعنى.

وإنساؤهم للأشهر الحرم لم يكن على طريقة واحدة، يعني تارة يغيرون كل الأشهر كما جاء في بعض الروايات، وتارة يغيرون صفراً سنة وسنة، يعني سنة يغيرون المحرم يجعلونه صفراً، وتارة يغيرون كل سنتين يعني منهم من كان يغير كل سنتين، أهل جاهلية، كل شيء مما أملاه الشيطان وأهواء النفوس فعلوه، ولذلك تجد الاختلاف الكثير المنقول عنهم في قضية البحيرة والسائبة والوصيلة وكذا، فتتبُّعُ هذا وتطلب الوصف الدقيق له أمر قد لا يكون له جدوى، فتملي عليهم أهواؤهم فيفعلون هذا تارة وهذا تارة، ومنهم من يفعل هذا وهذا.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يا أيها الناس، إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مَرَدّ لما أقول، إنا قد حَرَّمنا المحرم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمنا صفر، وأخرنا المحرم، فهو قوله: {لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ} قال: يعني الأربعة {فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} بتأخير هذا الشهر الحرام.

يعني هم يريدون أن تكون الأشهر المحرمة أربعة فإذا استحلوا شهر المحرم صارت ثلاثة فهم يجعلون المحرم صفراً على أساس أن تكون أربعة {لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ}.

كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها، فيحلونه عاما ويحرمونه عاما؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئونه إلى صفر، أي: يؤخرونه.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب "السيرة" كلامًا جيدًا ومفيدًا حسنًا، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، -عز وجل-، "القَلَمَّس"، وهو:

حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعدَّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ثم من بعد عباد ابنه قَلَع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيبًا، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفراً، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله.

بعضهم يقول: إن الذي غير في الأشهر الحرم هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي غير دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وهو أول من سيب السائبة، وأول من حمى الحامي، وأول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وفيه الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رآه في النار يجر قصبه[٤]، وبعضهم يقول: إن الذي غيرها رجل يقال له: نعيم بن ثعلبة، وسواءً كان الرجل من كنانة أو غير ذلك، هذا لا أثر له، ولا يترتب عليه فهم الآية، ولا يترتب عليه حكم من الأحكام، و في هذا يقول كميت:

ألسنا الناسئين على معدٍّ *** شهورَ الحلِّ نجعلها حراما

يفتخرون بهذا.

وتكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على مسألة نسخ الأشهر فقال الشيخ -رحمه الله تعالى-: " نقولُ: إنَّ مِنْ عَادَتِنَا التي نَجْرِي عليها في هذه الدروسِ أن نتعرضَ لِمَا نَظُنُّ أنه يسألُ عنه طلبةُ العلمِ، وقد مَرَّ في الآيةِ الماضيةِ سؤالٌ معروفٌ يتساءلُ عنه طَلَبَةُ أهلِ العلمِ، وَنَسِينَا أن نتكلمَ عليه، فَأَحْبَبْنَا أن نَسْتَدْرِكَهُ الآنَ تَتْمِيمًا للفائدةِ، ونعنِي بذلك: أنا ذَكَرْنَا، أن العلماءَ اختلفوا في نسخِ الأربعةِ الْحُرُمِ، وأن قومًا قالوا: نُسِخَتْ، فجازَ للمسلمينَ الجهادُ في كُلِّ السَّنَةِ، وأن جماعةً من العلماءِ قالوا: إن تحريمَها باقٍ لم يُنْسَخْ، وذكرنا أنَّا كُنَّا أولاً نعتقدُ صحةَ نَسْخِهَا، وَأَنَّا عَرَفْنَا بعدَ ذلك أن الصحيحَ عدمُ نَسْخِهَا، وَذَكَرْنَا أن من أصرحِ الأدلةِ على نسخِها ما ثَبَتَ أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- حاصرَ ثقيفًا بالطائفِ في بعضِ ذِي القعدةِ وهو شهرٌ حرامٌ، ولو لم يكن القتالُ فيها حلالاً لَمَّا حَاصَرَهُمْ فيها، فَعَلِمْنَا مِنْ هنا أن طالبَ العلمِ يقولُ: إذا قررتُم أن التحقيقَ عدمُ نسخِها فما وَجْهُ حصارِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ في الشهرِ الحرامِ؟!

هذا هو السؤالُ الذي كُنَّا نَوَدُّ أن نتعرضَ للإجابةِ عنه، وهذا السؤالُ أجابَ عنه جماعةٌ من العلماءِ بما مُلَخَّصُهُ في نُقْطَتَيْنِ وَهُمَا:

أن حصارَ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ كان ابتداؤُه في شهرٍ حلالٍ، والدوامُ قد يغتفرُ فيه ما لا يغتفرُ في الابتداءِ؛ لأن مِنَ المسائلِ ما يُحَرَّمُ فيها الابتداءُ ولا يحرمُ فيها الدوامُ، ألا تَرَوْنَ أن الرجلَ الْمُحْرِمَ لا يجوزُ له أن يبتدئَ تزويجًا، ولو تزوجَ قبل إحرامِه ثم أَحْرَمَ لم يَنْفَسِخْ تزويجُه بهذا الإحرامِ الطارئِ على تزويجِه، وكذلك الإحرامُ يُمْنَعُ ابتداءُ الطِّيبِ فيه، فلو كان مُتَطَيِّبًا قبلَه لاَ يَمنعُ الدوامَ على الطِّيبِ الأولِ الإحرامُ عندَ جماهيرِ العلماءِ، فالشاهدُ أن الدوامَ في بعضِ الصورِ قد يُغْتَفَرُ فيه ما لا يُغتفر في الابتداءِ، وفي

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، برقم (٣٣٣٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥٦).

هذه الصورة يتأكدُ بشيءٍ آخرَ وهو ما قَدَّمْنَا في كلامنا على غزوةِ حُنَيْنٍ في تفسيرِ آيةِ: **{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ}** [سورة التوبة:٢٥] أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا فَتَحَ مكةَ في رمضانَ عامَ ثمانٍ، ولم يكن يريدُ أن يغزوَ هوازنَ، سَمِعَ أن مالكَ بنَ عوفٍ النصريَّ، سيدَ هوازنَ جَمَعَ مَنْ أَطَاعَهُ من هوازنَ وفيهم ثقيفٌ؛ لأن ثقيفًا من هوازنَ؛ لأن ثقيفَ بْنَ منبه بنِ بكرِ بنِ هوازنَ بنِ منصورٍ، وأنهم تَجَمَّعُوا له يريدونَ حربَه، فَهُمُ الذينَ بدءوا بإرادةِ الحربِ، ولم يكُنِ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- قَاصِدًا حربَهم -في ذلك الوقتِ- قبلَ ذلك، فَلَمَّا هَزَمَهُمُ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يومَ حنينٍ واستفاءَ أموالَهم، رَجَعَ فَلُّهُمْ والفَلُّ بقيةُ المنهزمينَ فَتَحَصَّنُوا بحصنِ الطائف.

فحصارُه -صلى الله عليه وسلم- للطائفِ ليستنزلَ الذين كانوا يقاتلونَه في غزوةِ حنينٍ من تمامِ غزوةِ حنينٍ، وكانوا هم البادئين بالقتالِ، والأشهرُ الْحُرُمُ إذا بُدِئَ المسلمونَ فيها بالقتالِ قَاتَلُوا، كما تَقَدَّمَ في قوله: **{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [سورة البقرة:١٩٤] وكما قَدَّمْنَاهُ في الكلامِ على قوله تعالى: **{وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}** [سورة البقرة:١٩١]، فهذا هو الذي أَجَابَ به العلماءُ عن حصارِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لثقيفٍ على القولِ ببقاءِ حرمةِ الأشهرِ الْحُرُمِ"[٥] أ.هـ.

فالشيخ -رحمه الله- كان يرى أن الأشهر الحرم قد نسخ تحريم القتال فيها، ثم تراجع عنه.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى-: " قَوْلُهُ: بَابُ قَوْلِه: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ -سبحانه وتعالى- لَمَّا ابْتَدَأَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ السَّنَةَ اثنَى عَشَرَ شهرا، قَوْله: **{مِنْهَا أَرْبَعَة حرم}** قَدْ ذُكِرَ تَفْسِيرُهَا فِي حَدِيثِ الْبَابِ، قَوْلُهُ: **{ذَلِك الدّين الْقيم}** قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْله: **{ذَلِكَ الدِّينُ الْقيم}**مَجَازُهُ الْقَائِمُ أَيِ الْمُسْتَقِيمُ، فَخَرَجَ مَخْرَجَ سَيِّدٍ مِنْ سَادَ يَسُودُ كَقَامَ يَقُومُ، قَوْلُهُ: **{فَلَا تظلموا فِيهِنَّ أَنفسكُم}** أَيْ فِي الْأَرْبَعَةِ بِاسْتِحْلَالِ الْقِتَالِ، وَقِيلَ: بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي.

قَوْلُهُ: إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِه، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي أَوَائِلِ بَدْءِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّمَانِ السَّنَةُ، وَقَوْلُهُ: كَهَيْئَتِه أَيِ اسْتَدَارَ اسْتِدَارَةً مِثْلَ حَالَتِه، وَلَفْظُ: الزَّمَانِ يُطْلَقُ عَلَى قَلِيلِ الْوَقْتِ وَكَثِيرِه، وَالْمُرَادُ بِاسْتِدَارَتِه وُقُوعُ تَاسِعِ ذِي الْحِجَّةِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ الشَّمْسُ بُرْجَ الْحَمَلِ، حَيْثُ يَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَار، وَوَقَعَ فِي حَدِيث ابن عمر عِنْدَ ابن مَرْدَوَيْه أَنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ فَهُوَ الْيَوْمَ كَهَيْئَتِه يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، قَوْلُهُ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا أَيِ السَّنَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْهِلَالِيَّة، وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ فِي سَبَبِ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ كَانُوا يَجْعَلُونَ السَّنَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَمِنْ وَجْهٍ آخَرَ كَانُوا يَجْعَلُونَ السَّنَةَ اثنَيْ عَشَرَ شَهْرًا وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، فَتَدُورُ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ هُوَ تَفْسِيرُ الْأَرْبَعَةِ الْحرم، قَالَ ابن التِّين: الصَّوَابُ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ، يَعْنِي لِأَنَّ الْمُمَيِّزَ الشَّهْرِ قَالَ: وَلَعَلَّه أَعَادَهُ على المعنى، أَيْ ثَلَاثُ مُدَدٍ مُتَوَالِيَاتٍ انْتَهَى، أَوْ بِاعْتِبَارِ الْعِدَّةِ مَعَ أَنَّ الَّذِي لَا يُذْكَرُ التَّمْيِيزُ مَعَهُ يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، وَذِكْرها مِنَ

---

٥ - العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، (٤٩٧/٥ -٤٩٩)، تحقيق: د/ خالد بن عثمان السبت.

سَنَتَيْنِ لِمَصْلَحَةِ التَّوَالِي بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَإِلَّا فَلَوْ بَدَأَ بِالْمُحَرَّمِ لَفَاتَ مَقْصُودُ التَّوَالِي، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى إِبْطَالِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَأْخِيرِ بَعْضِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، فَقِيلَ: كَانُوا يَجْعَلُونَ الْمُحَرَّمَ صَفَرًا، وَيَجْعَلُونَ صَفَرًا الْمُحَرَّمَ؛ لِئَلَّا يَتَوَالَى عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ لَا يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا الْقِتَالَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: مُتَوَالِيَاتٌ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَنْحَاءٍ مِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الْمُحَرَّمَ صَفَرًا، فَيُحِلُّ فِيهِ الْقِتَالَ وَيُحَرِّمُ الْقِتَالَ فِي صَفَرٍ وَيُسَمِّيهِ الْمُحَرَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجْعَلُ ذَلِكَ سَنَةً هَكَذَا وَسَنَةً هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ سَنَتَيْنِ هَكَذَا وَسَنَتَيْنِ هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَخِّرُ صَفَرًا إِلَى رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، وَرَبِيعًا إِلَى مَا يَلِيهِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَصِيرَ شَوَّالٌ ذَا الْقَعْدَةِ، وَذُو الْقَعْدَةِ ذَا الْحِجَّةِ ثُمَّ يَعُودُ فَيُعِيدُ الْعدَدَ على الأَصْلِ، قَوْله: وَرَجَب مُضر أَضَافَهُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْظِيمِهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ، فَيُقَالُ: إِنَّ رَبِيعَةَ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَدَلَهُ رَمَضَانَ، وَكَانَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَجْعَلُ فِي رَجَبٍ وَشَعْبَانَ مَا ذُكِرَ فِي الْمُحَرَّمِ وَصَفَرٍ فَيُحِلُّونَ رَجَبًا وَيُحَرِّمُونَ شَعْبَانَ، وَوَصَفَهُ بِكَوْنِهِ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ تَأْكِيدًا، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ قَدْ نَسَئُوا بَعْضَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَيْ أَخَّرُوهَا فَيُحِلُّونَ شَهْرًا حَرَامًا وَيُحَرِّمُونَ مَكَانَهُ آخَرَ بَدَلَهُ حَتَّى رُفِضَ تَخْصِيصُ الْأَرْبَعَةِ بِالتَّحْرِيمِ أَحْيَانًا وَوَقَعَ تَحْرِيمُ أَرْبَعَةٍ مُطْلَقَةٍ مِنَ السَّنَةِ، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَشْهُرَ رَجَعَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَبَطَلَ النَّسِيءُ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: كَانُوا يُخَالِفُونَ بَيْنَ أَشْهُرِ السَّنَةِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ لِأَسْبَابٍ تَعْرِضُ لَهُمْ، مِنْهَا: اسْتِعْجَالُ الْحَرْبِ فَيَسْتَحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ثُمَّ يُحَرِّمُونَ بَدَلَهُ شَهْرًا غَيْرَهُ فَتَتَحَوَّلُ فِي ذَلِكَ شُهُورُ السَّنَةِ وَتَتَبَدَّلُ، فَإِذَا أَتَى عَلَى ذَلِكَ عِدَّةٌ مِنَ السِّنِينَ اسْتَدَارَ الزَّمَانُ وَعَادَ الْأَمْرُ إِلَى أَصْلِهِ، فَاتَّفَقَ وُقُوعُ حَجَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عِنْدَ ذَلِكَ"[٦].

وقال الجصاص -رحمه الله-: "وَقَوْلُهُ: **{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ}** رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ أَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَبُو جَهْلٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَهُمْ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَلَمْ يُخْتَلَفْ فِي أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- بَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِيَقْرَأَهَا عَلَى النَّاسِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي حَجَّ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ قَدْ كَانُوا قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ يُظْهِرُ الْكُفْرَ فِي وَقْتِ نُزُولِ بَرَاءَةٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى ذَلِكَ فِي رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، وَهَمٌ اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَوْمًا مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ كَانُوا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، وَهُمْ الطُّلَقَاءُ، مِنْ نَحْوِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَحْزَابِهِ مِمَّنْ لَمْ يَنْقَ قَلْبُهُ مِنْ الْكُفْرِ"[٧].

هذا بعيد لكن يمكن أن تكون الآية صدر براءة نزل بعد الفتح، ويكون بعض الآيات نزلت قبل ذلك، ويمكن أن يكون أئمة الكفر كما سبق لا يختص بأئمة الكفر من قريش، وإنما سائر الطوائف وملل الكفر، وخص أئمة الكفر؛ لأن الناس تبع لهم في نقض العهود ومحادة الله -عز وجل.

ويقول -رحمه الله-: "فَيَكُونُ مُرَادُ الْآيَةِ هَؤُلَاءِ دُونَ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرُوا الْإِسْلَامَ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ، وَبَدَرَهُمْ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ

---

٦ - فتح الباري، لابن حجر (٣٢٤/٨ -٣٢٥)، دار المعرفة -بيروت.

٧ - أحكام القرآن، للجصاص (١١٢/٣)، عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا، وَسَائِرَ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا مُعَاضِدِينَ لِقُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم - وَقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ إِنْ هُمْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ، وَطَعَنُوا فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ"[8].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويسمون هذا العيد وكل مخرج يخرجونه إلى الصحراء باعوثا، فالباعوث اسم جنس لما يظهر به الدين كعيد الفطر والنحر عند المسلمين"[9].

يعني خروجهم للاستسقاء: باعوث، خروجهم للعيد: باعوث.

"الشعانين: عيد مسيحي يقوم يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بحمل السعف ذكرى لدخول السيد المسيح بيت المقدس، وهي كلمة دخيلة"[10].

وفي كتاب: "أعياد القبط": عيد الزيتونة ويعرف عندهم بعيد الشعانين، ومعناه التسبيح، ويكون في سابع أحد من صومهم، وسنّتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو -وهو الحمار - في القدس، ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف، ويحث على عمل الخير وينهى عن المنكر ويباعد عنه، وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التي تزين فيها كنائسهم، فلما كان لعشر خلون من شهر رجب سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة كان عيد الشعانين، فمنع الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم، وحمْلِهم الخوص على ما كانت عادتهم، وقبض على عدة ممن وجد معه شيئاً من ذلك وأمر بالقبض على ما هو مُحّبس على الكنائس من الأملاك، وأدخلها في الديوان وكتب لسائر الأعمال بذلك وأُحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة"[11].

---

٨ - المرجع السابق (١١٢/٣).

٩ - اقتضاء الصراط، لابن تيمية(٢١٣/١)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية -القاهرة.

١٠ - انظر: القاموس الفقهي، للدكتور: سعدي أبو حبيب (١٩٨).

١١ - المواعظ والاعتبار، المقريزي (٣٣١/١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ * إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة التوبة:٣٨ -٣٩].

هذا شروع في عتاب من تخلَّف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمَارّة القيظ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ} أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟.

ثم زهّد -تبارك وتعالى - في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ} كما قال الإمام أحمد عن المستَوْرِد أخي بني فِهْر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع؟ وأشار بالسبابة))[1]، انفرد بإخراجه مسلم[2].

وقال الثوري، عن الأعمش في الآية: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ} قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه فلما وُضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لي من كَبِير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أفٍّ لكِ من دار، إن كان كثيرُك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} ما الذي يمنعكم إذا طلب منكم النفير في سبيل الله أي الجهاد؟ وهذا غالب ما ترد فيه هذه اللفظة من المعنى،

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٠٠٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه المستورد بن شداد، فمن رجال مسلم، وروى له البخاري تعليقا.

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٨).

كثيراً ما يعبر في القرآن بـــ"سبيل الله" ويراد به الجهاد، ومن أهل العلم من عممه بجميع المواضع، بل إن من أهل العلم من قال مفسراً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((من صام يوما في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفا))[٣] قالوا: صام يوماً في سبيل أي في الجهاد، وهو تفسير له وجه من النظر معتبر، وقوله: {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} النفْر بمعنى الانتقال بسرعة من مكان لآخر لأمر يحدث، {انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} قال: **أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار**، {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} اثاقلتم أصلها تثاقلتم وعدي بـــ "إلى"؛ لأنه متضمن معنى الميل والإخلاد، ملتم إلى الأرض أخلدتم إلى الأرض، ومعلوم أن الفعل قد يضمن معنى الفعل فيعدى بتعديته، وهذا أبلغ و أكثر في المعاني، {اثَّاقَلْتُمْ} مضمن معنى الإخلاد والميل، فعدي بـــ "إلى".

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: {إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} قال ابن عباس -رضي الله عنهما -: استنفر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حيًّا من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم.

وهذه الرواية فيها ضعف على كل حال.

{وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [سورة محمد:٣٨].

ولا حاجة للاشتغال بتحديد هذا، يعني مثلاً في قوله: {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} لا داعي للتكلف بأن هذا العذاب يكون في الدنيا بإمساك القطر أو غير ذلك، بل هو عام يعني يعذبهم عذاباً أليماً إما في الدنيا وإما في الآخرة، وإذا أراد الله -عز وجل - بعبده المسيء المذنب خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، و{مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ثم قال: {إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} أيضاً هنا لا حاجة للتكلف في البحث عن هؤلاء القوم هل هم فارس أو اليمن أو غير ذلك، {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} الله -عز وجل - لم يحدد شيئاً فيأتي بآخرين يقومون بحمل أعباء الرسالة والجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى.

{وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه.

يعني هذا نأخذ منه عبرة كبيرة وفائدة ومعنى، وهو أن من أدار ظهره عن دين الله -عز وجل - وتلون وتغير في أوقات الفتن، أو في غير أوقات الفتن، أو أعرض عن الدعوة إلى الله -عز وجل - وتركها بعد أن كان يحمل لواءها، أو غير ذلك فإنه لا يضر الله شيئاً {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا} والله -عز وجل - لا يزال يغرس لهذا الدين غرساً، فكل من تولى وأعرض وترك فإن الله -تبارك وتعالى - غني عنه وعن عمله، ولا يضر الله شيئاً، والله -عز وجل - يأتي بمن هو خير منه، وأنفع للناس، وإنما يضر الإنسان بهذه الأعمال والإخلاد نفسه، والدعوة إلى الله -عز وجل - كل ذلك مما يدخل في عموم "في سبيل الله" وإن كان رأسه الجهاد، فـــ {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: الجهاد في سبيل الله، {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ}

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، برقم (٢٦٨٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق، برقم (١١٥٣).

فيعتبر من هذا، ويؤخذ منه أيضاً من تثاقل إلى الأرض، واشتغل بالعيال والكسب وما إلى ذلك عن دعوته، وعن تعليم الناس، وعن الاشتغال بإصلاح الأمة، ودعوة الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم -، فمن أعرض فلا يضر إلا نفسه.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، والمناسب للسياق **{وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** أي قادر على أن يستبدل غيركم ويأتي بخير منكم، ولا يحصل من جراء ذلك ضرر، **{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}** [سورة الشمس:١٥]، فالإنسان قد يفعل الشيء ولكنه يراقب عقوبة، يتخوف من العواقب، وقد يمسك عن كثير مما يريده تخوفاً من العواقب، أما الله -عز وجل- فهو على كل شيء قدير المُلك ملكه، والخلق خلقه يفعل ما يشاء، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

{إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٤٠].

يقول تعالى: {إِلا تَنْصُرُوهُ} أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ} أي: عام الهجرة، لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة -رضي الله تعالى عنه-، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطُّلَّبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر -رضي الله عنه-، يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، -عليه السلام- منهم أذى، فجعل النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يُسَكِّنه ويُثَبِّته ويقول: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))، كما روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))[٤]، أخرجاه في الصحيحين.

{إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} فالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي خرج، وأضيف الإخراج إليهم؛ لأنهم هم الذين تسببوا فيه، اضطروه إلى الخروج بتضييقهم عليه، **{ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ}** وهذا لا شك أنه من المناقب العظيمة لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- التي لا يلحقه بها أحد، -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- ولعن من لعنه، وأبغض من أبغضه.

وعبر بالحزن في قوله: **{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}**، المعروف أن الحزن هو الغم من أمر فائت هذا المشهور، والخوف هو الغم من أمر مستقبل متوقع هذا هو المشهور في المعنى، ولذلك نفاه الله -عز وجل- عن أهل الجنة **{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [سورة يونس:٦٢] لا يغتمون من أمر مضى، ولا

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، برقم (٢٣٨١).

يقلقون ويغتمون من أمر مستقبل، وهنا عبر بالحزن عن أمر مستقبل {لا تَحْزَنْ} بمعنى لا تخف، ولذلك حينما نقول: إن الحزن هو الغم من أمر مضى نقول غالباً؛ لأنه في بعض المواضع يستعمل هذا مكان هذا، يستعمل الحزن مكان الخوف، والمعية هنا معية نصر وتأييد وحفظ، {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] قالها الله لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا قال تعالى: {فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} أي: تأييده ونصره عليه، وقيل: على أبي بكر.

الآن {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} هنا {فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} يحتمل أن يكون لأبي بكر -رضي الله عنه- أنزل عليه الطمأنينة ورباطة الجأش، وأَمَنَةً، فحصل له السكون وذهب عنه الحزن أو الخوف، ذهب عنه الروع، ويحتمل أن يكون ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الراجح؛ لأن القاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها فالآن انظر {إِلا تَنْصُرُوهُ} الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد نصر الله النبي -صلى الله عليه وسلم-، {إِذْ أَخْرَجَهُ} النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} القائل هو النبي -صلى الله عليه وسلم- لصاحبه، {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-، و{وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} والذي أُيِّد بجنود لم تروها هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيحتج على أن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمرين:

الأمر الأول: قاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

الأمر الثاني: أنه قال بعده: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} وهذا إنما يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهو المؤيد بالملائكة.

ثم قال: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} أي: الملائكة، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني {كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الشرك و{كَلِمَةُ اللَّهِ} هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[٥].

وقوله: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ} أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، {حَكِيمٌ} في أقواله وأفعاله.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحَى مسلم بن صَبَيح: هذه الآية: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} أول ما نزل من سورة براءة.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضْرمي أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا أو كبيراً، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} الآية.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، برقم (٢٦٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، برقم (١٩٠٤).

رواية أبي الضحى من قبيل المرسل، وهو من أنواع الضعيف، والرواية الثانية في سبب النزول أيضاً لا تصح من جهة الإسناد -والله تعالى أعلم-، وأقوال أهل العلم في قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} متنوعة متعددة، فمنهم من يقول: انفروا في حال النشاط وفي حال الكسل، والميل إلى الدعة، والإخلاد إلى الأرض، وبعضهم يقول: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} يعني انفروا أصحاء ومرضى، وبعضهم يقول: شيوخاً وشباباً، وبعضهم يقول: انفروا في حال فراغكم وفي حال شغلكم، يعني المشغول والفارغ الجميع ينفر، وبعضهم يُفهم من كلامه أن المراد {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} أنه الخفة والثقل يعني من ناحية البدن الثقيل، والخفيف كل هؤلاء يخرجون ولا يعتذر أحد بأنه بدين مثلاً أو نحو هذا، هكذا يفهم من بعض الأقوال أو المرويات إلى غير ذلك مما يقال في معنى {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا}، والأحسن في تفسيره -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن ذلك جميعا داخل فيه، {انْفِرُوا} جماعات وفرادى، انفروا في طلائع الجيوش خفافاً، وفي الجيش نفسه وهو الثقيل، انفروا في حال نشاطكم وإقبال نفوسكم، وفي حال تقاعسها، انفروا في حال الصحة والمرض، احتمال أن يكون هذا داخلاً فيها كما ذكر بعض السلف، فيكون ذلك قد خصص بقوله -تبارك وتعالى-: {لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ} [سورة التوبة:91]، وبقوله: {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} [سورة النساء:95]، الذين هم مرضى بمرض مزمن فهؤلاء يعذرون، و{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ} [سورة النور:61]، كل هذه مخصصة لهذه الآية، فالراجح أن هذه الآيات ليست بناسخة، وإن قال بعض السلف بأن الآية التي عذر فيها المرضى ناسخة للآية، والراجح أنها مخصصة، ومن أهل العلم من قال: إن الذي نسخها هو قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:122]، يعني على الأرجح أن التي تتفقه هي التي تنفر {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ} بصحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتلقي عنه، فالشاهد أن هذه الآية كانت تأمر بالنفير العام، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أمر الناس في غزوة تبوك بأن ينفروا ولا يتخلف عنها أحد، وما وقع للذين تخلفوا –الثلاثة- ثم بعد ذلك رُخص للناس، وخفف عنهم، فقال الله -عز وجل-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً} فتنفر طآئفة وتبقى طائفة -والله تعالى أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إن الآية محكمة وليست منسوخة.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر، فقال: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا}.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولا وشَبَابًا ما سمع الله عذر أحد.

كهولاً وشبانا، منفردين أو مجتمعين، أغنياء وفقراء، من له عيال، ومن ليس له عيال، الفرسان وغير الفرسان، يخرجون على أرجلهم، لكن في غزوة تبوك جاء أناس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يريدون أن يحملهم فقال: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [سورة التوبة:92]، فالله -عز وجل- نفى عنهم الحرج، {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء} [سورة

التوبة:٩٢ -٩٣]، فالآية محمولة على جميع هذه المعاني التي ذكروها، فلا يخص معنىً دون معنى -والله تعالى أعلم -، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله - وطائفة من المحققين.

ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخًا وشَبَابًا جهزوني يا بَنِيَّ، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وقال السدي قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} يقول: غنيًا وفقيرًا، وقويًا وضعيفًا فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيما سمينًا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة التوبة:٩١].

هذه الرواية لا تصح.

قال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشَّرْعِبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليا على حمص قِبَل الأُفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا هَمًّا.

بضم الهمزة الأُفسُوس هذا في الشام، وهو تابع لثغور طرسوس، ويقال: إن هذه البلدة هي بلده، يقال: إنها بلدة أصحاب الكهف.

قال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشَّرْعِبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليا على حمص قِبَل الأُفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا هَمًّا، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار، فأقبلت إليه، فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله -عز وجل.

كان بعض الصحابة فمن بعدهم يرون أن هذه الآية محكمة، وأنه لا يجوز لأحد أن يتخلف عن الجهاد، وهذا لا يخلو من إشكال، فلما كان المسلمون قلة كان الأمر عاماً لهم ولا يعذر أحد بالتخلف، ثم بعد ذلك لما كثروا رخص لهم أن يبقى بعضهم وأن ينفر بعضهم؛ ولذلك -كما هو معلوم - كان من سياسة عمر مثلاً في المدينة أنه يمسك أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - عنده فلا يكاد يرسل أحداً إلى شيء من الثغور أو البلاد الأخرى، وإذا بعث أحداً يبعث الواحد أو الاثنين أو نحو هذا، وكان عمر -رضي الله عنه - يستفيد منهم في المشاورة ونحو هذا وأيضاً كانت له سياسة في ذلك، كان يتخوف أن يجتمع عليهم الناس في كل مصر من الأمصار، وهؤلاء يجتمعون على هذا وهؤلاء يجتمعون على هذا وهؤلاء يجتمعون على هذا ويتربون على يده، ثم بعد ذلك يحصل بسبب هذا في المستقبل شيء من التفرق، أو التنازع، كان يتخوف ذلك، ثم لما جاء عهد عثمان -رضي الله عنه - أذن لهم فتفرقوا في الأمصار، وعلى كل الصحابة بعد النبي -صلى الله عليه وسلم - كان منهم من يبقى في المدينة ولا يخرج في الغزوات كما هو معلوم.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المُهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((وتَكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة))[٦].

ولهذا قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة:٢١٦].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد عن أنس؛ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال لرجل: ((أسلِم))، قال: أجدني كارها، قال: ((أسلم وإن كنت كارها))[٧].

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة التوبة:٤٢].

يقول تعالى موبّخًا للذين تخلفوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} قال ابن عباس: غنيمة قريبة، {وَسَفَرًا قَاصِدًا} أي: قريبا أيضا، {لاتَّبَعُوكَ} أي: لكانوا جاءوا معك لذلك.

{لَوْ كَانَ عَرَضًا} العَرض ما يعرض من منافع الدنيا، {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} يعني غنيمة قريبة لا تحتاج إلى سفر ومشقة وعنت، {وَسَفَرًا قَاصِدًا} السفر القاصد فسر بالقريب، هذا الذي عليه الأكثر، ومنهم من نظر إلى هذه اللفظة باعتبار أن القصد يأتي بمعنى التوسط يعني سفراً متوسطاً، لكن السياق يدل -والله أعلم - على أن المقصود {وَسَفَرًا قَاصِدًا} أي سفراً قريباً ليس بعيداً كتبوك في شدة الحر وطيب الثمار.

{وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} أي: المسافة إلى الشام، {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ} أي: لكم إذا رجعتم إليهم {لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

{يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ} يعني بأيمانهم الكاذبة، ولا شك أن قعودهم أيضاً هو السبب لهلاكهم، {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فيحلفون كذباً للنبي -صلى الله عليه وسلم - فكانت أيمانهم هذه سبباً لاستمرائهم الباطل، كقوله -تبارك وتعالى -: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المجادلة:١٦] صدوا في

---

٦ - رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه - بلفظ: ((تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة))، كتاب الخمس، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم -: (أحلت لكم الغنائم)، برقم (٢٩٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم (١٨٧٦).

٧ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٢٠٦١)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٤٥٤).

أنفسهم، وصدوا غيرهم، فهذه الأيمان جعلتهم يستمرئون ما هم فيه من القعود عن طاعة الله -عز وجل-، والنفاق، ومحادة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [سورة التوبة:٤٣-٤٥].

روى ابن أبي حاتم عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} وكذا قال مُوَرِّق العِجْلي وغيره.

وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء: {فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} [سورة النور:٦٢] **وكذا رُوي عن عطاء الخرساني.**

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذِنُوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} أي: في إبداء الأعذار، {وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} المشهور في المعنى وهو المتبادر وهو الذي يدل عليه السياق، والملابسات التي نزلت فيها الآيات أنه كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنها معاتبة من الله -عز وجل-، {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} ابتُدئت بهذه البداية اللطيفة، قدم المعاتبة بالعفو، ومن أهل العلم من يقول: إن هذه ليست معاتبة، وإنما كقولك لمن تخاطبه: أصلحك الله ما شأن كذا وكذا؟، أو عفا الله عنك ما شأن كذا وكذا؟، وإذا كان المعنى على هذه فإنه يوقف عليها، يقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ}، والأقرب هو الأول -والله تبارك وتعالى أعلم- أنها معاتبة؛ ولذلك يوصل الكلام {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} فليس هذا باستفتاح كلام كما يقوله بعضهم، فمن الناس من يستفتح الكلام بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ} تقول: لأبيك أو لأستاذك أو نحو هذا تقول: عفا الله عنك أين أجد كذا وكذا؟، والأول أرجح يقول: **قال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: {فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ}** يعني باعتبار أن الآية التي في

سورة النور ناسخة لآية براءة، وإذا كانت ناسخة فالمعنى أنه ترك الأمر للنبي -صلى الله عليه وسلم -، أذن له أن يأذن لمن شاء منهم، فهذا على النسخ، ولكن النسخ لا يثبت بالاحتمال؛ ولهذا فإن بعض أهل العلم حاول أن يجمع بين الآيتين بين الآية التي عندنا هنا **{لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا}** وبين آية النور: **{فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ}** [سورة النور:٦٢]، فقال بعض أهل العلم: إن الآية التي في سورة براءة فيها النهي عن الإذن قبل الاستثبات، قبل أن يتبين له الصادق من الكاذب، والآية التي في سورة النور بعد الاستثبات بعد أن يتبين له، وهذا ليس من الظهور لدرجة كافية، والذي يظهر -والله تعالى أعلم - أن هذه الآية بموضوع يختلف عن موضوع آية النور أصلاً، فهذه الآية في الإذن لهم عن التخلف في الغزو، يأتون ويعتذرون إليه بمعاذير كاذبة، فكان يأذن النبي -صلى الله عليه وسلم - لمن تخلف منهم، وهو كاذب، فمن هؤلاء المعتذرين هؤلاء المنافقون، فأما الآية التي في سورة النور فهي تتحدث عن أدب من آداب المؤمنين أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، ثم قال بعد ذلك: فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم، واستغفر لهم الله، يعني من آداب المجالسة مع النبي -صلى الله عليه وسلم -، ويمكن أن يؤخذ هذا الأدب أيضاً مع غيره طالما أنه أدب من آداب المجلس، فإذا كانوا معه على أمر جامع يعني ليس بمجلس عفوي، وإنما اجتمعوا لأمر من الأمور ما يذهب الإنسان يقوم من المجلس من غير إذن، يستأذن إذا عرضت له حاجة ولا شك أن هذا هو الأدب اللائق خلافاً لأهل الجفاء، فالله -عز وجل - أدب المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ولا يجهروا له بالقول، ولا يقوموا عنه إن اجتمعوا معه على أمر من الأمور حتى يستأذنوه، فهذه في آداب المجالسة والمخالطة والمصاحبة، ويمكن أن يؤخذ منها أيضاً -أي آية النور **{وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ}** - [سورة النور:٦٢]، أنهم لو كانوا معه في الغزو لم يذهبوا حتى يستأذنوه، مثل لمّا كان الصحابة مع النبي -صلى الله عليه وسلم - يرابطون على الخندق الله -عز وجل - قال: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}** [سورة النور:٦٣]، سواءً من المجلس أو من المقام الذي هم فيه في القتال؛ لأن الله -عز وجل - سمى ذلك جميعا مجلساً، كما قال الله -تبارك وتعالى - في سورة المجادلة: **{إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا}** [سورة المجادلة:١١]، فإن المجالس فسرها بعض السلف في سورة المجادلة بمجالسته -صلى الله عليه وسلم -، وفسرت بالمجالس للصلاة يعني كما في صلاة الجمعة **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ}**، وفي القراءة الأخرى {في المجلس} وهذه تدل على هذه، وفسرت أيضاً بالمجالس في القتال قاله بعض السلف، وكل هذه المعاني صحيحة، إذا طلب منكم التفسح سواءً في مقام القتال في مجلس القتال، الصفوف، أو في مجلسه -صلى الله عليه وسلم - بدلاً من أن يقام أحد من مجلسه فيكون ذلك إيذاءً له وجرحاً لمشاعره، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم - عن هذا، **{تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}** فهذا كله يقال له: مجالس، فأذنْ لمن شئت منهم، ففي القتال من الناس من يتسللون من مقام المرابطة كما حصل في الخندق، منهم من يستأذن **{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}** [سورة الأحزاب:١٣]، وبعضهم يتسلل دون أن يستأذن فهنا هذه الآية في الاستئذان في القعود عن الغزو **{عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ}** [سورة التوبة:٤٣] في غزوة تبوك، وتلك في الاجتماع به -صلى الله عليه وسلم - ومجالسته، أو الكون معه في أمر جامع، لا ينسحب أحد، ولا يخرج أحد، لا يذهب أحد حتى يستأذن، فهذا

أدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أدب يطلب مع غيره ممن حصل لهم مثل هذا، اجتمعوا على شيء، وليس كل من أراد أن يخرج خرج!، هذا يخرج يتكلم بالهاتف وهذا يخرج يشرب، وهذا يخرج يرجع إلى بيته هذا ليس من الآداب في شيء، هذه أخلاق صحراوية لا تصلح، فرباهم القرآن على خلاف هذا، هنا قال: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}، {لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ} يعني هنا فسرها أو نقل ما يدل على أن "حتى" بمعنى أنه يقول له: لا يأذن لهم حتى يتبين الصادق، ويتبين الصادق أنه إن قال له: لا، وهو صادق فسيتحامل على الخروج، ويخرج لا يجد بداً، لكن المنافق أو الكاذب سيقعد ويتخلف، ويتبين بهذا نفاقه، فهو مبيّت أصلاً للقعود، وجاء يعتذر بهذه الأعذار الكاذبة {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ}، وبعضهم يقول غير هذا في المعنى لكنه غير ظاهر.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: {لا يَسْتَأْذِنُكَ} أي: في القعود عن الغزو {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}؛ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ} أي: في القعود ممن لا عذر له {الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: شكت في صحة ما جئتهم به، {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} أي: يتحيرون، يُقَدِّمُون رِجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

{وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} هنا قال: **أي شكت** يمكن أن نقول هذا باعتبار المعنى الأصلي أو على القول بأن هذه مرادفة لهذه، والواقع أن الريب وإن كان يشترك مع الشك في المعنى الأصلي لكنه يختلف عنه، فـ "الريب" أخص من مطلق الشك، والفرق بينهما أن "الريب" شك مع قلق، هذا التردد الذي في النفس حينما يصاحبه شيء من القلق يقال له ريب، فقد تقول: أنا أشك مثلاً هل نزل مطر أو لا؟ هل نزل مطر الليلة أو لم ينزل؟، لكن لا يقال: أنا مرتاب هل نزل مطر أو لم ينزل؟، ولو عبر واحد بهذه الطريقة لقيل عنه: هذا ليس عربياً، لكن يمكن أن يقال: أنا مرتاب في أمر فلان، بمعنى شك يساوره قلق، أنا مرتاب في القضية الفلانية، أنا مرتاب في التصرف الفلاني، أنا عندي ريب أنا مرتاب في عذر فلان أنا مرتاب في سلوك هذه المرأة، شك مع قلق، لكن لا يقال: أنا مرتاب هل أصلحت الباب أو لا؟ أنا شاك يعني هل أصلحت الباب أو ما أصلحته؟ ناسٍ فهو شاك، واضح الفرق؟ شك مع قلق يقال له: ريب.

{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [سورة التوبة:٤٦-٤٧].

يقول تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ} أي: معك إلى الغزو {لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} أي: لكانوا تأهبوا له، {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} أي: أبغض أن يخرجوا معك قدرًا، {فَثَبَّطَهُمْ} أي: أخرهم، {وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} أي: قدرًا.

ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا} أي:

لأنهم جبناء مخذولون، {وَلأَوْضَعُوا خلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي يستأذن -فيما بلغني- من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول والجَدُّ بن قيس، وكانوا أشرافا في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قومٌ أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}.

هنا يقول الله -عز وجل-: **{وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ}** أي خروجهم للقتال، فثبطهم ثنى عزائمهم عن ذلك، وقد يرد سؤال هنا وهو أن الله -عز وجل- يحب الجهاد في سبيله، ويدعو إليه، وأمر به عباده المؤمنين، فكيف قال هنا: **{وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} {انْبِعَاثَهُمْ}** أي الغزو؟ والجواب عن هذا واضح على عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو أن الله يحب الجهاد ديناً وشرعاً، فكره انبعاث هؤلاء إليه فثبطهم قدراً، كره انبعاثهم؛ لأن هؤلاء لا يخرجون يجاهدون في الواقع هؤلاء يخرجون للإفساد، فخروجهم يحصل من جرائه مفسدة عظيمة للمسلمين كما ذكر بعده **{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ}** يعني أسرعوا، **{خِلالَكُمْ}** يعني للإفساد بينكم، **{يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}** يطلبونها لكم، والمشكلة أن فيكم سماعين لهم، **{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}** فكره الله -عز وجل- انبعاثهم لهذا فخروجهم ليس بجهاد وإنما هو عكس مقصود الجهاد وإن كانوا قد خرجوا بصورة المجاهدين، فهم أهل شر وإرجاف وإفساد بين الناس، فالله أراده ديناً وشرعاً وكرهه لهم أو ثبطهم عنه قدراً **{كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ}**، وهنا أيضاً: **{وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}** قال: قدراً، يعني قيل لهم ذلك قدراً فكان لابد من تخلفهم؛ لأن الله قدر ذلك، وهذا من أحسن ما تفسر به -والله أعلم-؛ لأن بعضهم يقول: **{وَقِيلَ اقْعُدُوا}** يعني الشيطان ألقى ذلك في قلوبهم، وبعضهم يقول: قال ذلك بعضهم لبعض: **{اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}**، وبعضهم يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك على سبيل الغضب والسخط عليهم حينما استأذنوه وهم أغنياء **{اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}**، والأقرب -والله أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا **{وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}** فعبر به عن الخذلان لهم، والمراد بـــ "القاعدين" النساء والصبيان، وأهل الأعذار من الزمنى والمرضى و الأعرج والأعمى، فرضوا بهذا، وهذا لا يرضى به من كان مؤمناً صادقاً، فعليٌّ -رضي الله عنه- لما خلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة قال له: يا رسول الله أتجعلني مع النساء والصبيان؟، فقال: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي))[1]، فالمؤمن الصادق لا يرضى بالتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا كان أصحاب الأعذار الصادقة ليسوا بأصحاب أعذار فكان الفقراء الذين لا يجدون ما يتجهزون به إذا جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لهم: **{لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ}** [سورة التوبة:٩٢-٩٣]، الخوالف

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن -رضي الله عنه-، برقم (٣٥٠٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٤).

يعني مثل هؤلاء النساء والمرضى، يقول: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} أي: **لأنهم جبناء مخذولون**، والخبال معناه الفساد بالنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف بين المؤمنين، {مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً}، فيحصل الوهن والضعف في الجيش، فخروجهم لا خير فيه، وإنما هو ضرر على المسلمين، قال: **أي: لأنهم جبناء مخذولون**، {وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ} الخلل الفرجة بين الشيئين، وقيل: منه الخلة يعني الحاجة والفقر والمسغبة خلة، وفسر بهذا الخصاصة {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:٩] كما في سورة الحشر في مدح الأنصار -رضي الله عنهم- {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} قيل هو من خصاص الدار، بمعنى الخلة التي تكون كالشقوق في الجدران والسقف تظهر منها أشعة الشمس، ومنه الخلل الذي في المنخل، {وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ} أي بينكم يعني يسعون بينكم بالفساد {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} يعني يطلبونها لكم، فهم يسعون لإيقاع الفتنة بين المؤمنين، هذا إذا قلت: بغيتُه لكذا، يعني طلبته له، وإذا قلت: أبغيته كذا يعني أعنته على طلبه، أبغوني ضعفاءكم، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} هنا فسرها قال: **أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين** {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي هناك ناس يقبلون منهم ويستجيبون لهم وهذا المعنى الذي رجحه ابن القيم -رحمه الله- خلافاً لمن فسره كابن جرير بأن فيكم سماعون لهم أي ينقلون حديثكم لهم، ينقلون الحديث لهم بمعنى كأنهم عيون وجواسيس ينقلون أخباركم وحديثكم إليهم، ووجه ترجيح ابن القيم لهذا، ابن القيم رجحه بأن المنافقين أصلاً كانوا مخالطين للمسلمين، ولا يحتاجون إلى عيون فهم أنفسهم عيون، هم مخالطون لهم؛ ولذلك جاءت الخطورة، فالمنافقون أخطر على المسلمين من الكافرين؛ لأنهم يخالطونهم صباح مساء في المسجد وفي الغزو وفي كل مكان، فيعرفون كل ما يجري معهم في داخل الصف، فهؤلاء هم الذي يمكن أن يدلّوا العدو على جوانب الضعف عند المسلمين، ويخبرون عن كل شيء يتعلق بهم من عَددهم، وعُددهم، وكلامهم، وما يخططون له، فهذه الخطورة، وابن القيم -رحمه الله- يقول: إن هؤلاء المنافقين ليسوا منعزلين منفردين فيحتاجوا إلى إرسال العيون من أجل التعرف على ما يجري، فهم مخالطون فلذلك {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي: يقبل منهم ويستجيب، وليس ينقل حديثكم إليهم، وأما ابن جرير -رحمه الله- فوجه الترجيح عنده {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، يقول: إن هذه اللفظة {سَمَّاعُونَ لَهُمْ} تستعمل في مثل هذا -في نقل الحديث-، وأما في الاستجابة فإنه يقال: فلان يسمع لفلان أو سامع لفلان، لا يقال: سمّاع له، وجرت العادة أن يعبر عن الشخص المستجيب يقال: فلان يسمع لفلان، فلان سامع لفلان، أي سامع ومطيع، لكنْ سمّاع لفلان يقول: ما جرت العادة أن يعبر بهذا عن الاستجابة والقبول.

والمعنى الأقرب -والله أعلم- المتبادر {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} أي مستجيبون، فيكم من يقبل ويؤثر فيه هذا الكلام، فلو خرجوا لحصل الخلاف والشر بين المسلمين، يوجد من المسلمين من لا يتفطن ولا يحذر من هؤلاء المنافقين وما يلقونه ويطرحونه فيجلس فيقبل منهم، هذا هو المعنى الأقرب، والمعنى الثاني غير ممتنع، يعني من قال من أهل العلم كابن القيم -رحمه الله: لو ناس بهذه المثابة يسمعون لهم فهم منهم، لكن قد لا يكون منافقاً قد ينقل لهم الحديث ثقة بهم وهو لا يعلم بنفاقهم، باعتبار منزلتهم ومكانتهم من ناحية التعصب القبلي، أو غير ذلك، يمكن أن يوجد هؤلاء، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتل المنافقين، ولم يقتل عبد الله بن أبي، ولما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر في قصة الإفك وقال: ((من يعذرني

برجل قد بلغ أذاه أهلي أو في أهلي......)) فقام أسعد بن زرارة -رضي الله عنه - من الأوس، وقال: يا رسول الله مرنا إن كان منا معشر الأوس قتلناه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا بأمرك، فقام سعد بن عبادة -رضي الله عنه - وقال: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله! وقام رجل آخر يرد عليه قال: بل كذبت أنت وأنت منافق تدافع عن المنافقين، هؤلاء ناس ليسوا من المنافقين، ولا من ضعفاء الإيمان، هذا سعد بن عبادة سيد الخزرج وهذا أسعد بن زرارة، وجاء في بعض الروايات أن الذي قام سعد بن معاذ، لكن سعد بن معاذ -رضي الله عنه - قد لا يكون دقيقاً أنه الذي قام، فهؤلاء كبار سواء كان سعد بن معاذ، أو أسعد بن زرارة، وأسعد بن زرارة هو الذي استقبل مصعب بن عمير قبل هجرة المسلمين إلى للمدينة، وهو الذي كان بمنزله القيم أو العريف أو الأمير على من آمن في البداية، فإذا كان هذا يقع بين هؤلاء الكبار الثقات فكيف بالضعفاء ضعفاء الإيمان ومن كان إيمانه مدخولاً! {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا} فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [سورة الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [سورة النساء:٦٦ -٦٨] والآيات في هذا كثيرة.

{لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} [سورة التوبة:٤٨].

يقول تعالى محرضا لنبيه -عليه السلام - على المنافقين: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ} أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم - المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها.

يعني حاربه منافقوها قبل أن يظهروا النفاق حينما كانوا من المشركين، ومعلوم خبر عبد الله بن أبيّ لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم - على حمار يعود سعد بن عبادة فمر على مجلس فيه المشركون والمسلمون، فوضع عبد الله بن أبيّ قبل أن يظهر إسلامه وضع كمه أو طرف عمامته على أنفه، وقال: لا تغبروا علينا! فلما وقف النبي -صلى الله عليه وسلم - يعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى الله قال: أيها الرجل اجلس في رحلك يعني في مكانك أو في بيتك فمن أتاك فأسمعه حديثك ولا تغْشَنا في مجالسنا، فقام عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه -، وقال: بل يا رسول الله اغشنا في مجالسنا، وعبد الله بن أبيّ كان ذلك الوقت لم يظهر الإسلام، فحصل بين الناس شجار، وضرب بالجريد وبالنعال، فالمقصود أنهم كانوا يقاومون إلى آخر شيء يمكنهم أن يقاوموا به، ثم بعد غزوة بدر قال لهم -قبحه الله -: هذا أمر قد تَوجَّه فادخلوا، يعني لا سبيل لمقاومته، شب وخرج عن الطوق فدخلوا فيه ظاهراً، وبدءوا يكيدون له إلى آخر نفس.

فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: {حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}.

هؤلاء المنافقون طول الفترة التي بقوا فيها لم يكن أحد منهم مقرباً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم من الأيام إطلاقاً، ولم يكن أحد منهم يذكر له بلاء قط في يوم من الأيام أبداً، ولا مقام ينصر فيه دين الله -عز وجل-، فعبد الله بن أبي كان يقف قبل صلاة الجمعة ويمسك المنبر ويجلس يتكلم قبل وقوف النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، ويقول: أيها الناس لقد ساق الله إليكم هذا النبي، وكذا فآمنوا به، واتبعوه، فلما وقع منه ما وقع حينما قال: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [سورة المنافقون:٨] لما جاء ليقوم سحبوه وأخرجوه من المسجد وطردوه ودفعوه بالباب فلقيه بعض الصحابة فقال: كأنما قلت هجراً، يعني أنا ماذا قلت: أنا أمرت بطاعته!! غضبان، فمواقفهم كلها تدل على النفاق حتى أسماؤهم غلط! يعني هذا الذي اسمه ربما "صالح" والآخر اسمه "أُبي"، والباقون كلهم كالجد بن قيس أسماء موحشة ينقبض منها القلب، يعني انظر إلى أسماء هؤلاء الجد بن قيس ومخشي بن حمير، وإن كان مخشي بن حمير ذكر أنه تاب آخر الأمر، وهو من الناس الذين نزلت فيهم آيات براءة، فأسماؤهم موحشة إذا سمعتها ينقبض القلب منها بخلاف أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- عمر بن الخطاب معاذ بن جبل أبي عبيدة عامر بن الجراح سعد بن أبي وقاص علي بن أبي طالب الأسماء التي إذا سمعها المؤمن انفتح لها قلبه، وهذه الجد بن قيس وابن نبتل وغيرها من الأسماء، الحمر المستنفرة، فلا يأتِ من يقول: ما دام فيه منافقون، ما الذي يعرفنا أن الصحابة هؤلاء الذي رووا ما يكونون من المنافقين؟ والجواب أن المنافق يدخل ويخرج ويقول: **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}**؟ [سورة محمد:١٦] لا يفقه، ولا يحفظ، ولا ترتفع همته لشيء، وإذا حضر المجلس نام هو فقط، فشغلُه جالس يطالع في الموجودين، ليس له شغل إلا هذا، لا يحفظ آية ولا يحفظ حديثاً ولا ينتفع بشيء، ليس أهل لذلك، ولذلك ما يمكن لهذا أن يروي حديثاً، وحتى لو رواه لا يقبلون منه، فالصادق يعرف من كلامه، **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** [سورة محمد:٣٠] ويعرف من قسمات وجهه، ويعرف من حاله ومسلكه وطريقته، هذا أمر لا يخفى عند الناس، وقد ذكر بعض أهل العلم مثل ابن الجوزي كلاماً طويلاً في هذه القضية، أن الناس يعرفون الصادق ولو لم يتكلم ويجدون محبةً له ولو لم يطلعوا على حقيقة عمله في السر، يجدون طمأنينة إليه، ومحبة ويكون له من الذكر الجميل حتى في أشياء لربما لم يعملها، أو في أمور يعملها في السر فيظهرها الله -عز وجل-، والكاذب تتقبض منه القلوب، وينقبض منه الناس، ويكرهونه، ويجعل الله -عز وجل- له من النفرة في قلوب المؤمنين ما لا يخفى، فهؤلاء المنافقون الله -عز وجل- حافظ دينه لا يمكن أن يكون هؤلاء حملة للدين، ولذلك لا تراهم أبداً في موقف واحد مشرف في الجهاد، أو في غيره حتى لو كان يلتبس على الناس، يعني الرجل الذي قال فيه الصحابة: فلان أبلى اليوم وفلان كذا فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هو في النار))[2]، فلا يقال: الله ختم له بالسعادة، فلان جيد، فلان شهيد، لا، هو في النار، فيذهب ويتابع ثم يصاب

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، برقم (١١٢).

بالجراحة الشديدة ويتكئ على ذباب سيفه ثم يقتل نفسه، ويقول: كنت أقاتل حمية لقومي!! لاحظ! كنت أقاتل حمية لقومي! تبين أمره للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قيل: فلان كذا، قال هو في النار، حتى الذي غلّ الشملة، دخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، ويرسل معاذاً إلى اليمن، ويقول عن عمر -رضي الله عنه-: ((لو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً آخر))[٣]، والأشياء التي جاءت في مناقب الصحابة، ومحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم كما في قوله: إنك لست منهم، إنك تحب الله ورسوله، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لثابت بن قيس بن شماس لما كان يرفع صوته، خشي أن يحبط عمله: **{لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ}** [سورة التوبة:١١٧]، وبعدها **{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ}** [سورة التوبة:١١٨]، هكذا تأتي الآيات، فهذا أمر لا يخفى أبداً، ولا يمكن أن يأتي نقل الدين والرواية والعلم وكذا عن طريق هؤلاء المنافقين إطلاقاً، فالواحد منهم يبقى ليأكل فقط هذا غاية همه، هو لأجل ماذا ينافق ويتقلب وكل يوم طالع له، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}** [سورة الأحزاب:١٤] "أتوها" يعني يعطون الكفار الغزاة الذين دخلوا المدينة مباشرة، هم يعلنون الردة، فهؤلاء لا يكونون من حملة الرسالة ولا من القادة، ولذلك ما تجد في أي مقام ولا حتى قائد سرية من المنافقين.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة التوبة:٤٩].

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: {ائْذَنْ لِي} في القعود {وَلا تَفْتِنِّي} بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم.

ومن أهل العلم من يقول المراد: **{ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي}** يعني لا تمتنع من الإذن فيكون ذلك فتنة لي، لا تحملني على الخروج وأنا لا أستطيع الخروج، **{وَلا تَفْتِنِّي}** رخِّصْ لي في القعود ولا يكن امتناعك سبباً لفتنة، يعني بعضهم يرى أن هذا هو المعنى، وورد في سبب نزولها أن الجد بن قيس -عدد من الروايات- أنه هو الذي قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: هل لك في بنات بني الأصفر؟ أو بجلاد بني الأصفر؟ كما جاء في بعض الروايات فهو يقول: **{ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي}** يقول: أنا لا أتحمل بنات بني الأصفر، بنات الروم الشقراوات فأفتن، ما شاء الله يتظاهر بالورع يريد غض بصره!! فيتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكل هذا من أجل -ما شاء الله- حفظِ وحياطة دينه، ورع الكاذب البارد، وبعضهم يقول: إنهم قالوا هذا يفتنكم يعني يغريكم بالغزو يذكر نساء بني الأصفر نساء الروم يقول: **{ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي}** وبعض هذه الروايات مثل ما صحت في أنها نزلت في الجد بن قيس **{ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي}** يقول: أنا لا أحتمل أن أرى نساء بني الأصفر.

قال الله تعالى: {أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا.

وبتخلفهم وبنفاقهم.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، برقم (٣٤٨٠).

كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: ((هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟))، فقال: يا رسول الله، أوْ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وقال: ((قد أذنت لك))، ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} الآية[٤].

ذكر هذه الروايات عن محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة كل هذا مراسيل لكنه صح ذلك من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه.

أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم.

وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة.

تضبط سلِمة بكسر اللام بني سلِمة، وفيها: ((بني سلِمة ديارَكم تُكتب آثاركم))[٥]، وهم الذين ورد فيهم **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ}** [سورة آل عمران:١٢٢]، ومساكنهم معروفة قريبة مما يسمى الآن بمسجد القبلتين.

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال لهم: ((من سيدكم يا بني سلمة؟))، قالوا: الجد بن قيس، على أنا نُبَخِّله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((وأي داء أدوأ من البخل؟، ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بِشْر بن البراء بن مَعْرُور))[٦].

وقوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((من سيدكم يا بني سلمة؟))، في أول الهجرة.

---

٤ - رواه ابن جرير الطبري في التفسير، (١٤/٢٨٧)، برقم (١٦٧٨٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٩٨٨).

٥ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخُطى إلى المساجد، برقم (٦٦٥).

٦ - رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم (٢٩٦)، والحاكم في المستدرك، برقم (٤٩٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم (٢٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التوبة:٥٠-٥١].

يعلم -تبارك وتعالى- نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من {حَسَنَةٌ} أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسرّه ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، {وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، {وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} فأرشد الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: {قُلْ} أي: لهم {لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، {هُوَ مَوْلانَا} أي: سيدنا وملجؤنا {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ} [سورة التوبة:٥٢-٥٤].

يقول تعالى: {قُلْ} لهم يا محمد: {هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا}؟ أي: تنتظرون بنا {إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} شهادةٌ أو ظَفَرٌ بكم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم، {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}.

وقوله: {قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين {لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يُتقبل منهم، لـ{أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان، {وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى} أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، {وَلا يُنْفِقُونَ} نفقة {إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ}.

وقد أخبر الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- أن الله لا يمل حتى تملوا، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.

{فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:٥٥].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم -: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ} كما قال تعالى: {وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:١٣١].

وقال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥ -٥٦].

وقوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقوله: {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم -عياذا بالله من ذلك -، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى - هنا: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} تفسير الحسن -رحمه الله - أن تعذيبهم بما يطالبون به من الحقوق يعني كالزكاة، وأن ذلك يشق عليهم، ويؤلم نفوسهم كما قال الله -تبارك وتعالى - عن المنافقين: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [سورة التوبة:٩٨]، فهو يرى أن هذا الذي أُخذ منه أنه مال لا عوض له، فهو لا يرجو العاقبة في الآخرة والجزاء عند الله -عز وجل -، وإنما يدفع هذا المال ليدفع التهمة عن نفسه وهو كاره، ولا يرجو عليه ثواباً فهكذا قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ} لكن الأقرب من هذا -والله تعالى أعلم - هو أن تعذيبهم بها هو ما يحصل لهم من العناء والشقاء والنصَب بجمعها كما هو الحال بالنسبة لطلاب الدنيا التي صارت الدنيا هي شغلهم وغايتهم، فيشقْوْن في جمعها، ويقضون الزمان الطويل في تحصيلها من طرق كثيرة فيحصل لهم من التعب الشيء الكثير، أضف إلى ذلك ما يحصل لهم من العناء والتعذيب بسببها من جهة حياطتها وحفظها والإبقاء عليها فهو مشغول بها، يشقى بجمعها، ويشقى بحفظها، ويتفرق قلبه معها، قال حذيفة -رضي الله عنه -: "اللهم إني أعوذ بك من تفرق القلب"، وفسر هذا بأن يكون له في كل وادٍ مال، فصاحب المال يشقى بماله في جمعه وفي حفظه، وهو دائماً يفكر في هذا المال أين يضعه، وأين يثمره، وإذا خسر تألم بسبب هذا، وحصل له من النكد والتنغيص ولربما مات من الغم كما هو مشاهد، فطلاب الدنيا إذا نزلت الأسهم نزل عنده الضغط، وإذا ارتفعت الأسهم ارتفع الضغط فهو في عناء وعذاب، ومنهم من يطلق امرأته! ومنهم من يصاب بجلطة! ومنهم من يصاب بطاعون!! كل هذا من أجل هذا المال، ولو أن إنساناً قيل له: أنت عندك الآن مائة مليون، ربما لا يستطيع أن ينام الليلة يفكر هذه المائة مليون يا ترى ماذا سيصنع بها؟ هل سيضعها في استثمار؟ وأين هذا الاستثمار؟ وإذا رأى بعض الأمور التي يتخوفها من بوادر حرب أو نحو ذلك بدأ يفكر أين يضع هذه الأموال؟ في دولارات، أو يورو، أو ذهب، أو يوزعها ويفرقها يضع شيئاً في هذا، وشيئاً في هذا، وشيئاً في هذا احتياطا؟، وإذا بدأ يفتح بها أعمالاً ومشروعات يفتح عشرين مشروعاً؛

من أجل إذا خسر هذا يعوضه الآخر، ويفتح له منجرة، ومخبزاً، وحدادة وكل شيء، ويشقى هنا وهناك، وكان من الممكن أن يكتفي ببعض هذا، لكن أهل الدنيا يشقون في جمعها فهذا هو المعنى -والله تعالى أعلم-، وهو أحسن ما ذكر في تفسيرها، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، ورجحه ابن القيم بقوة، {وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} أيضاً يكون هذا المال سبباً لمزيد من غفلتهم ولهوهم واشتغال قلوبهم فتنقضي أيامهم من غير توبة، ولا إيمان فيكون مصيرهم إلى النار.

{وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [سورة التوبة:٥٦ -٥٧].

يخبر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم-، عن جزعهم وفزعهم وفَرَقهم وهلعهم أنهم {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ} يمينًا مؤكدة، {وَمَا هُم مِّنكُمْ} أي: في نفس الأمر، {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} أي: فهو الذي حملهم على الحلف، {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً} أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به، {أَوْ مَغَارَاتٍ} وهي التي في الجبال، {أَوْ مُدَّخَلاً} وهو السَّرَب في الأرض والنفَق، قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة، {لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}.

الفَرَق هو شدة الخوف، {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} فحلفهم هذا كما أخبر الله -عز وجل- في مواضع من كتابه {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ} [سورة المنافقون:١]، فهذه الشهادة بمنزلة الحلف، و{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة المنافقون:٢]، حتى في يوم القيامة {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨]، استمرءوا هذا فرأوا أن هذا الحلف يخلصهم من كثير من الحرج والمواقف في الدنيا والإدانة، فظنوا أن ذلك ينفعهم في الآخرة، فيحلفون إذا بعثهم الله -عز وجل- من قبورهم، وهكذا أيضاً فرَقُهم وصفه الله -عز وجل- في مواضع كقوله -تبارك وتعالى-: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ} [سورة الحشر:١٤]، هذه في المنافقين، والكلام كله عن المنافقين {تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة المجادلة:١٤]، هي في المنافقين وكبيرهم عبد الله بن أُبيّ لما تولوا اليهود من بني النظير، وقال لهم: لا تخرجوا من دياركم، وسنقف معكم، ونقاتل معكم إن قتلتم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فكذبهم الله -عز وجل- في هذا كله قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر:١٢]، {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} [سورة الحشر:١٣] يعني أشد مرهوبية، كذلك وصفهم بحال الخوف والشدة، {فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [سورة الأحزاب:١٩] و {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [سورة المنافقون:٤] إذا نزلت آيات إذا نادى المنادي للجهاد ظنوا أن هذه الدعوة والصيحة أنهم هم مستهدفون بها؛ لشدة خوفهم وفرَقهم كحال المنهزم الذي صوره الشاعر بقوله:

ما زلتَ تحسب كلَّ شيء بعدهم *** خيلاً تكرّ عليهم ورجالاً

فهو يخاف ويتوقع الشر ويتوجس لما فيه من الريب، فالإنسان إذا كان صاحب ريبة فهنا {وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}، ثم صور شدة الحال التي هم فيها {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} يقول: لو وجدوا مكاناً يستعصمون به وينحازون إليه لذهبوا وما بقوا عندكم وقتاً يذكر {لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}، قال: **يسرعون**، هذا من جمح الفرس إذا لم يردّه اللجام ينطلق لا يلوي على شيء يقول: لو يجدون مجالا ما بقوا طرفة عين عندكم هم يعيشون في توجس وخوف رهيب، ولكنهم مضطرون إلى هذا البقاء.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [سورة التوبة:٥٨ -٥٩].

يقول تعالى: {وَمِنْهُمْ} أي ومن المنافقين {مَنْ يَلْمِزُكَ} أي: يعيب عليك {فِي} قَسْم {الصَّدَقَاتِ} إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن {أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} أي: يغضبون لأنفسهم.

بمعنى لا ينكرون للدين يعني إنكارهم ليس غيرة لله -عز وجل - وطلباً للحق والعدل، يعني حينما يقوم رجل ويقول: اعدل فإنك لم تعدل، فيقول: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله -عز وجل - مثل هذه المقامات التي يقولها بعض الناس، وهو لا يريد بها وجه الله -عز وجل -، فهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله -: إن من الناس من يقوم في الظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فينكر على أهل الظلم ظلمهم، وأهل البغي والفساد فسادهم، فإذا أعطى شيئاً من الدنيا من ولاية أو أعطي من مال أو غير ذلك صار شريكاً لهم، وإذا تأملت الكثير من النفوس وجدت ذلك ظاهراً فيها لأنك تجد عند هذا الإنسان أصلاً من منابت هذا الشر ومن التخلق به بالنسبة لما تحت يده ما يدل على أنه لو كانت له قدرة، وتمكن لفعل ما هو أعظم مما ينتقده ويعيبه على غيره، انظر إلى حاله وسلوكه إذا كان معلماً مع طلابه، انظر إلى حاله وسلوكه إذا كان مديراً مع من تحت يده، انظر إلى حاله في الأموال، وكيف تورعه فيها، وإذا تمكن أن يأخذ أرضاً أو مكسباً من المكاسب بأي طريقة من الطرق فقد لا يتوانى ولا يتورع، وهكذا تجد أحياناً الإنسان يعيب أشياء وإذا نظرت إلى حاله من الظلم، ومن بحسب ما عنده بحسب ما يمكنه لكن لو اتسعت قدرته لفعل أعظم مما ينتقد، وهذا كثير للأسف فقد يقوم في الظاهر على أنها غيرة لله -عز وجل -، وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وقد يخطب خطبة قوية، ويتكلم، وإذا نظرت إلى حاله تقول: هذا لو كان له من الأمر شيء للقي الناسُ منه أضعافَ ما ينتقد، تأمل في أحوال الخلق تجد هذا، فشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - يقول: من الناس من يكون بهذه المثابة لا يكون أمره لله فإذا أعطى أو قُرِّب، أو ولي فإنه يتحول إلى شريك لهذا الذي كان يعيبه وينتقده، وينكر عليه ويحتسب، والله المستعان.

وقال قتادة في قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذُكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديثَ عهد بأعرابية، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم - وهو يقسم ذهبا وفضة،

فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت، فقال نبي الله -صلى الله عليه وسلم -: ((ويلك، فمن ذا يعدل عليك بعدي))، ثم قال نبي الله: ((احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرءون القرآن لا يجاوز تَرَاقيَهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم))[1]، وذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ((والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن))[2].

وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان عن أبي سعيد -رضي الله عنه - في قصة ذي الخُوَيصرة -واسمه حُرْقوص - لما اعترض على النبي -صلى الله عليه وسلم - حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال: ((لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل))، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وقد رآه مقفياً إنه يخرج من ضِئْضِئ هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرُوق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء"[3] وذكر بقية الحديث.

أسماء المنافقين موحشة مثل هذا الاسم "حرقوص"، وهذه الرواية التي ذكرها عن قتادة: وذُكر لنا أن رجلاً من أهل البادية..... إلى آخره مثل هذا الإسناد لا يصح، ثم ذكر قصة ذي الخويصرة، وهما واقعتان، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله -: " ذَكَرَ كثيرٌ من أهلِ العلمِ أن هذه الآيةَ نَزَلَتْ في حرقوصَ بن زهيرٍ ذي الخويصرةِ التميميِّ رأسِ المنافقينَ. قالوا: وَجَدَ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم - يُقَسِّمُ مالاً فقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ اعْدِلْ؛ فإنك لَمْ تَعْدِلْ -قَبَّحَهُ اللَّهُ - وقِصَّةُ ذي الخويصرةِ معروفةٌ ثابتةٌ في الصحيحِ، ولكن الذي يظهرُ أن هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ من كبراءِ المفسرينَ أنها نازلةٌ في ذي الخويصرةِ، وإنما قُلْنَا إن الأظهرَ أنها نازلةٌ في غيرِه أن المعروفَ أن القسمةَ التي قال فيها حرقوصُ بنُ زهيرٍ التميميُّ المعروفُ بذي الخويصرةِ أصلُ الخوارجِ -قَبَّحَهُ وَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ - أن ذلك في قَسْمِ النبيِّ لغنائمِ حنينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يُصَرِّحُ اللَّهُ فيها بأنهم لَمَزُوهُ في قسْمِ الصدقاتِ وهي الزكواتُ والصدقاتُ غير الغنائم، فالأظهرُ أن الأصوبَ فيها هو ما قاله ابنُ جريجٍ -رحمه الله - وغيرُه أنها نَزَلَتْ في رجلٍ من الأنصارِ من المنافقينَ حَضَرَ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم - يُقَسِّمُ مالاً من الصدقاتِ فقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ، اعْدِلْ فإنك لم تَعْدِلْ -قَبَّحَهُ اللَّهُ - فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ فيه"[4].

وفي حاشية العذب النمير تعليقاً على كلام الشيخ الشنقيطي -رحمه الله -: " الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٥٥٦٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف.

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨١٥٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** [سورة المعارج:٤]، وقوله -جل ذكره -: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}** [سورة فاطر:١٠]، برقم (٦٩٩٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٣).

٤ - العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٥/٥٨١-٥٨٢).

الأولى: في قَسْم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: ((يا محمد اعدل)) كما في حديث جابر -رضي الله عنه -، عند البخاري (٣١٣٨) ومسلم (١٠٦٣).

الثانية: في قَسْمِ ذُهيبة بعث بها علي -رضي الله عنه - من اليمن والنبيُّ -صلى الله عليه وسلم - في المدينة، وقد قسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله: اتق الله... الحديث، كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريبًا، وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي، وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٩، وفيهما أيضًا التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٨): "تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين ووَهمَ من خلطها بها" اهـ.

وقال في (١٢/ ٢٩٣): "وقد ظهر أن المعترض في الموضعين واحد" اهـ".

ثم قال تعالى مُنَبِّها لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٦٠].

لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي -صلى الله عليه وسلم - ولمْزهم إياه في قَسْم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يَكِلْ قَسْمها إلى أحد غيره، فجزّأها لهؤلاء المذكورين.

وإنما قدم الفقراء هاهنا لأنهم أحوج من البقية -على المشهور -، لشدة فاقتهم وحاجتهم.

ورُوي عن ابن عباس -رضي الله عنهما -، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد، واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم.

قول ابن كثير -رحمه الله - هنا: **لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي -صلى الله عليه وسلم - ولمْزهم إياه في قَسْم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها، وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه**، هذا يسمى عند المفسرين علم المناسبة بين الآية والآية التي قبلها، ثم قال: **ورُوي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد....... إلى آخره**، وقال: **واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو**... هذا في الفرق بين الفقير والمسكين إذا ذكر المسكين منفرداً دخل في معناه الفقير، وإذا ذكر الفقير منفرداً دخل في معناه المسكين، بلا إشكال، لكن إذا ذكر الفقير والمسكين معا فهل هما بمعنى واحد أو أن المعنى يختلف؟

كثير من أهل العلم يقولون: هذا مما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني إذا اجتمعا في اللفظ الفقراء والمساكين افترقا في المعنى، صار الفقير له معنى والمسكين له معنى، و إذا افترقا يعني ذكر أحدهما اجتمعا يعني في المعنى، وخلاف العلماء في هذا كثير، ولا أعلم شيئا يمكن أن يحتج به يرفع هذا الخلاف، وكل طائفة تحتج لما ذهبت إليه ببعض الأمور التي تلتمسها، يقول هنا: اختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس، فهم مشتركون في الحاجة لكن على هذا القول قول ابن جرير، وقال به آخرون غير ابن جرير أيضاً، وهو منسوب لابن عباس وبه قال الإمام الأزهري اللغوي المعروف باعتبار أنهما مشتركان في الحاجة، واختار ابن جرير والأزهري أن حال الفقير أشد؛ لأنهما نظرا إلى معنى المسكنة قال: المسكنة هي الذل، مذلة، وهذا الذل أتاه من مد يده، فيذهب إلى هذا، ويقوم يتكلم بالمسجد، ويتبع هذا، ويطرق باب هذا، فيحصل له ذل بسبب ذلك، وهذا الذل هو المسكنة، فصار الذي يسأل ذليلاً والذي لا يسأل يكون متعففا وهو الفقير، يقول: **وقال قتادة: الفقير من به زمانة والمسكين صحيح الجسم** يعني يشتركان في الحاجة لكن جعل الفقير هنا أشد من المسكين، ليس بعكس القول الأول، فالقول الأول لا يقول: إن المسكين أشد، المسكين يذهب ويطوف ويسأل ويحصل، وهنا جعل الفقير أشد، باعتبار أن فيه إعاقة، والمسكين صحيح الجسم لكنه ما عنده شيء، الفقير والمسكين، وهذا لا دليل عليه، وبعض أهل العلم كابن قتيبة يقول: المسكين أشد حالاً من الفقير، فالفقير قد يجد بعض الشيء، ولكنه لا يكفيه، والمسكين لا يجد شيئاً فكأنه تمسكن من شدة الحاجة، ظهر ذلك عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقد يحتج هؤلاء ببيت من الشعر يقول:

أما الفقير الذي كانت حلوبته *** ....

إلى آخر البيت، يقول هذا عنده حلوبة فيسمى فقيراً، ومن يعكسون القضية ويقولون: الفقير أشد حاجة من المسكين يحتجون بقول الله تعالى: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}** [سورة الكهف:٧٩]، قالوا: عندهم سفينة ويؤجرون أو يشتغلون في البحر بالصيد، ولكنهم لا يحصلون كفايتهم، وإذا تأملت تجد أن هذه الاحتجاجات فيها نظر؛ لأنا قررنا في الأول أنه إذا ذكر أحد الاسمين دخل فيه الآخر، فقوله تعالى: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}** يعني معناه فقراء، وهكذا بيت الشعر هذا وإن كان لا يحتج به في هذا المعنى أصلاً، ولا يعرف هذا الشاعر، وما قيمة كلامه أصلاً حتى يرجح به بين الأقوال، **{لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ}** وكثير من السلف يفسرون ذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم -: ((ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان))[٥]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام -، فمثل هذا من الناحية العملية نحن نحتاج إلى أن نعرف أن الفقراء من مصارف الزكاة سواء كان يسأل أو لا يسأل، وهذا الذي يترتب عليه العمل، سواء كان يسأل الناس ويتعرض لهم أو يتعفف، والمتعفف أولى حينما نوازن، المتعفف أولى من غيره، يعني المصرف الواحد فيه أولويات حينما يقال مثلاً: **{وَالْغَارِمِينَ}** فأصحاب الديون يتفاوتون، فالذي لحقه دين وهو محبوس بدينه أولى من الطليق، ثم الذي لحقه دين بسبب التكثر يريد أن يكون تاجراً، ويستدين

---

٥ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [سورة البقرة:٣١]، برقم (٤٢٦٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يُفطن له فيتصدق عليه، برقم (١٠٣٩).

من أجل أن ينشيء مصانع، وينشئ ورشاً، ونحو هذا تكثراً، هو موظف وراتبه عشرة آلاف لكنه يستدين من هذا خمسمائة ألف، ومن هذا مليوناً، ومن البنك الفلاني خمسمائة؛ ليشتري مزرعة، ويشتري خمسين من الإبل، ويشتري مخبزاً، ويشتري محل منجرة، ومصنع ألمنيوم، ويركب سيارة قيمتها أربعمائة ألف، ثم بعد ذلك يتورط، فالعشرة الآلف لا تسدد، ويأتي ويطوف بورقة ويقول: يا جماعة أنا ركبتني الديون وأنا تعبت وأنا ما عاد أستطيع عجزت فمثل هذا لا يعطى من الزكاة، بخلاف من أصابته الديون في جائحة، أصابته الديون في أمور ضرورية من العلاج، أو من تحصيل قوت عياله، أو نحو هذا فمثل هذا أولى الناس بالزكاة.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية.

فأما "الفقراء"، فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((لا تحل الصدقة لغَنِيٍّ ولا لذي مِرَّة سَوِيّ))[٦] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

قوله: ((لا تحل الصدقة لغني)) وهذا معروف، ((ولا لذي مِرة سويٍّ)) يأتيك شاب عمره ثلاثين سنة ((ذي مرة)) أي قوي، و((سَويّ)) يعني ليس به إعاقة، سليم الأعضاء، ويأتي ويقول: أعطوني من الزكاة، لماذا لا تعمل؟ قال: ما وجدت عملاً! فمثل هذا ليس به بأس شاب نشيط، لا يُعطَى، وهو أيضاً لا يعذر بأخذها، لا تحل له صدقة التطوع إذا كان هو الذي يسأل، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم - أن المسألة لا تحل إلا لثلاثة، وهذا ليس منهم.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه -، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان))، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: ((الذي لا يجدُ غنًى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا))[٧]، رواه الشيخان.

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس -رضي الله عنهما - يسألان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ليستعملهما على الصدقة، فقال: ((إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس))[٨].

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني، برقم (١٦٣٧)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها، برقم (٢٥٩٧)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة، برقم (٦٥٢)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، برقم (١٨٣٩)، وأحمد في المسند، برقم (٦٥٣٠)، وقال محققوه: "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير ريحان بن يزيد العامري، وثقه ابن معين وابن حبان، وقال حجاج، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم وهو الراوي عنه سفيان: هو الثوري"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٢٥١).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [سورة البقرة:٣١]، برقم (٤٢٦٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه، برقم (١٠٣٩).

٨ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، برقم (١٠٧٢).

والعاملون عليها كم يعطون؟ ومن أين يعطون؟ من أهل العلم من قال: إنهم يعطون الثمن وهو قول الشافعي -رحمه الله-، باعتبارهم صنفاً من الأصناف الثمانية، فتقسم بالسوية فيعطون الثمن، وهذا فيه نظر، ويقابله قول من قال كالإمام مالك -رحم الله الجميع-: إنهم يعطون من بيت المال، وهذا فيه إشكال؛ لأن الآية صريحة في أنهم يعطون من الزكاة **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ...}**، هم يعطون من الزكاة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنهم يعطون من الزكاة بحسب عملهم، حسب ما يؤدون من العمل بما يصلح مما يليق، كما يقال: أجرة المثل، فيقدر لهم شيء من هذا يعطونه، والزكوات لا تقسم بالسوية إلى ثمانية أقسام، ولا يجب أن يستوعب بها الأقسام الثمانية، يعني عندك زكاة لا يجب أن تقسمها ثمانية أقسام وتعطي كل هذه الأصناف الثمانية، هذا الذي عليه عامة أهل العلم، بل نقل بعض أهل العلم الإجماع كالإمام مالك -رحمه الله- على أنه لا يجب استيعاب هذه الأصناف الثمانية، ولكن هذا الإجماع فيه إشكال؛ لأن من أهل العلم من خالف في هذا كالشافعي -رحمه الله- فإنه يرى أنها تستوعب، لكن ابن عبد البر -رحم الله الجميع- حمل قول الإمام مالك على أن ذلك من إجماع الصحابة: أنه لا يجب الاستيعاب، وهذا الذي دل عليه القرآن والسنة، فمن تأمل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً في حديث معاذ -رضي الله عنه- لما بعثه إلى اليمن: ((تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم))[٩] فذكر صنفاً واحداً، واعتذار النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: إن خالد بن الوليد منع زكاة ماله، وبين لهم أمراً وهو أنه حبس أدْراعَه وأعْتادَه، وفي رواية: ((وأعْتادَه في سبيل الله))[١٠]، فمن أهل العلم من فسر هذا بأنه احتسب الزكاة في هذا الذي احتبسه في سبيل الله على هذا التفسير، وهو أحد الأقوال في معناها ويحتج به على أن الزكاة تصرف في مصرف واحد، يمكن هذا، فجعلها في سبيل الله وهو الجهاد، فلا إشكال في أن تصرف الزكاة في باب من هذه الأبواب، والله تعالى أعلم.

٩ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (١٣٣١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٦٠ إلى الآية ٦٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى - في تعداد أهل الزكاة: **وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يُعطَى ليُسلم، كما أعطى النبي -صلى الله عليه وسلم - صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركا، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: "أعطاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إليّ"[1]، ورواه مسلم والترمذي.**

ومنهم من يُعْطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطَى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، مائة من الإبل وقال: ((إني لأعطي الرجل وغيرُه أحبُّ إليّ منه، مخافة أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جهنم))[2].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد -رضي الله عنه -: أن عليا بعث إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - بذُهَيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيد الخير، وقال: ((أتألّفهم))[3].

ومنهم من يُعطَى لمَا يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطَى ليَجبِي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن أسلم ولم يثبت إسلامه فإنه يعطى الزكاة لتثبيت الإسلام في قلبه، أو لكف شره أحياناً عن المسلمين سواء كان من المسلمين أو كان من غيرهم، وعمر -رضي الله تعالى عنه - لم يعطهم، وبين علة ذلك أن الله -عز

---

١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧٦٣٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - شيئا قط فقال لا، وكثرة عطائه، برقم (٢٣١٣)، غير أنه قال غزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - غزوة الفتح فتح مكة، ورواية أحمد أنها غزوة حنين، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم، برقم (٦٦٦)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٤٨٢٨).

٢ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: **{لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}** [سورة البقرة:٢٧٣]، وكَمْ الغنَى، برقم (١٤٠٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألُّفِ قلبِ من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، برقم (١٥٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** [سورة المعارج:٤]، وقوله -جل ذكره -: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}** [سورة فاطر:١٠]، برقم (٦٩٩٥).

وجل - قد أعز دينه فلم يعد بحاجة إلى أحد، وعلى هذا مشى جماعة من أهل العلم كالشعبي من التابعين، وهو مذهب الإمام مالك وأصحاب الرأي، وهذه مسألة ترجع إلى السياسة الشرعية؛ لأنه لا يجب استيعاب هذه الأصناف، فيمكن أن يستغني عن هؤلاء في وقت من الأوقات يكون الدين فيه قويًّا، وظهر فلا يعطون، ولكن ليس معنى ذلك أن نصيبهم قد ارتفع، فلا يوجد دليل على النسخ، وإنما غاية ما هنالك أن عمر -رضي الله تعالى عنه - رأى في وقته أن هؤلاء الآن لا حاجة إليهم، فإذا احتيج إلى مثل هذا فإنهم يعطون، و رفْعُ عمر -رضي الله تعالى عنه - لها ليس من تغيير الأحكام الشرعية، فإنه -رضي الله عنه - لم يغير حكماً أنزله الله -تبارك وتعالى -، وإنما رأى أن هؤلاء لا يعطون فقط، لا أنه غير الحكم، يعطون في وقت ضعف المسلمين، في وقت الحاجة، وفي وقت عمر كان الدين أعز ما يكون، وأقوى ما يكون، فإذا احتيج إلى هذا أُعطوا وللأسف إن مثل هذه القضية احتج بها الملبسون الذين ينادون بتجديد الدين بطريقتهم، وهو تغيير شرائع الإسلام، فيقولون: عمر ألغى سهم المؤلفة قلوبهم، فهم يريدون أن يلغوا جملة من شرائع الإسلام التي لا تروق لهم، ويريدون أن يقرءوا القرآن كما يقولون بطريقة جديدة معاصره بعيداً عن فهم السلف، ويقولون: لسنا متعبدين بفهم السلف، فهؤلاء يريدون مسخ الدين، ولهذا بعضهم رأى إسقاط الحدود الشرعية أصلاً وإلغاء حكم الردة!! وهلم جرا، وإذا تولى الإنسان إعطائها -إعطاء الزكاة - بنفسه، فالذين قالوا بأن المؤلفة قلوبهم لم يعد هنالك حاجة إليهم لمّا كثر الإسلام وانتشر، يقولون: يقسمها على ستة!! بحيث إنه يُسقط السعاة؛ لأنه هو الذي قدمها بنفسه، ما يعطي العاملين عليها، وهؤلاء الذين من المؤلفة قلوبهم.

وأما الرقاب: فرُوي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنَّخعي، والزهري، وابن زيد: أنهم المكاتَبون، وروي عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه - نحوه.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما -، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، أي: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالا.

وقد ورد في حديث مرفوع أن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، {وَمَا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٣٩].

هنا يقول: **قال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة**، يعني "وفي الرقاب" هل المراد به أن تشتري عبداً وتعتقه؟ أو أن المراد المكاتب؟، والمكاتب هو العبد أو الأمة الذي يتعاقد مع سيده على أن يصير حراً إذا دفع له قدراً من المال يتفق معه عليه ويكون منجماً بأقساط، فيقول له مثلاً: تدفع لي عشرة آلآف، كلَّ شهر ألفاً ثم بعد ذلك تكون حراً، فيمكّنه من العمل من أجل أن يكتسب ثم بعد ذلك يؤدي إليه الكتابة، فهل المراد بـــ "الرقاب" هذا أو المراد بـــ "الرقاب" كما قال ابن عباس والحسن بأنه العتق؟، والقول بأنه هو العتق قال به جماعة غير ابن عباس، كابن عمر من الصحابة، وهو مذهب الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، والذين قالوا بأنه المُكاتَبة مثل عمر بن عبد العزيز وهو مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة، وهو اختيار ابن جرير، قالوا: إن الرقاب هم المكاتبون؛ لأن الزكاة تنتقل من الغني للفقير، وقالوا: هي في المكاتبين وليس في اشتراء الأرّقاء وإعتاقهم؛ لأنهم نظروا إلى قضية وهي أن الرقيق إذا اشتراه وأعتقه يترتب عليه الولاء لمن أعتق، وهذا نفعٌ يرجع إلى المُعتِق، قالوا: فالزكاة يبذلها ولا يرجع إليه نفع من جراء ذلك، وهذا كيف يتحقق في

المكاتب؟، المكاتب حينما يعتق لو جاء أحد وساعده في مال المكاتبة ما يكون الولاء للذي ساعده، فقالوا: الزكاة لا يرجع نفع من جرائها للمزكي، فإذا أعتق الرقبة صار له الولاء، وهذا نفع، والأقرب -والله أعلم- أن الرقاب يشمل هؤلاء جميعاً، يشمل الأرقاء الذين يُشترون ويعتقون، ويشمل المكاتب لقوله تعالى: {وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}، وأيضاً يشمل الأسارى إطلاق الأسير -فك الأسير- فإنه يعطي من الزكاة.

وفي المسند عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار، فقال: ((أعتق النسَمة وفك الرقبة))، فقال: يا رسول الله، أوَليسا واحداً؟ قال: ((لا، عتق النسمة أن تُفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها))[٤].

وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قَبِيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسأله فيها.

تحملت حمالة يعني لو جاء بين طائفتين بينهم شر وقتال ونزاع فأصلح بينهم وقال لهم: القتلى عليّ ديتهم، والجراح وكذا أنا أتحملها بعروشها، فركبه من جراء هذا ديون، وهو ما عنده، وقد يكون عنده مال فيعطَى من الزكاة ولو كان غنياً، يعني لو أن أحداً من الناس عنده ملايين وجاء وتحمل حمالة بين طائفتين حصل بينهم قتال وتحمل الديات يعطى من الزكاة.

فقال: ((أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها))، قال: ثم قال: ((يا قَبِيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش -أو قال: سدادًا من عيش- ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثةٌ من ذوي الحِجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواما من عيش -أو قال سدادا من عيش- فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتا))[٥] رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: أصيب رجل في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ثمار ابتاعها، فكثر دينْه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- تصدقوا عليه، فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لغرمائه: ((خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك))[٦] رواه مسلم.

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان.

بالنسبة للغارمين ومن ركبته الديون فالأولى بذلك أن لا يكون هذا على سبيل التوسع والسفه في التصرف بالمال، ثم يعطى من الزكاة، فإن هذا لا يعطى، ولو فتح هذا المجال للناس كل الناس سيكونون من الغارمين، يذهب ويقترض من البنوك ومن غير البنوك، ويركب ما يشاء من المراكب، ويسكن ما يشاء من القصور

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٦٤٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٧٤).

٥ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، برقم (١٠٤٤).

٦ - رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين، برقم (١٥٥٦).

ويقول: أنا من الغارمين أعطوني من الزكاة، فهذا لا يعطى، و{فِي سَبِيلِ اللّهِ} هذا هو المشهور أن سبيل الله هو الجهاد وهذا لا شك فيه، لكن من أهل العلم من وسع المراد بذلك فأدخل الحج والعمرة في سبيل الله، وهذا قال به ابن عمر -رضي الله عنه- وكان الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه يقولان: إن الحج في سبيل الله داخل في هذا الحد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لما سألته عائشة -رضي الله عنها- عن الجهاد للنساء قال: ((عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة))[٧]، فسماه جهاداً، فبهذا الاعتبار قال بعض أهل العلم بأن الإنسان يعطى للحج، وعلى هذا القول ليس معنى ذلك أن يكون هذا مقدماً ويبدأ الناس يجمعون الزكوات من أجل أن يُحجِّجوا من لا يستطيع الحج! وهناك ما هو أولى من هذا بكثير، فهؤلاء الناس أصلاً قد أسقط الله عنهم الحج، وهم معذورون، {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [سورة آل عمران:٩٧] فالذي لا يستطيع أن يحج فإنه لا حاجة به إلى أن يأخذ من الزكوات ليذهب إلى الحج، وهناك مصارف معطلة هي أحوج ما تكون إلى هذه الزكوات، والله تعالى أعلم.

و ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه، والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد، -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تحل الصدقة لغنيّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكين تُصُدِّق عليه منها فأهدى لغنيّ))[٨].

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ابن السبيل يشمل من أراد أن ينشئ سفراً وليس معه شيء، يعني هذا ليس على إطلاقه، فلو أن أحداً في بلده وأراد أن يذهب ويسافر ليتنزه يبغي يسافر للسياحة في الأجازة هو وأولاده ويقول: أنا ما عندي أعطوني من الزكاة!! يقال له: لا تحل لك الزكاة، لكن يكون هذا في حالات يكون سفره فيها تدعو إليه الحاجة التي تنزل منزلة الضرورة، أو للضرورة، ولو أن أحداً من الناس يريد أن يسافر للعلاج مثلاً وليس عنده ما يكفيه للسفر، ليس عنده قيمة التذكرة ما عنده شيء فإنه يعطى من الزكاة، ولو أن أحد هؤلاء العمال جاء وجلس شهراً واحداً ثم أراد أن يرجع إلى بلده لمرض أو لأي سبب من الأسباب، فقال له صاحب العمل: أنت لم تجلس المدة التي تعاقدنا عليها فأنت لابد أن تتحمل التذكرة تشتريها من مالك!! والرجل ما عنده شيء ومضطر أن يسافر فإنه يعطى من الزكاة، وهكذا من فقد ماله في السفر، أو أن النفقة قد قصرت انتهت، فإنه يعطى ما يصلح لمثله، ولو كان غنياً في بلده، والمقصود أنه لا يستطيع

---

٧ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، برقم (٢٩٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٣٢٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٣٠٧٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل، (٤/١٥١)، برقم (٩٨١).

٨ - رواه ابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من تحل له الصدقة، برقم (١٨١٤)، وأحمد في المسند، برقم (١١٥٣٨)، قال محققوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين لكن اختلف في وصله وإرساله، وصحح الموصول ابن خزيمة والحاكم والبيهقي وابن عبد البر والذهبي وعلى فرض إرساله يتقوى بعمل الأئمة ويعتضد، ورجح المرسل الدارقطني وابن أبي حاتم.

أن يتوصل إلى ماله، أما اليوم فيمكن عن طريق البنوك، أو الحوالات، فإذا كان يستطيع أن يتوصل إلى ماله فلا يعطى لكن إذا كان لا يستطيع فإنه يعطى ولو كان غنياً في بلده، ولا يكون ذلك على سبيل الإقراض والدين، يعطى ما يصلح لمثله، فينقل بالوسيلة التي ينتقل بها عادة، ويسكن ويأكل مما يسكن فيه ويأكله عادة في بلده فقد يكون لا يركب ولا يسكن إلا في أرقى الأماكن فيعطى ما يصلح لمثله؛ لأن المسلم تحفظ له كرامته، فهؤلاء يعطون من مال الزكاة، ويعطون من الفيء، ويعطون من الغنيمة، فإن لم يوجد شيء من هذا يعطون من بيت مال المسلمين، ولو وَجد أحداً يقرضه فإنه يعطى، وقد قال الإمام مالك -رحمه الله-: إنه إن وجد من يقرضه فإنه لا يعطى، وهذا الآية ظاهرها العموم -والله أعلم-، **{وَابْنِ السَّبِيلِ}** [سورة التوبة:٦٠] لماذا سمي بابن السبيل؟ نسب إلى الطريق؛ لملازمته لها، **{وَابْنِ السَّبِيلِ}** كما يقال للطائر المعروف: ابن الماء؛ لملازمته للماء، ولا زال الناس يعبرون بمثل هذا يقولون: فلان طرقيّ يعني على سفر، مسافر، ابن السبيل نسبوه هنا إلى الطريق.

وقوله: {فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ} أي حكما مقدرا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، {حَكِيمٌ} فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٦١].

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- بالكلام فيه ويقولون: {هُوَ أُذُنٌ} أي: من قال له شيئا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا.

{أُذُنٌ} يعني أن من جاءه قَبِل منه، يصدق ويقبل مِن كل من حدّثه، فالعرب تعبر بذلك على سبيل المبالغة، فسموه "أذناً" كأنهم سموه بالجارحة التي يسمع بها وهي الأذن، كما يقال للجاسوس: إنه عين فأطلقوا على هذا اسم الجارحة، فأُذن للمبالغة، وهم يقصدون الإساءة أنه يقبل ويصدق كل من جاء إليه وكلمه، **{هُوَ أُذُنٌ}** فيسمع فينا وإذا أتيناه أيضاً قبِلَ منا.

روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، قال الله تعالى: {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب.

يعني كأنه قال نعم هو أذن، ولكن نعْم الأذن هو لكم، هو**{أُذُنُ خَيْرٍ}** يعني يسمع ما فيه صلاحكم ونفعكم، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يحدثوه عن أحد من الصحابة بشيء يكرهه، وعلل هذا أنه يحب أن يخرج إلى أصحابه وليس في قلبه شيء على أحد منهم فـ **{قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ}** بمعنى أنه خير للمؤمنين ويسمع ما فيه النفع لهم ويؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين، يصدقهم، وأما الكفار والمنافقون فإنه لا تنطلي عليه أكاذيبهم.

{يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: ويصدق المؤمنين، {وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} إذاً لا يصدق المنافقين والكافرين {وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ}، وأما الكافر فهو -صلى الله عليه وسلم- نبي الملحمة، هذا على قراءة الجمهور برفع {وَرَحْمَةٌ} وقرأ حمزة بالجر فيكون هكذا {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٍ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ} يعني: أذن خيرٍ ورحمةٍ، والمعنى واضح على هذه القراءة.

{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٦٢-٦٣].

الضمير هنا مفرد يقول: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} ذكر شيئين وأعاد الضمير مفرداً، وهذا أسلوب من أساليب العرب، والعلماء يجيبون عن هذا يبينون وجه هذا ويعللونه بتعليلات مختلفة فهنا منهم من قال بأنه أعاد الضمير إلى الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} تفخيماً وتعظيماً للجناب الإلهي، وبعضهم يقول: لأن إرضاء النبي -صلى الله عليه وسلم- تابع لإرضاء الله -عز وجل-، فأفرد الضمير، وبعضهم يقول: هذا من باب حذف ما يعلم والاكتفاء بذكر أحد الأمرين استغناءً به عن الآخر وما أشبه هذا، نقول: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:٦٢] يعني والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، مثل: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] يعني والبرد، و{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة:١١] إنما أعاد الضمير للتجارة؛ لأنها هي المقصود أو غير ذلك، {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا} [سورة التوبة:٣٤]، ولم يقل: ينفقونهما، إما أن يكون المراد الأموال أي ينفقون الأموال كما سبق، أو الفضة باعتبار أنها الأغلب في الاستعمال والتداول عندهم أو غير ذلك، فهنا: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} فمثل سيبويه والنحاس يقولون: إن المعنى هكذا "والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك"، يعني يكون فيه مقدر محذوف في باب الترجيح، والأصل عدم التقدير يعني مهما أمكن أن نتلافى التقدير فهو مطلوب، وهو أولى، ومن أهل العلم من يقول: {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} يعني الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأن قوله: {وَاللّهُ} استفتاح كلام، للاستفتاح، وهذا لا يظهر، والله أعلم.

قال قتادة في قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ} الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإنْ كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟، فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله -عز وجل- الآية.

هذه الرواية عن قتادة وهي من قبيل المرسل، وهو من أقسام الضعيف

وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...} الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ {فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا} أي: مهانًا معذبا؟، {ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

قوله هنا في المحادة قال: **وكان في حدٍّ والله ورسوله في حدٍّ**، هذا أصل المعنى اللغوي المحادة تكون بين طرفين فأكثر، كما يقال في المشاقّة: هذا في شق وهذا في شق، والعداوة أن يكون هذا كأنه في عُدوة، وهذا في عُدوة، شق الوادي هذا أصلها، والمقصود بالمحادة هي الإعراض عن دين الله -عز وجل- والكفر ومحاربة أوليائه، كل هذا من محادة الله -تبارك وتعالى.

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} **[سورة التوبة:٦٤].**

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا.

بمعنى أنّ "يحذر" هذا خبرهم أنهم حذرون من تنزل سورة تفضحهم هذا هو الراجح، وهو المتبادر، وأنه من قبيل الخبر خلافاً لمن قال: إن هذا صيغة الخبر وهو مضمن معنى الإنشاء يعني بمعنى الأمر ليحذرْ.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة المجادلة:٨].

هذه الآية الثانية هي في اليهود لكن وجه الإرتباط وجه الشبه أن المنافقين يحذرون في أنفسهم أن تنزل سورة تفضحهم، واليهود حينما كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم- السام عليك **{وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ}** يحتمل معنيين أن الواحد يتلجلج في نفسه، يقول في نفسه: إن هذا لو كان نبياً لاستجيب له فيما يقول: وعليك، فدعاؤه علينا يستجاب، وكذلك قولنا له: السام عليك لو كان نبياً لعذبنا الله -عز وجل- بما نقول، ويحتمل أن **{وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ}** يعني فيما بينهم، فإن المجتمعين على أمر ينزلون منزلة النفس الواحدة كقوله تعالى: **{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ}** [سورة النساء:٢٩]، **{فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}** [سورة البقرة:٥٤]، **{وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}** [سورة النساء:٢٩].

وقال في هذه الآية: {قُلِ اسْتَهْزِءُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} إلى قوله: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [سورة محمد:٢٩-٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة "الفاضحة"، فاضحة المنافقين.

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [سورة التوبة:٦٥-٦٦].

عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تَنكُبُه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون...} الآية.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّن بن حُميّر.

الصواب: يقال له: مخشي بن حمير.

ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّي بن حُميّر يشيرون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مُقَرّنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُخَشّي بن حُمَيّر: والله لوددتُ أني أقاضي على أن يُضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - لعمار بن ياسر: أدرِك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم - واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مُخَشّي بن حُمّير: يا رسول الله، قَعدَ بي اسمي واسمُ أبي، فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُخَشّي بن حُمّير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[٩].

وقوله: {لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به.

يعني {بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} هم كفار في الباطن والمقصود هنا بعد الإيمان الذي ادعيتموه وأظهرتموه، لم يكونوا مؤمنين وإن كان من أهل العلم من قال: إن بعض هؤلاء كانوا مؤمنين من ضعفاء الإيمان فكفروا بسبب هذه المقالة لكن لا حاجة لهذا.

{إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً} أي: لا يُعْفى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم، {بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

الطائفة الواحد فما فوق.

ثم إن هؤلاء استهزءوا بأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم -، أو ببعض أصحابه قالوا هذه الكلمة، قالوا: كنا نقول هذا من باب قطع الطريق والمؤانسة ونحو هذا، ما وجدوا شيئاً يضحكون ويتسلون به، ويهون عليهم بُعد الطريق إلا الاستهزاء بهؤلاء القراء فكانت هذه هي النتيجة **{قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}**، وللأسف ابتلينا في هذا الزمان بشرذمة تستهزئ بالله ورسوله وبالمؤمنين، وفي أفضل أيام العام في شهر رمضان والناس على الإفطار جعلوا ديدنهم الاستهزاء من شرائع الإسلام، ومن المتمسكين به، وممن يمثلونه، تارة يستهزئون بالعالِم!! يأتون بالعالم يفتي الناس أن هذا حرام وهذا لا يجوز ثم يأتون به مع طلابه وهو يقول لهم: إنما نقول هذا فقط من أجل ضبط الناس، وإلا لا يوجد عليه دليل!! وهذه لا يمكن أن يأتي بها إلا واحد ناكص على عقبيه، خالط العلماء وعرف أن بعض المسائل تقال من باب الأحوط، ومن باب سد الذريعة، لا يمكن أن يأتي بها -أبداً لا يمكن أن يعرف هذه- إلا واحد نكص على عقبيه، ويأتون يستهزئون بالغيرة على

---

٩ - انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٥٢٤).

الأعراض، ويُظهرون الرجل مع أهله –الظاهر - في بريّة، واضعاً السيارات من جميع الجهات ومعه منظار يدور، لا يكون هناك أحد من بعيد يراهم مع هذا كله!! يستهزئون بالغيرة ليضحك الناس من هذا، ومن هؤلاء أهل الدين ويستهزئون بالقضاة، ويعرضون قاضياً عليه نظارة عريضة جداً، ولحيته مبعثرة، والشِّماغ على جنب، والطاقية وهكذا ثم يقرأ، وقبل أن يسمع كلام الخصم يقول: عليك كذا جلدة، فيقول له: ذاك ما سمعتَ مني؟ فيقول: عليك مثلها!! يستهزئون بالقضاة، والقضاء في أي مكان في العالم هو ركن من أركان النظام، يعني الحُكم يستهزءون به، وهكذا من ألوان الاستهزاء للأسف في شهر رمضان، والآيات شديدة وقوية: **{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** فالذي يريد أن يلعب ويستهزئ يذهب يلعب أي لعبة أخرى أما أن يلعب بالدين ويستهزئ بأهل الدين وبالعلماء وبالقضاة وكذا فهذا أمر لا يمكن أن يفعله إنسان مؤمن بالله واليوم الآخر أسأل الله أن يقطع هذه الألسنة ويريحنا منهم.

تكاثرت الكلابُ على خراشٍ *** فما يدري خراشٌ ما يصيد

فمنهم من يكتبون في الصحف ويبثون سمومهم والذين يظهرون في قنوات السحر، وكلٌ ينهش من جهة، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٦٧ إلى الآية ٧٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [سورة التوبة:٦٧ -٦٨].

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء {يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} أي: عن الإنفاق في سبيل الله، {نَسُوا اللَّهَ} أي: نسوا ذكر الله، {فَنَسِيَهُمْ} أي: عاملهم معاملة مَن نسيهم، كقوله تعالى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [سورة الجاثية:٣٤]، **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.**

وقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، {هِيَ حَسْبُهُمْ} أي: كفايتهم في العذاب، {وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ} أي: طردهم وأبعدهم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} قال: **أي نسوا ذكر الله**، {نَسُوا اللَّهَ} يمكن أن يحمل هنا على ما ذكره المصنف -رحمه الله-: **نسوا ذكر الله** أي ذكره بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر، وإذا حُمل على هذا المعنى فلا إشكال فيه، فمن نسي الله بقلبه بمعنى أنه لم يؤمن به ولم يستحضر عظمته، وما يليق به، ولم يتوكل عليه، ولم يقم في قلبه من الأمور الواجبة في الإيمان فضلاً عن الأمور المستحبة، فالخوف والرجاء والمحبة والتوكل منه قدر واجب، فهؤلاء نسوا الله بقلوبهم فلم يراقبوه ولم يخافوه ولم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه {فَنَسِيَهُمْ} وكذلك أيضاً نسوه بجوارحهم فلم يعبدوه ونسوه بألسنتهم فلم يذكروه، فهذا المعنى بهذا الاعتبار لا إشكال فيه إذا فهم من هذه العبارة هذا العموم، وإلا فإنه يمكن أن يعبر عن هذا فيقال: {نَسُوا اللَّهَ} أي: تركوا الإيمان به وأعرضوا عن عبادته بالقلب واللسان والجوارح بهذه الأمور، والمقصود بالنسيان هنا الترك؛ لأن النسيان في كلام العرب يأتي لمعنيين:

المعنى الأول: ذهاب المعلوم من الذهن، قد يكون الإنسان عَلِم شيئاً أو حفِظه ثم بعد ذلك ينساه.

ذهابُ ما عُلِمَ قُل نسيانُ *** والعلمُ في السهوِ له اكتنانُ

فالسهو يكون الشيء موجوداً في ذهن الإنسان لكنه يصيبه شيء من الذهول عنه فقط، وإلا فهو متيقَّن عنده تقول: سهوت عن هذا الشيء، بخلاف نسيه إذ نسيه انمحى من الذهن، فالنسيان يأتي بمعنى الترك، ويأتي بمعنى ذهاب المعلوم من الذهن، فهنا المقصود بالنسيان {نَسُوا اللَّهَ} يعني الترك تركوا الإيمان، تركوا العمل بطاعته، هذا أيضاً كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الحشر: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، وقوله هنا أيضاً: {فَنَسِيَهُمْ} قال: **أي عاملهم معاملة مَن نسيهم**، بمعنى تركهم، ويمكن أن يقال هنا مباشرة: إن النسيان المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- دائماً هو الترك، هو بمعنى الترك -المعنى الآخر للنسيان- وليس هذا من قبيل المجاز، وإنما هو حقيقة، والله -تبارك وتعالى- لا يضل ولا ينسى {لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [سورة طه:٥٢]، فالله منزه عن النسيان الذي هو ذهاب المعلوم، وهو سبحانه: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق:١٢]، فيكون المعنى هنا {فَنَسِيَهُمْ} أي تركهم فلم يشملهم برحمته، ولم يدخلهم جنته، وتركهم في العذاب يخلدون لا يخرجون منه أبداً، كما قال -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [سورة الأعراف:٥١]، ينساهم في النار يعني يتركهم في النار لا يخرجون منها {جَزَاء وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦]، والفاء هنا تدل على التعليل {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} وهي تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهذا الذي يسميه الأصوليون بدلالة الإيماء والتنبيه، بعضهم يقول: إن هذا من باب المشاكلة {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} لا حاجة لهذه المشاكلة، المشاكلة عندهم نوع من المجاز عند كثير من أهل البلاغة، ولا حاجة لهذا، وليس من باب المشاكلة، والنسيان بالمعنى الذي ذكرته لا إشكال في إضافته إلى الله -تبارك وتعالى-، وهكذا قوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} فلاحظ المؤكدات هنا "إنّ" بمنزلة إعادة الجملة مرتين {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ} الفصل بضمير الفصل بين طرفي الكلام يفيد تقوية النسبة.

نسبة الصفة للموصوف أو الموصوف للصفة ودخول "ال" على "الفاسقين" {هُمُ الْفَاسِقُونَ} يشعر بأن هؤلاء قد استحقوا من هذه الصفة الأكملَ منها كأنه لا فاسق إلا هؤلاء، وكل ما مر عليك في القرآن بهذه الطريقة {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة البقرة:٢٥٤] وأشباه ذلك فهو من هذا الباب، والله أعلم.

{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة التوبة:٦٩].

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب مَن قبلهم، وقوله: {بِخَلَاقِهِمْ} قال الحسن البصري: بدينهم، {كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} أي: في الكذب والباطل.

هنا {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً} باعتبار أن الخطاب هنا للمنافقين، {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} فهنا يقول: العمل نفس العمل، وما ذكره من كونهم أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً هذا وصف غير مؤثر بالنسبة للعقوبة، يعني السبب الجالب للعقوبة في الطائفتين: المتقدمة، ومن ضاهاها أي الطائفة المتأخرة هو الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لكن حينما أقصد أنه وصف غير مؤثر أي في

باب القياس في أصول الفقه، أما من ناحية المعنى فإذا كان أولائك مع كثرة أموالهم وقوتهم، ومع ذلك حلت بهم نقمة الله -عز وجل- وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فأهلك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وفرعون والمؤتفكات كل هؤلاء فإن أخذه لهؤلاء أيضاً يكون أمراً متحققاً، أو فحينما نقول وصف غير مؤثر أي في باب العلة في القياس، أوصاف غير مؤثرة يعني في تحقق المعنى أو في وقوع الحكم، ومعنى وصف غير مؤثر من الناحية التفسيرية، من ناحية العلة التي أوجبت وقوع هذا، هل هم لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً؟ أو لأنهم استمتعوا بخلاقهم وخاضوا بالباطل؟ هذا هو السبب {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} **يقول هنا: قال الحسن البصري: أي بدينهم**، الخلاق أصله بمعنى النصيب، والحظ كأنه يعني الشيء الذي خلق للإنسان فصار خلاقاً، والنصيب كأنه الشيء الذي نصب له، والقدر كأنه الشيء الذي قدر له، فخلاقه أي حظه ونصيبه، {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} يعني استمتعوا بحظهم من الدنيا وتمتعوا بألوان اللذات وكانت لذاتهم أكمل من لذات هؤلاء المنافقين لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً والأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا، فهذا معنى الاستمتاع بالخلاق استمتعوا بنصيبهم، وابن جرير -رحمه الله- يضيف إلى نصيبهم من اللذات والدنيا يضيف أيضا الاستمتاع بنصيبهم من دينهم الباطل، لكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن هذه الآية تضمنت أمرين من معافسة الباطل ومواقعته التي أوجبت العذاب وهما: الولوج والإغراق في الشهوات والأمر الثاني الخوض في الشبهات بالباطل فقوله: {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ} يعني في باب الشهوات تمتعوا بألوان اللذات وعافسوا ما عافسوا من حظوظ النفوس، ومطلوباتها، قال هنا: {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ} حذو القذّة بالقذّة شابهتموهم في هذا {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} وهنا هذا باب الشبهات وابن كثير -رحمه الله- هنا **يقول: أي في الكذب والباطل** {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} بالتكذيب والكفر والاستهزاء بالرسل -عليهم الصلاة والسلام- وبالكتاب الذي أنزله عليكم، أو في أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- خضتم وقلتم كذاب وساحر وما شابه ذلك {وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} فيكون الأول في الشهوات والثاني في الشبهات، فيكونون جمعوا بين طرفي الضلال الشهوة والشبهة، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وشرحه في عدد من كتبه كإغاثة اللهفان وإعلام الموقعين.

{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} **أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة** {فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

بالنسبة للحبوط قال هنا **بطلت**، وأصله من حبطت الدابة يعني أكلت حتى بشمت، ثم بعد ذلك ماتت كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإنّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ))[1] يقارب الدابة يعني وهي تأكل كثيراً فينتفخ بطنها ولا تستطيع أن تصرف هذا الذي أكلته فتموت.

لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} **هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه**

---

١ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٠٦٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (١٠٥٢).

قال: ((والذي نفسي بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبٍّ لدخلتموه))[2].

قوله: **بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: ((والذي نفسي بيده...))** يعني شبهنا بهم بالحديث، وإلا فالآية أعم من بني إسرائيل، **{وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا}** كما جاء في الآية التي بعدها من تسمية هؤلاء الأقوام من قوم نوح ومن بعدهم.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((والذي نفسي بيده، لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وباعا بباع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه))، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: ((فَمَهْ؟))[3]**، وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.**

تكلم شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم فذكر نحو عشرة أوجه أو عشر صور من مشابهة هذه الأمة لبني إسرائيل، في موضع واحد ذكرها، وفي أواخر الكتاب ذكر صوراً أخرى.

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة التوبة:٧٠].

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل {قَوْمِ نُوحٍ} وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح -عليه السلام -، {وَعَادٍ} كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا -عليه السلام -، {وَثَمُودَ} كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا -عليه السلام -، وعقروا الناقة، {وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ} كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني -لعنه الله -، {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ} وهم قوم شعيب -عليه السلام -، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، {وَالْمُؤْتَفِكَاتِ} قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي "سدوم"، والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا -عليه السلام -، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

ويمكن أن يكون **{وَالْمُؤْتَفِكَاتِ}** يعنى القرى، وهي مجموعة من القرى، فعُبر عنها بالجمع وعبر عنها بالإفراد، فبالنظر إلى مجموعها يقال: مؤتفكات، قرى مؤتفكة، والإفك أصله القلب، ومنه الإفك: قلب الحقيقة، الكذب الفج الذي لا أساس له، يعني لا شبهه فيه، قد يلتبس الأمر على الإنسان، فيعبر بغير الحق، فيتكلم بغير الحق لكن إذا كان الشيء مختلقاً لا أساس له فهذا إفك **{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ}** [سورة النور:١١] فالمؤتفكات: المنقلبات باعتبار أنها رفعت وقلبت ثم بعد ذلك أُتبعوا بالحجارة **{الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ}** [سورة الفرقان:٤٠].

---

٢ - رواه البزار في مسنده، برقم (٨٤١١)، وأصله في مسلم كما سيأتي في الحاشية التالية.

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٣٤٠)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ، فمن رجال مسلم"، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سَنن اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩).

{أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل القاطعات، {فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:٧١].

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))، وشبك بين أصابعه"[٤]، وفي الصحيح أيضا: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[٥].

وقوله: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، كقوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران:١٠٤].

وقوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، {وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، {حَكِيمٌ} في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، -تبارك وتعالى.

بمعنى أن التعقيب هنا ختَمَ الآية بقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} يعني قد يقال: إن المتبادر {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فمقتضى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ذلك لا يختص بهذه الجزئية {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} وإنما يرجع إلى ما سبق، فالله -تبارك وتعالى- {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، وهكذا أيضاً وعد المؤمنين {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...} فهذا كله بمقتضى عزته وحكمته، فعزته -تبارك وتعالى- أي بمعنى أنه الغالب القاهر، الذي يفعل ما يشاء، و حكيم حيث يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، ففعل هذا بالمنافقين والكفار، وفعل هذا بالمؤمنين، وقوله هنا: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ} الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي من جملة طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذا من باب عطف العام على الخاص، فذِكرُ بعض أفراد الخاص وتخصيصه قبل العام أو بعده يكون لنكتة، كبيان أهميته مثلاً، كقوله -تبارك وتعالى-: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [سورة البقرة:٢٣٨]، فهنا عطف الخاص على العام، وقوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}

٤ - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، برقم (٢٣١٤).

٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (٢٥٨٦).

[سورة البقرة:٩٨]، فهذا من باب عطف الخاص على العام و{مَا بَيْنَ أَيْدِينَا} [سورة مريم:٦٤]، أما هنا فهو من باب عطف العام على الخاص.

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٧٢].

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبدا، {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً} أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[٦].

وبه قال -رضي الله عنه-: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَةَ من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفَة، طولها ستون ميلا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضا))[٧]، أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها))، قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: ((إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن))[٨].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة))، قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: ((أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو))[٩].

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المُدِلَّة، عن أبي هريرة، -رضي الله عنه- قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: ((لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها

---

٦ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٠).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٨)، ومسلم -واللفظ له- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، برقم (٢٨٣٨).

٨ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [سورة هود:٧]، {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة التوبة:١٢٩]، برقم (٦٩٨٧).

٩ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣٦١٢)، وأحمد في المسند، برقم (٧٥٩٨)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٧٦٧).

المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه))[١٠].

بعض أهل العلم يقول: إن **{جَنَّاتِ عَدْنٍ}** بمعنى جنات إقامة، وبعضهم يقول: إن هذا يعني به وسط الجنة، وبعضهم يقول: اسم لمدينة الجنة، وبعضهم يقول غير هذا، وهذه اللفظة في كلام العرب تدل على الإقامة، **{جَنَّاتِ عَدْنٍ}** أي إقامة، أي أنهم يمكثون فيها لا يخرجون عنها، يخلدون، ويكون ما يذكر بعده إذا كان هذا هو المعنى **{خَالِدِينَ فِيهَا}** يمكن أن تكون بمعنى الصفة الكاشفة، ويمكن أن تكون هذه الصفة تؤكد وتبين أن هذه الإقامة غير منقطعة الخلود، فهو البقاء الأبدي السرمدي.

وقوله تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك -رحمه الله -، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري، -رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله -عز وجل - يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا))[١١] **أخرجاه من حديث مالك.**

في قوله -تبارك وتعالى - هنا: **{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** التنكير عرفنا في مناسبات شتى أنه يأتي تارة للتعظيم، وتارة للتحقير، فهنا **{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}** ما المراد به؟ هل التنكير هنا يفيد التعظيم ولا يفيد معنى آخر كما في قوله تعالى مثلاً: **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** [سورة الصف:١٠]، "تجارة" فالتنكير هنا للتعظيم، وكقوله -تبارك وتعالى -: **{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [سورة آل عمران:١٣٣]، **{إِلَى مَغْفِرَةٍ}** يعني مغفرة عظيمة، فهنا هذا التنكير للتعظيم، لكن قد تجد في بعض كتب التفسير من يعبر، ويقول: التنكير هنا للتحقير، هذا موجود فلا يهولنّك ذلك، هذا الذي قال: إن التنكير للتحقير، يعني لو عبر بعبارة أخرى غير كلمة التحقير كالتقليل مثلا لكان أفضل، بمعنى أن أدنى رضوان من الله -عز وجل - أفضل من جميع الملاذ والنعيم، قصدَ هذا المعنى، ذكرت هذا؛ ليُفهم كلام أهل العلم، فقد يقرأ الإنسان أحياناً ويقول: هذا كلام غير معقول، يمكن أن يكون سبق قلم، لا، هو يقصد هذا المعنى الذي ذكرته آنفا، والله أعلم.

---

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (٨٠٤٣)، وقال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وقال الألباني صحيح لشواهده في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٥٦٣٠).

١١ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا، برقم (٢٨٢٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧٣ إلى الآية ٧٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [سورة التوبة:٧٣ - ٧٤].

أمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} قال: بيده، فإن لم يستطع فليَكْفهِرّ في وجهه.

وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} هذه الأقوال التي ذكرها بما يتصل بالمنافقين إنما اختلفت بناء على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحصل منه مقاتلة، بل ولا قتل لأحد من المنافقين كما هو معلوم في هديه وسيرته -صلى الله عليه وسلم- في التعامل معهم، فقوله: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ} هذا واضح يشمل جميع أنواع الجهاد بالقتال، وقد جاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معلوم، والجهاد أيضاً بالحجة والبيان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [سورة الفرقان:٥٢] يعني القرآن فهذا كله واقع منه -عليه الصلاة والسلام-، ولا إشكال في هذا، ولم يختلف السلف في هذا الجزء من تفسير الآية، وإنما الكلام في {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} فهنا هذه الأقوال التي ترونها، قال: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، فقال ابن مسعود: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ}، **قال بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه**، {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} يجاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- المنافقين بيده بعضهم فسره بإقامة الحدود عليهم، وبعضهم قال: إن الذين كانوا يقارفون ما يوجب الحد إنما كان يقع ذلك من المنافقين، وهذا غير صحيح، والنبي

-صلى الله عليه وسلم - أخبر عن المرأة التي زنت وعن توبتها العظيمة أنها لو قسمت بين أربعين من أهل المدينة لوسعتهم، وقالوا: وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها[1]؟!، فمجاهدة المنافقين هنا يقول ابن مسعود: **فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه** ذكر هذا بعد الجهاديْن: جهاد المنافقين، وجهاد الكافرين، بالنسبة للكفار الكافر المحارب يجاهد باليد، لكن الكافر غير المحارب هل المسلم مطالب بأن يكفهر في وجهه؟ وهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يكفهر في وجوه الكافرين؟ الجواب: لا، ويبقى الكلام في المنافق قال ابن عباس: **أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم،** معلوم أن المنافقين تجري عليهم أحكام الظاهر يعني يعاملون بحسب ما أظهروا يعاملون معاملة المسلمين، فإذا ظهر منهم شيء فإنهم يعاملون بمقتضاه، إن ظهر منه ردة وثبت ذلك عليه فإنه يقتل، كمن سب النبي -صلى الله عليه وسلم -، أو سب الله -تبارك وتعالى - أو نحو ذلك إذا ثبت ذلك عليه فيجاهد بإقامة الحد عليه، وإن سُمع منه منكر من المنكرات فإنه ينكر ذلك عليه، وهذا من المجاهدة، فأهل النفاق وهكذا أصحاب البدع الغليظة وأشباه هؤلاء يغلظ عليهم إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، يعني كان المسلمون فيهم قوة، وأهل السنة فيهم ظهور، فهذا الأصل، واغلظ عليهم بزجرهم وردعهم، وهكذا الذين يظهرون المنكرات، ويتبجحون بها، يعلنون بها لا يرعوون فإن هؤلاء ينكر عليهم، ويغلظ عليهم بزجرهم وردعهم عن ما هم فيه من الغيّ، هذا هو الأصل ولكن إذا لم يمكن ذلك لضعفٍ لدى أهل الحق فإن هذه الشريعة فيها عزائم ورخص فينتقل بعد ذلك إلى الرخص، وابن جرير -رحمه الله - كان يرى أن الآية على ظاهرها **{جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}** أنه لا فرق بين الجهادين، وأن المنافقين يجاهَدون كما يجاهد الكفار إذا أظهروا كفرهم الذي أبطنوه، هم يخفون الكفر ويظهرون الإسلام، فإذا أظهروا كفرهم فإنهم يجاهدون كما يجاهد الكفار، لكنهم إذا تنصلوا من ذلك وأنكروه كما كان عبدالله بن أبيّ يقول: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [سورة المنافقون:٨] ثم حينما يسأل يحلف أنه ما قال! فإذا كان كذلك فإنه يترك لا يقتل وهذا مما يدخل في معنى الآية أنهم يقتلون إلى آخره، إذا أظهروا كفرهم، ولكن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم - هو الذي يبين معاني القرآن فالله يأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين، أما جهادهم بالقرآن فلا شك أن الطائفتين يدخلون في هذا ويبقى لكل طائفة من المجاهدة نصيب، فالكفار يجاهدون بالسيف، والمنافقون لم يكن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم - أن يقتلهم أو أن يقاتلهم، وإنما كان يكلهم إلى ظواهرهم، فالإنكار عليهم والزجر والغلظة على كل ذلك مطلوب، قال: **قال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم،** فالذي حدا بهؤلاء العلماء -رحمهم الله - إلى القول بهذا هو ما عُرف من هديه -صلى الله عليه وسلم - في التعامل مع المنافقين قال: **وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم،** هذا جزء من مجاهدتهم وليس ذلك فحسب وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال يعني كل ذلك من الجهاد بإقامة الحد وبالإنكار وإقامة الحجج والرد على فِراهم وما أشبه هذا، هذا كله من مجاهدتهم يبقى جهاد واحد هو الذي لم يقع، وهو قتالهم بل لم يقتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم - وفرْقٌ بين القتل والقتال، فلم يقتلهم؛

١ - رواه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، برقم (١٦٩٦).

لئلا يقول الناس: إن محمداً -صلى الله عليه وسلم- كان يقتل أصحابه، وحتى أولائك الذين أطلعه الله -عز وجل- على نفاقهم تركهم!!.

قال "الأموي" في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه عن جده قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم-: الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت، وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حِجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد فقال: والله -يا جلاس- إنك لأحب الناس إليّ، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم عليّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتفضحَنِّي ولئن كتمتُها لتُهلكنِّي، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب عليّ، فأنزل الله -عز وجل- فيه: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ} إلى آخر الآية[٢]، فوقّفه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع.

هذه الرواية جاءت من طرق متعددة، ومما ورد في هذا أن رجلاً سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب فقال: إن كان ما يقول هذا حقاً فنحن كذا وكذا، يعني هذه الكلمة التي قالها، فنزلت الآية، وهي رواية تتقوى بمجموع طرقها، وجاءت روايات أخرى في هذا المعنى، فهذا إذا كان يمكن أن يكون الحديث فيه عن قضية واحدة تارة سمي فيها القائل، وتارة لم يسمّ، -وهذا لا يخلو من بُعد عن التأمل لألفاظ الروايات-، وقد يكون ذلك من زمان متقارب فيقال: إنها نزلت بعد هذه المواقف جميعاً إذا كان الزمان متقارباً، وإذا كانت هذه بينها تباعد فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت أكثر من مرة، مرة في هذا ومرة في غيرها.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالسا في ظل شجرة فقال: ((إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه))[٣].

في بعض الروايات في ظل حجرة.

فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق.

رجل أزرق العرب تطلق الأزرق أحياناً على أزرق العينين، وأحياناً يطلق الأزرق على من كان لونه يخالطه السواد، بخلاف الاصطلاح الآن الموجود عند بعض الناس، يقولون: مثل هذا أخضر -الذي فيه سواد خفيف-، ويقال: ومن كان شديد السواد يقولون له: أزرق، لكن هذا اصطلاح حادث أزرق يعني شديد السواد هذا موجود يعبر به في بعض النواحي، ولكنه اصطلاح حادث.

---

٢ - رواه عبد الرزاق في المصنف، كتاب العقول، باب قسامة الخطأ، برقم (١٨٣٠٣).

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٤/٣٦٣)، برقم (١٦٩٧٣).

فدعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال: ((علام تشتمني أنت وأصحابك؟))، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله -عز وجل -: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا} الآية.

وقوله: {وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ}، قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

الجزء الذي في الآية السابقة لم يتكلم عليه **{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ}** هذا يوضح قوله -تبارك وتعالى -: **{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [سورة التوبة:٦٦]، وعرفنا أن المنافقين ما كانوا مؤمنين، وإنما المقصود بعد إيمانكم الذي أظهرتموه، وهنا قال: **{وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ}** وهذه توضح المراد بالإيمان في الآية السابقة، فالمعنى الذي أظهروه هو إسلام الظاهر **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** [سورة الحجرات:١٤] فكل هذا محمول على هذا المعنى -والله تعالى أعلم -: أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، **{وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ}** أي إسلام الظاهر.

وقوله: **هم بقتل ابن امرأته** يعني عمير بن سعد الذي مضى في الرواية السابقة، لكن هذا يحتاج إلى إثبات، ولا أعلم رواية صحيحة في هذا، وأسباب النزول موقوفة على النقل والسماع ولا مجال للاجتهاد فيها، وإذا كانت الرواية لا تصح -يعني في أنه هم بقتله - فلا يقال: إن هذا هو سبب النزول.

وقيل: في عبد الله بن أبيّ هم بقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وهذا أيضاً لا يعرف في رواية صحيحة.

و قال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتوِّجوا عبد الله بن أُبيّ وإن لم يرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

كل هذه مراسيل، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله -: إن أكثر المرويات الواردة في أسباب النزول هي من قبيل المراسيل، لا تصح.

وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي -صلى الله عليه وسلم - وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما - قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أقود به، وعمار يسوق الناقة -أو أنا أسوقه، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فانتهرهم فأنبهتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((هل عرفتم القوم؟))، قلنا: لا يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الرِّكاب، قال: ((هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟))، قلنا: لا، قال: ((أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة، فيلقوه منها))، قلنا: يا رسول الله، أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: ((لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم

يقتلهم))، ثم قال: ((اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة))، قلنا: يا رسول الله، وما الدُّبَيلة؟ قال: ((شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك))[٤].

قوله: **{وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ}** كون هذا هو سبب النزول كما ترون الرواية ليس فيها شيء من هذا، يحتمل أن يكون هذا هو السبب أنهم هموا بأذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك بمزاحمة ناقته حتى يسقط من العقبة، لكن ليس عندنا رواية صحيحة في أن هذا هو سبب نزول الآية.

حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس.

من أهل العقبة ليس المقصود بيعة العقبة، وإنما هؤلاء الذين هموا بمزاحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- في العقبة في الطريق إلى تبوك.

فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك، قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذرَ ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حَرَّة فمشى، فقال: ((إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد))، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم يومئذ.

وما رواه مسلم أيضا عن عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- قال: أخبرني حذيفة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((في أصحابي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية تكفيكهم الدُّبَيْلة: سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم))[٥].

ولهذا كان حذيفة يقال له: "صاحب السر، الذي لا يعلمه غيره" أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دون غيره، والله أعلم.

وقوله: {وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال -صلى الله عليه وسلم- للأنصار: ((ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟)) كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن[٦].

هؤلاء من المنافقين، بعضهم يقول: إن بعض من نزلت فيه هذه الآية كان له دية فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- فأغناه الله بذلك، وهذا لا يحصر بهذا المعنى، وإنما أغناهم الله -عز وجل- بما فتح الله عليهم من الفتوح، وما حصل ببعثته -صلى الله عليه وسلم- مِن غناهم بعد الفقر الذي كان هو الغالب على أحياء العرب، ففتح الله -عز وجل- قريظة والنضير وخيبر وما شابه ذلك، فصار هؤلاء -كما تجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر- يأخذون من الغنيمة إذا شاركوا في المعركة، ويأتيهم ما يأتيهم من الأموال والصدقات

---

٤ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للإمام أبو بكر البيهقي (٥/٢٦١).

٥ - رواه مسلم، في بداية كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٩).

٦ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، برقم (١٠٦١).

وغير ذلك فصاروا أغنياء بعد أن كانوا عالة ((ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ قال: وعالة فأغناكم الله بي؟))، وهؤلاء من المنافقين عامتهم كانوا في المدينة إلا ممن حولهم من الأعراب، فحصل لهم الغنى بما فتح الله -عز وجل- به على المسلمين، وقوله: {وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ} [سورة المائدة:٥٩] الآية، وكقوله في أصحاب الأخدود: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} [سورة البروج:٨] فإيمانهم هو سبب نقمتهم وهذا ليس بعيب، وليس فيه ما يوجب النقمة، وذلك كقول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم *** بهنّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

فهذا الذي يسميه البلاغيون: المدح بما يشبه الذم، وهذه الآيات ترجع إلى هذا المعنى، وإن كان ذلك عند المنافقين بغيضاً مكروهاً، فالشاهد أن المؤمنين لم يصدر منهم، ولا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما يوجب هذا النقمة من المنافقين، بل صدر منهم عكس ذلك، وهو أنه حصل لهؤلاء المنافقين الغنى {وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قيل له: إن ابن جميل قد منع صدقته، قال: ما يَنقمُ ابنُ جميل إلا أن أغناه الله من فضله، يعني كان الواجب عليه أن يشكر وأن يخرج زكاة ماله.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ...} الآية [سورة البروج:٨].

ثم دعاهم الله -تبارك وتعالى- إلى التوبة فقال: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} أي: وإن يستمروا على طريقهم {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا} أي: بالقتل والهم والغم، {والآخرة} أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، {وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يُحصِّل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

هنا فسر العذاب في الدنيا بالهم والغم، ولم يفسره بغير هذا كالقتل مثلاً، أو المقاتلة؛ لأن ذلك لم يقع لهم، والله -عز وجل- وعْدُه حق وصدق، وهم قد تولوا فلم يقع عليهم القتل، ففسر العذاب في الدنيا بما يحصل لهم من النقص في الأموال، وما يحصل لهم من العلل والأوجاع في الأبدان، وما يحصل لهم من الغم بسبب ما يفقدونه في هذه الدنيا من الأولاد وغير ذلك من المتع التي يتحسرون على فواتها، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٧٥ إلى الآية ٨٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [سورة التوبة:٧٥ -٧٨].

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله -عز وجل - يوم القيامة، عياذا بالله من ذلك.

وقوله تعالى: {بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[1].

وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ}: اللام في قوله: {لَئِنْ آتَانَا} لام قسم، واللام الثانية في قوله تعالى: {لَنَصَّدَّقَنَّ} ليست لام قسم، وإنما هي اللام الداخلة على جواب القسم، وجواب الشرط، فهذه الجملة فيها شرط وقسم، يعني الآن الشرط هكذا لو قال أحد: إن آتاني الله من فضله تصدقت، هذه جملة شرطية، والقسم: والله لئن آتاني الله من فضله لأتصدقن، وقد يحذف المقسم به وأداة القسم أو فعل أقسم أيضاً، فبدلاً من أن تقول أقسم بالله، تقول: والله، بدلاً من أقسم، تحذف فعل القسم وتأتي بحرف القسم فتقول: والله لئن آتاني الله من فضله لأتصدقن.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

وقد يحذف أيضاً المقسم به وأداة القسم، ويدل على ذلك لام القسم {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} "لئن" فهذه اللام لام قسم، وإذا اجتمع شرط وقسم فالجواب عنهما يكون واحداً بطبيعة الحال، لا يأتي جوابان جواب للقسم وجواب للشرط لا يمكن هذا، لكن الجواب يكون هل هو للشرط أو للقسم؟

القاعدة أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم منهما، ويغنى ذلك عن الآخر ويدل عليه، إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم، ويستغني به عن الآخر، فالآن المتقدم القسم، اللام لام القسم، و"إن" هي أداة الشرط "لئن"، فتقدم القسم فقوله: {لَنَصَّدَّقَنَّ} الجواب هنا جواب القسم أغنى عن جواب الشرط هذه قاعدة، ولها أمثلة كثيرة في القرآن، قوله: **يقول الله تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله...** إلى آخره السياق، فالكلام على المنافقين {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ}، {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي} [سورة التوبة:٤٩]، فعامة المفسرين حتى ابن كثير -رحمه الله- في الأصل يذكرون في ذلك سبباً للنزول، وهو أن ثعلبة بن حاطب -رضي الله تعالى عنه- طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو له أن يرزقه الله مالاً، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تؤدي شكره))[٢]، فأعاد ثانية وثالثة ألح في الطلب فدعا له النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يؤتيه الله ويرزقه مالاً فاتخذ أغناماً فتكاثرت تكاثر الدود، فخرج من المدينة ثم صار لا يحضر إلا في صلوات هكذا في الرواية صلوات النهار ولا يحضر في الليل، ولم أتتبع الروايات، وقد يكون بالعكس فالشاهد أنها تكاثرت فاتخذ مكاناً آخر أبعد فصار يحضر الجمعة!! ثم تكاثرت حتى أبعد بها وصار لا يحضر الجمعة ولا الجماعة!! فأرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلين لأخذ الصدقة -الزكاة- منه ومن رجل آخر من بني سليم فأتياه، فنظر في كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفيها أسنان الصدقة الإبل والغنم وأوصافها فقال: ما هذه إلا أخت الجزية!! اذهبا فارجعا إليه حتى أنظر في أمري، فذهبوا إلى السلمي فوجوده قد هيأ أطيب الإبل للزكاة فقالوا: ما أمرنا بأخذ هذا وإنما يعني من أوساط المال فقال: هذا كله مال الله، وأبَى، فأخذوا من هذه الإبل ثم رجعوا إلى هذا فنظر في الكتاب مرة أخرى وقال: ما هذه إلا أخت الجزية! اذهبا حتى أنظر، فرجعوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وحينما رآهما قال: ويحك ثعلبة، ثم بعد ذلك نزلت الآيات، فذهب بعض قومه -وهو من الأنصار- إليه وأخبروه فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وندم، وطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقبل صدقته فأبى، وقال: إن الله قد نهاني أن أقبل صدقتك، ثم بعد ذلك جاء إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فأبى أن يقبل صدقته، وقال: لم يقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا أقبلها، ثم جاء إلى عمر فقال: ردها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر فلا أقبلها ثم جاء إلى عثمان فقال له مثل ما قال، حتى توفي في خلافة عثمان، فهذا السبب للأسف مبثوث في كتب التفسير لا يكاد يخلو منه كتاب، وهي رواية لا تصح بحال من الأحوال، لا من جهة السند، ولا من جهة المتن، وثعلبة بن حاطب -رضي الله عنه- هو صحابي، وليس من المنافقين، ولا يصح نسبة ذلك إليه، ومتنها أيضاً

---

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٨٧٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جداً في السلسلة الضعيفة، برقم (١٦٠٧).

فيه ما فيه، فمتن هذه الرواية كما ترون، والله -عز وجل -: **{يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}** [سورة التوبة:١٠٤]، ومن تاب تاب الله عليه، وأعظم ذلك الإشراك بالله -عز وجل -، فإن الله يتوب على من تاب، بل إن الله -عز وجل- يقول للذين نسبوا له الصاحبة والولد يتلطف بهم: **{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}** [سورة المائدة:٧٤]، ويقول للذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا}** [سورة البروج:١٠] يعني أحرقوا، **{الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** فعلوا هذا كله ويقول: **{ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}** فالتوبة يقبلها الله -عز وجل- من عبده، فهذا الرجل ندم وتاب فكيف لا تقبل زكاته؟! فالشاهد أن هذه الرواية لا تصح بحال من الأحوال.

صح عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في علامات المنافقين: ((إذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا عاهد غدر))[٣] فأنزل الله -عز وجل- تصديق ذلك: **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ}** فإذا أخذنا بظاهر هذه الرواية، واعتبرنا جانب الصناعة فإن هذا يعتبر من قبيل الصريح في أسباب النزول، والروايات الصريحة في سبب النزول قد يوجد منها ما ليس بسبب نزول، وقد يوجد من غير الصريح ما هو سبب نزول في حقيقة الأمر، ولكن الكلام عن الغالب، وعرفنا المراد بالصريح وغير الصريح، فهذه من الناحية الصناعية تعتبر من قبيل الصريح بسبب النزول، وإذا أجرينا عليها القاعدة قلنا: إن هذا هو سبب النزول، وقد لا يكون كذلك، قد يكون الصحابي يقصد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال هذا ثم بعد ذلك نزلت آية ليس بسبب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، نزلت آية توافق هذا المعنى فيما بعد، ولكن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن سبب النزول؛ لأن سبب النزول -كما هو معروف- هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أيام وقوعه، سؤال أو حادثة، لكن **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** هذا يؤخذ منه أن الإنسان إذا عاهد الله -عز وجل- ينبغي عليه أن يفي، وإلا فإن الله قد يعاقبه بسبب ذلك ليطمس على قلبه، ويحصل له نفاق ونحو هذا، والفاء في **{فَأَعْقَبَهُمْ}** تدل على التعليل، والباء في قوله: **{بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ}** للسببية، أي السبب هو إخلاف ما وعد الله -عز وجل- به، وقد يقول قائل: إذا كانت هذه الآية في المنافقين أصلاً فكيف قال الله -عز وجل- في جزائهم: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** فهم كانوا من المنافقين، فيقال: لا إشكال، فزادهم نفاقاً على نفاقهم مع الديمومة والاستمرار، النفاق قد يكون عارضاً يعرض للإنسان فيحصل له نفاق، نافق فلان، هنا **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** ليس نفاقاً عملياً، وإنما هو نفاق اعتقادي، ومستمر دائماً إلى يوم يلقونه، وقوله هنا: **{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}** السر والنجوى الفرق بينهما ظاهر، فـــ"السر" كل ما قصد الإنسان إخفاءه، و"النجوى" نوع من السر خاص وهي الحديث الذي يكون بين اثنين وأكثر يقصد به الاختصاص دون الآخرين هذه حقيقة النجوى كل حديث بين اثنين أوأكثر يقصدون به الانفراد والاختصاص، وألا يطلع عليه أحد حتى لو يتكلمون بصوت مرتفع؛ لأنهم في مكان بعيد عن الناس أو بلغة أخرى بين الناس، لغة أخرى لا يفهمها الآخرون، وهم يقصدون التكلم بها لئلا يفهم أحد، فهذه هي النجوى.

---

٣ - رواه البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، برقم (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٨).

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٧٩].

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُراءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري قال: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود -رضي الله عنه - قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مُراءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ} الآية[٤]، وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه.

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن ينثره في الصدقات، فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا، وما يصنعون بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((لم يبق أحد غيرك)) فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه -: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون، قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت))، ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء، وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله -عز وجل - عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} الآية.

قوله: الجرير يعني: الحبل.

والروايات الواردة في سبب النزول كثيرة منها ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، والرواية الصحيحة منها ما جاء مبهماً لم يسمَّ فيه أحد يعني كالرواية الأولى التي قال فيها: إنه لما نزلت ((كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق))[٥] الرجل مبهم، وكذلك الآخر، وفي بعض الروايات جاءت تسمية المتصدق، غير هذه الرواية التي من طريق العوفي فإنها لا تصح، لكن جاءت روايات أخرى صحيحة، وفيها مراسيل كثيرة قد

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، برقم (١٣٤٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرة يُتصدَّق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدِّق بقليل، برقم (١٠١٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، برقم (١٣٤٩).

تتقوى لمجموعها، فلا منافاة سبب النزول واحد -والله تعالى أعلم- جاء في بعض الروايات تسمية بعض من تصدق وفي بعضها بالإبهام.

وكذا روي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطّوّعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رغب في الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسْق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده: أبو عقيل أخو بني أنيف الإراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عَقيل.

وقوله: {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

فيكون بهذا التفسير من قبيل الإخبار **{سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ}** ويحتمل أن يكون المراد به الدعاء عليهم، ولعل الأول أقرب، والله أعلم.

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٨٠].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما قال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ، انطلق ابنه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما اسمك))، قال الحباب بن عبد الله، قال: ((بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان))، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عَرِق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: ((إن الله قال: {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين))[٦].

وكذا روي عن عُرْوَة بن الزبير ومجاهد بن جُبَير، وقتادة بن دِعَامة، رواه ابن جرير بأسانيده.

بالنسبة لهذه الرواية كما ترون: قال الشبعي، والتي قبلها قال ابن إسحاق، ومثل هذه الروايات التي يسميها الأصوليون من قبيل المرسل سواء كانت من رواية التابعي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو ما دون التابعي، كما يسميه الأصوليون بالمرسل أيضاً كل هذا لا يصح.

---

٦ - رواه الطبراني في جامع البيان في تأويل القرآن، (١٤/٣٩٥)، برقم (١٧٠٢٤).

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة التوبة:٨١ -٨٢].

يقول تعالى ذَامًّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، {وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا} معه {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا} أي: بعضهم لبعض: {لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ}؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: {لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} قال الله تعالى لرسوله: {قُلْ} لهم: {نَارُ جَهَنَّمَ} التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم {أَشَدُّ حَرًّا} مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة -رضي الله عنه -، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((نار بني آدم التي يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم))، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: ((فضلت عليها بتسعة وستين جزءا))[٧] أخرجاه في الصحيحين.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَمَن له نعلان وشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل، لا يرى أحداً من أهل النار أشد عذابا منه، وإنه أهونهم عذابا))[٨]، أخرجاه في الصحيحين.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: {كَلا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى} [سورة المعارج:١٥ -١٦]، وقال تعالى: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة الحج:١٩ -٢٢]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [سورة النساء:٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

ثم قال الله تعالى -جل جلاله - متوعدا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً...} الآية، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله -عز وجل - استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا.

هنا في قوله: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} المخلفون سواء قيل: إن الذي خلفهم الشيطان، أو خلفهم الله -عز وجل - حيث ثبطهم عن الخروج فقعدوا كما يقول بعض المفسرين، والمقصود أنه حصل منهم التخلف فصح نسبة ذلك إليهم {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} بمقعدهم أي بمقامهم في المدينة،

---

٧ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، برقم (٢٨٤٣).

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٩٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، برقم (٢١٣).

{خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} خلافه يحتمل معنيين، يحتمل {خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} أي بأنهم قعدوا وذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه إلى تبوك، ويحتمل أن يكون {خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} أي مخالفة له حيث دعاهم للخروج فلم يخرجوا، والأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وقوله: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} هذا أمر، لكن وإن كانت الصيغة صيغة إنشاء -أي أمر هنا- فإنها بمعنى الخبر، يخبر الله -عز وجل- عنهم أن أُنسهم في هذه الحياة الدنيا وضحكهم وسرورهم فيها قليل؛ لأن أيام الدنيا منقضية وقليلة، وأن بكاءهم في النار طويل لا انتهاء له، والله المستعان.

{فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [سورة التوبة:٨٣].

يقول تعالى آمرا لرسوله -عليه الصلاة والسلام- {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ} أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه {إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ} قال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ} أي: معك إلى غزوة أخرى، {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} أي: تعزيرا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: {إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وهذا كقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام:١١٠] فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا...} الآية [سورة الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة.

قوله هنا {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} الخالفون يقال: للأطفال والنساء، ولمن قعد بعد الغزاة، ومن تأخر عنهم وقعد، يقال له: خالف، وخوالف وهم خالفون فرضوا بأن يكونوا مع الأطفال والنساء، وأهل الأعذار من المرضى والزمْنى، وهذا أمر لا يفرح به أحد، وتعرفون ما جاء عن عليٍّ -رضي الله عنه- لما خلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- على المدينة فكره ذلك وقال: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان، فقال: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي))[9]، وفي الآية التي سبقت {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} نسيت أن أذكر الكلام على العدد المذكور هنا، وهنا ذكر ابن كثير -رحمه الله- أن العرب من أساليبها أن تذكر السبعين، وتقصد بذلك الكثرة ثم جاء بالرواية عن الشعبي التي تُشعر أن العدد مقصود، هذا الكلام من ابن كثير وإيراده الرواية هو إشارة إلى القول الآخر أن العدد مقصود؛ لأن هذه الرواية وإن كانت مرسلة لكن يقول الله: {إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً}، وإنما أخذ باعتبار أن العدد مراد، وقال في سبب نزول قوله تعالى: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا} [سورة التوبة:٨٤]: الروايات صريحة وصحيحة في الصحيح وفي غيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصد الزيادة على السبعين، فاعتبر العدد سبعين مرة، فلو كان العدد غير مراد لفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من الآية أن الاستغفار لهم ممنوع بقوله: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ} إلا أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتبر التخيير {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ

---

٩ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، برقم (٤١٥٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٤).

لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} فلم يمنعه من ذلك حتى نزل قول الله -تبارك وتعالى -: **{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا}**، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}** [سورة التوبة:٨٤].

أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يَبْرَأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين، كما روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما توفي عبد الله -هو ابن أبيّ- جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما خيرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} وسأزيده على السبعين))، قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله -عز وجل-، آية: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}[1].

وقد رُوِي من حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا وفيه: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرغ منه -قال: فَعَجَبٌ لي وجراءتي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله ورسوله أعلم- قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}، فما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، -عز وجل.

وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن صحيح، ورواه البخاري[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٩٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل عمر -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٠٠)..

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٣١).

فقوله -تبارك وتعالى -: **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}** يقول الحافظ -رحمه الله -: **أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم - أن يَبْرَأَ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له**، **{وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}** للدعاء والاستغفار، ومن أهل العلم من فسره بغير هذا، **{وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}** أي: لا تتولَّ دفنه ولا تباشر ذلك، ولا تقبره، والله -عز وجل - نهاه عن القيام على قبره، والقيام على قبره يشمل القيام على القبر للدعاء له، والاستغفار، وتولي الدفن، وهو منهي عن الصلاة عليه، **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا}** ويدخل ضمناً في النهي عن الصلاة عليه أيضاً المعنى اللغوي للصلاة وهو الدعاء؛ لأن صلاة الجنازة إنما شرعت للدعاء للميت كما هو معلوم، فـــ **{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ}** صلاة الجنازة، وهذا يدل على أنه لا يدعو له، **{وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}** لا تتولَّ دفنه، وتقبره أو تقف على قبره للدعاء له، فكل هذه المعاني -والله أعلم - تضمنتها الآية، وابن جرير -رحمه الله - اختار من المعنى **{وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}** أي لا تتولَّ دفنه، بخلاف قول ابن كثير هنا، ويمكن الجمع بين هذه الأقاويل -والله أعلم -، ثم أورد الحديث في سبب النزول في صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم - على عبد الله بن أبيّ، قال كما روى البخاري عن ابن عمر والحديث مخرج في الصحيحين، وقوله في آخر الآية: **{إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}** هذا إما للتعليل يعني لأنهم كفروا، فكل من كفر يعني الكافر والمنافق لا يقوم الإنسان على قبره ولا يتولى دفنه، ولا يدعو له ولا يصلي عليه لا يدعو له بالرحمة والمغفرة لكن من الممكن أن يدعو له بالهداية بحياته قال: **{وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}**، والفسق هو مطلق الخروج الخروج عن طاعة الله -عز وجل -، ومنه ما هو خروج أكبر، ومنه ما هو خروج أصغر، فهنا قال: **{إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}**، والحافظ ابن كثير -رحمه الله - قال في تفسير هذه الجزئية قبل الحديث: **لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه** يعني أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون، يعني ماتوا على الكفر هذا معنى كلام ابن كثير، وهو معنى ظاهر، بمعنى أنه ختم لهم بهذا، وبعض أهل العلم يقول: إنه وصفهم بالفسق -يعني بعد الكفر - باعتبار أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، يعني أن دينه يأمره بما يجمل وما يليق فيما يتعلق بالوفاء بالعهد، والصدق في الحديث فيكون هذا الكافر متديناً، ويكون دينه يمنعه من هذه الأشياء ويلتزم بها، وهم ليسوا على جادة، ولا خلق، ولا دين يتقيدون به يمنعهم من هذه الأشياء، ولو كان باطلاً، ففسره بعضهم **{وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}** فسره بالفسق في المعنى المشهور عرفاً، تقول: فلان فاسق فيكون ذلك سبباً لذهاب عدالته، ورد شهادته وما أشبه ذلك؛ لأنه يأتي من الذنوب إما صغائر الخسة، أو يكثر من الذنوب والمعاصي حتى يغلب ذلك عليه، ويعرف به، هكذا فسره بعضهم، والأقرب -والله تعالى أعلم - أنه لا يفسر بهذا، يعني ليس معنى -**{كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}** هم كفار - **{وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}** الفسق الذي يطلق على صاحب الذنوب والمعاصي، لا، وإنما هنا الفسق الأكبر يعني **{وَمَاتُوا}** على هذا الكفر، هذا المعنى، ما هو مات فاسق بمعنى أنه مقارف لإخلاف الوعد ونقض العهد، والتلون وما يفعله المنافقون من كل رزية ورذيلة لا يرعوون عن شيء في سبيل حفظ أموالهم وحقن دمائهم، فيحلفون على الكذب -نسأل الله العافية -، ليس هذا المراد بقوله: **{وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}**، وانظروا إلى المثال الذي يذكره الأصوليون دائماً **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** [سورة الحجرات:٦] حمله كثير منهم على الفسق

الذي هو الفسق الأصغر، {فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} يعني الفاسق الذي يكذب، ويخلف الوعد ويحلف على الكذب، ولا يتورع عما حرم الله -عز وجل -، قالوا: فمفهوم الموافقة من باب الأولى، إن جاءكم كافر فتثبتوا، فيوردون على أنفسهم إيراداً وهو أن هذا مفهوم الموافقة الأولوي أنه من قبيل الظني؛ قالوا: لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، فيتورع من الكذب ديانة؛ لأن دينه يحرم عليه الكذب، فلهذا نتثبت إذا جاءنا بالخبر؛ لأن هذا الإيراد يجعل مفهوم الموافقة في قوله: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ} أي كافر من باب أولى، لكن لا نقطع بهذا لأنه قد يكون عدلاً في دينه، ومفهوم الموافقة الأولوي منه ما هو قطعي مثل {فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [سورة الإسراء:٢٣]، الضرب قطعاً من باب أولى، لكن مثلا نهى عن التضحية بالشاة العوراء فالعمياء من باب أولى، هذا ليس قطعياً؛ لأن القصد هو أن العور لا ترى معه إلا نصف المرعى فيكون ذلك مظنة للهزال، فالتي تكون عمياء هي لا ترى المرعى أصلاً فهي ترعى وهي رابضة يأتيها صاحبها بأفضل العلف، ولا تحتاج أن تمشي مسافات وتبحث عن العشب ونحو هذا، فهذا مظنة السِّمن، ولهذا يقولون: إن مفهوم الموافقة هذا ظني وليس بقطعي والواقع أن المثال الذي يذكرونه، {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} لا يصلح لهذه القضية -أي مفهوم الموافقة الظني -؛ لأن الفسق يطلق على الفسق الأصغر، والفسق الأكبر {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ} سواء كان كافراً أو كان يشمل هذا، وهذا، فلا يقال: الكافر من باب أولى؛ لأن الكافر أصلاً فاسق، وهذا المثال مشهور عند الأصوليين جداً، والسبب أنهم حملوا الفاسق على صاحب الذنوب والمعاصي وما أشبه ذلك.

{وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:٨٥].

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد.

إذا تأملت الآية التي سبقت يعني آية رقم (٥٥) التي مضت، وهذه الآية تجد بعض الفوارق، يعني هناك {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ} [سورة التوبة:٥٥]، وهنا {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ}، ما فيه {وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ}، وهناك {لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وهنا {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا}، بعض العلماء يذكر تعليلات لهذه الفروق، ووجه التفريق في اللفظ بين تلك الآية وبين هذه الآية، فأحياناً ممن يتكلمون على هذا يذكرون بعض الوجوه لكنها لا تخلو من تكلف وعندئذ قد يدخل الإنسان في القول على الله -عز وجل - بلا علم، فالوجوه المتكلفة لا حاجة إليها إذا ظهر هذا، مع أنه لا يقطع بهذا، والكلام الذي يذكرونه في هذا مثل الإسكافي، في "درة التنزيل وغرة التأويل"، وكذلك زكريا الأنصاري في كتاب "البرهان" وجوه متكلفة جداً، لا حاجة إليها، يذكرون مثلاً يقولون: هنا الآية التي قبلها قال: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...}، ثم قال: {إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ} هذا في الماضي، فقال بعده: {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا} هو يتحدث عن أمر تعلق بالماضي {كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ} بينما تلك ذُكر فيها أشياء مستقبلية، يعني فيما قبلها، فهو في الآية السابقة لها قال: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ} [سورة التوبة:٥٤] ثم قال: {وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ} يعني في الحال وفي المستقبل، هكذا قالوا: {إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى}، قال: {وَلاَ يُنفِقُونَ} يعني ما ينفقون في الحال وفي المستقبل إلا وهم كارهون، ثم قال

بعده معلماً له كيف ينظر إليهم في المستقبل {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ} فهذا الوجه غير ظاهر، وفيه تكلف شديد، وهكذا بقية كلامهم على الفروقات الأخرى في هذه الآية.

{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة:٨٦ -٨٧].

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: {ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال الله تعالى عنهم في الآية الأخرى:

{فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [سورة الأحزاب:١٩] **أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء.**

وقال تعالى في الآية الأخرى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} الآية [سورة محمد:٢٠].

وقوله: {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، {فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

قوله هنا: {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} بعضهم فسره بالمنزلة والشرف، أي الناس الذين يُنظر إليهم ويقتدي بهم، ويمكن أن يفسر بالمعنى الآخر وهو أنه الغنى والسعة {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ}، فهم لا عذر لهم أغنياء، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ} [سورة التوبة:٩٣]، هنا قال: {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي **بسبب نكولهم عن الجهاد** {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}، هم جمعوا بين أمرين الرضا بالقعود من غير عذر، وحصل لهم الطبع نتيجة لذلك فأثَّرُ ذلك عدم الفقه قال: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم، والفقه -كما هو معروف- أخص من الفهم، فالفقه هو الفهم فيما يدِق فمثل هذه الأمور: كون الإنسان يتطلب الحياة الحقيقية الكاملة في المواطن التي يظنها الآخرون أنها تكون سبباً لتلف النفس وذهاب المال إلى آخره، هذا يحتاج إلى فقه، هم يظنون أن هذه مهلكة، الذهاب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- لقتال الروم وهذه المسافات البعيدة ونحو ذلك، ما علموا أن هذه هي الحياة الحقيقية.

{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:٨٨ -٨٩].

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بيَّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا} إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

هذا هو الظاهر المتبادر في تفسير {الْخَيْرَاتُ}، وبعضهم فسره بالنساء الجميلات، {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [سورة الرحمن:٧٠] فالخيرات كل خير في الجنة فهو داخل في هذا، وبعضهم فسره بأنه جمع خيِّرة، وهنا قال بعضهم: إن الخيرات هنا {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} جمع خيِّرة، وقد يخفف لا يكون مشدداً، ويجمع على الخيْرات، وتفسيره بأن الخيرات كل نعيم الجنة، ويدخل ضمن ذلك الحور العين.

{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة:٩٠].

ثم بَيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: "وَجَاءَ المُعْذَرُونَ" بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر.

لأنه قال بعد هذا: {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: لم يأتوا فيعتذروا.

يعني الآن على قراءة ابن عباس -رضي الله عنهما- "وَجَاءَ المُعْذَرُون" من أعذر، يعني بالغ في العذر تقول: "أعذَرَ من أنذر" فيكون هؤلاء هم أصحاب الأعذار الصادقة الحقيقية، أي أن الأعراب منهم من جاء وعنده عذر فاعتذر، ومنهم من قعد وتخلف ولم يعتذر، فهؤلاء من المنافقين، هذا على قراءة ابن عباس وتفسيره لها، والقراءة التي قرأناها {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} بالتشديد، بعضهم فسرها بالمعتذرين، قالوا: أدغمت التاء في الذال فصارت {الْمُعَذِّرُونَ}، وهؤلاء قالوا: هم الذين لهم عذر حقيقي عذر صادق، {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} يعني المعتذرون الصادقون المحقون في اعتذارهم، والمعنى الآخر الذي تحملته على أنها من عذَّر، {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} من عذَّر بمعنى قصَّر، والمعنى {جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} أي أصحاب الأعذار الكاذبة، فعلى المعنيين المعنى الأول يكون هؤلاء الذين جاءوا هم أصحاب الأعذار المقبولة، والطائفة الثانية هي التي قعدت ولم تعتذر أصلاً، هؤلاء هم المنافقون، أي بعدما تكلم عن أهل المدينة والأعذار الكاذبة التي اعتذروا بها، {ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي} [سورة التوبة:٤٩] إلى آخره الآن جاء الكلام على الأعراب، فمنهم من جاء واعتذر بعذر صادق، ومنهم من قعد ولم يعتذر هذا أحد التفسيرين، وعلى المعنى الآخر {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ} أن المنافقين من الأعراب منهم من جاء واعتذر بأعذار كاذبة، ومنهم من لم يعتذر وقعد.

ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة التوبة:٩١-٩٣].

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو

بسبب فقره، لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

{لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى} يقول: **ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال** هذه الأعذار الصادقة الحقيقية، قال: **فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب** بمعنى أن الضعفاء هم الذين مثل الزمْنى الإنسان الضعيف في بنيته الذي لا يستطيع أن يجاهد والإنسان المقعد، فمثل هؤلاء أعذارهم دائمة ومستمرة، وهناك أعذار عارضة طارئة في البدن مثل المرض العارض ونحو ذلك فهذا معذور، وهناك أعذار أخرى مثل الفقر الشديد ليس عنده ما يتجهز به، فكل هؤلاء عَذرهم الله -عز وجل- بهذا الشرط: **{إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}**، قال هنا: **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** لكن إذا نصحوا لله ورسوله معناها أن هؤلاء يعذرون بهذا الشرط، نصحوا لله ورسوله أي مع محبتهم للمجاهدين ودفاعهم عن أعراضهم، وتوليهم وتولي أولياء الله، وأهل الإيمان، والبراءة من أعداء الله -عز وجل-، والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، وبغض كل ما خالف شرع الله، ودينه وأمره وكتابه، هذا معنى إذا نصحوا لله، والناصح هو الخالص من كل شيء، أما إذا جلس وهو معذور أعرج أو أعور وجمع بين العور الحقيقي والعور المعنوي، منافق كالشاة العوراء تعور بين الغنمين، فجلس يخذل ويثبط ويستهزئ، يوالي أعداء الله -عز وجل-، يكذب على الله -عز وجل-، وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويقول في دين الله -عز وجل- ما ليس منه، فمثل هذا لا يعذر حتى لو كان مقعداً أو أعمى أو أعرج، فقد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة، فهذا معنى إذا نصحوا لله ورسوله، ثم قال: **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** يمكن أن تكون هذه الجملة مقررة لمضمون ما سبق، أي ليس على المعذورين الناصحين من سبيل، هؤلاء معذورون ونصحوا لله ورسوله، فهؤلاء ليس عليهم من سبيل لمعاتبتهم، أو مؤاخذتهم، أو معاقبتهم على قعودهم، ويمكن أن تكون عامة **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء الذين ذكروا هم من جملتهم **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** وهذه الآية كثيراً ما تُذكر في موطن ليس هو معناها، فأحياناً هذا يقع في ألسن الناس كثيراً يستعملون هذا، فإذا الإنسان تبرع بشيء ثم بعد ذلك قصر فيه أو ضيعه أو تركه يقال: **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** تبرع به من عند نفسه قام وأراد أن يعمل بعمل تطوعاً تبرعاً من عنده دون أن يأخذ عليه مقابلاً، ثم بعد ذلك أدار ظهره ومشى!! لا تستطيع إلا أن تهز كتفيك أحياناً وتقول: **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** فهذا ليس معناها، فهذا ليس من المحسنين وإنما من المسيئين، فالإنسان إذا التزم بشيء ووعد به يجب عليه الوفاء، فإذا أخلف ونكل فهذا من المسيئين وليس من المحسنين، ولا يقال له: **{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}** لكن يقال هذا: من باب جبر الخواطر أحياناً، وعدم جرح المشاعر وما أشبه هذا، وإلا فمثل هذا مذنب ومسيء، وما ضيع أعمالَ الناس والدعوة إلى الله -عز وجل- والأعمال الخيرية والبرامج التطوعية إلا هذه النوعيات من الناس، يأتي ويضرب صدره ويقول: أنا أتولى المشغلة الفلانية، أنا أتولى العمل الفلاني، أنا أتولى اللجنة الفلانية، ويشتغل يوماً ويومين وثلاثة ثم تكتشف أن الرجل مضيع لعمله، ولا يأتي، ولم يصنع شيئاً، ويقول: والله انشغلت بمشوار وكذا!!، تقول له: **{مَا عَلَى**

{الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} وما هو بمحسن وإنما مسيء، فالإنسان ما يتكلم بشيء إلا ويعرف كيف يكون الخروج منه، وما يلتزم بشيء إلا ويقوم به على الوجه الكامل، وإلا من البداية يقول: لا أستطيع، ويكون هذا أفضل له وخيراً له، يتجمل أحياناً بوعود ويعطيك الشمس بيد والقمر بيد، ويشتغل أياماً وبعدها يدير ظهره، هذا لا يساوي شيئاً بعد ذلك، لا يمكن أن تكل إليه عملاً، ولا تثق منه بوعد، ولا تطمئن إلى أي عمل يمكن أن يقوم به، فدائماً لا أحد يدخل في عمل إلا ويعرف الخروج منه، ولا تلتزم بشيء إلا إذا كنت تستطيع أن تقوم به على الوجه المطلوب، وإلا اعتذر وأرِح الناس، ابن القيم -رحمه الله- ذكر أن الإنسان إذا عرض له عمل من الأعمال أو نحو هذا ينظر هل يستطيع هو القيام به أو لا؟ هل له نية فيه أو لا؟ إذا كان يحتاج إلى أعوان هل عنده أعوان أو لا؟ فيقلب أمره في هذه الأمور جميعاً ثم بعد ذلك يقول: نعم، أو يقول: لا.

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقِنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقوا.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن معقل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال لهم: ((والله لا أجد ما أحملكم عليه))[٣]، فتولوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملا، فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ...} إلى قوله تعالى: {فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

وقال مجاهد في قوله: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} نزلت في بني مقرن من مُزَيْنة.

هذه رواية عن مجاهد مرسلة ولا تصح أنها نزلت في هذا، وكذلك رواية العوفي عن ابن عباس لا تصح.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شَرِكوكم في الأجر))، ثم قرأ: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} الآية[٤].

وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتم مسيرًا إلا وهم معكم))، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: ((نعم، حبسهم العذر))[٥].

---

٣ - رواه الروياني في مسنده، برقم (٩٠٩).

٤ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٧٦/٧)، برقم (١٠٧٠٧).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو، برقم (٢٦٨٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، برقم (١٩١١)، وفيه:"حبسهم المرض"، بدل: "العذر".

هذا الحديث إيراده هنا في غاية المناسبة، وذلك أن هؤلاء من أصحاب الأعذار الذين أقعدهم المرض، أو الحمى أو نحو هذا إذا نصحوا لله ورسوله تكون قد قعدت أجسادهم، وإلا فهم في حكم من غزا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فهم مشاركون لهم في الأجر، وإن تخلفوا بسبب العذر.

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، {وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ٩٤ إلى الآية ٩٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٩٤ -٩٦].

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، {قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} أي: لن نصدقكم، {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} أي: سيُظهر أعمالكم للناس في الدنيا، {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤنِّبُوهم، {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ} احتقارا لهم، {إِنَّهُمْ رِجْسٌ} أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، {وَمَأْوَاهُمْ} في آخرتهم جهنم {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، {فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة "فُوَيسقة" لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: "فسقت الرطبة" إذا خرجت من أكمامها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} قال الحافظ -رحمه الله-: **أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم** {إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ}، هنا قال: {إِلَيْهِمْ} ولم يقل: إلى المدينة؛ لأن المقصود -والله تعالى أعلم- أن اعتذارهم يكون برجوعهم إليهم، وإن كان هذا الرجوع من الناحية العملية إلى المدينة لكن ليس ذلك بمقصود لهم، ثم قال: {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ} قال: **أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم**، فإنهم رجس أطلق عليهم الرجس كأنهم تحولوا إلى رجس، والمقصود أن اعتقادهم وعملهم سيء في غاية السوء، فأطلق ذلك عليهم، وهذا يسميه البلاغيون ويعدونه من باب المبالغة، كأنهم صاروا وتحولوا إلى رجس، إلى نجاسة {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ}، قال:

ومأواهم في آخرتهم جهنم، ثم هنا في قوله: **الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة،** قال: **ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها،** يعني لعله يقصد إذا خرجت من قشرتها، يقال: فسقت، والذي يخرج من الأكمام هو الطلع ينشق عن أكمامه ثم بعد ذلك يخرج، والطلع هو الذي يكون أصل القِنْو في أول ظهوره في النخلة، والله أعلم.

{الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:٩٧ -٩٩].

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟.

يعني هو يقول: أخشى أن يكون أقيم عليك الحد لأنك سارق، فقال له: هذه الشمال؛ لأن القطع يكون لليمين كما جاء أيضاً في القراءة الأخرى غير المتواترة "فاقطعوا أيمانهما".

فقال زيد بن صوحان صدق الله: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}.

وروى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن))[1]، ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: ((لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي، أو أنصاري، أو دَوْسيّ))[2]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

---

١ - رواه أبو داود، كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، برقم (٢٨٥٩)، والنسائي، كتاب الصيد والذبائح، باب اتباع الصيد، برقم (٤٣٠٩)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٢٥٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند، برقم (٣٣٦٢)، وقال محققوه: "حسن لغيره، وهذا سند ضعيف لجهالة أبي موسى فإنه لم يروِ عنه غير سفيان، ولم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٦).

٢ - رواه النسائي، كتاب العُمْرى، باب عطية المرأة بغير إذن زوجها، برقم (٧٣٥٩)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في ثقيف وبني حنيفة، برقم (٣٩٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢١١٩).

الأعراب يعني كل من سكن البادية، والعرب: هم قوم معروفون من ولد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، ومن كان في حكمهم، وبعضهم يقول: من سكن جزيرة العرب، وتكلم بلسانها فهو عربي، وبعض أهل العلم يقسم العرب إلى عرب في النسب، وعرب في اللسان، وعرب في الموطن، فمن استوطن جزيرة العرب وتكلم بلسانها وينتسب ويمتد نسبه إلى العرب فهذا هو الذي يكون عربياً من كل وجه، ومن الناس من يكون لسانه عربياً، ولا يستوطن بلادهم فهو عربي اللسان، ومنهم من يكون عربي النسب أعجمي اللسان، ومنهم من يكون غير ذلك، فالعرب معروفون، والفرق بينهم وبين الأعراب: أن الأعراب من سكن البادية، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} بمعنى أن سكان البادية يغلب عليهم الجفاء، والغلظة، ويؤثر ذلك في نفوسهم، وفي طبائعهم، فيكون ذلك مضافاً إلى نفاقهم، إن كانوا منافقين، {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} يعني ليس عندهم تهذيب، وترويض كما هو الحاصل بالنسبة لأهل القرى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول مثلاً: ((الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية))[٣]، وقال: ((من سكن البادية جفا))، وهذا الوصف الذي ذكره الله -عز وجل-: {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} ليس في كل الأعراب، وإنما في الأعراب الذين هم من المنافقين، وإلا فالطائفة الأخرى -كما سيأتي- أهل إيمان وتقوى {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ} فالأعراب منهم ومنهم، والأعراب الذين انتقلوا إلى القرى واستوطنوها يكون لهم حكم أهل القرى، فهم يحضرون الجُمع والجماعات، ومجالس العلم، وما أشبه ذلك فيحصل لنفوسهم من التهذيب كما يحصل لغيرهم من الناس، فلا فرق من هذه الحيثية بينهم وبين غيرهم، والأحاديث التي وردت والتي يفهم منها ترك التشبه بالأعراب كالنهي عن تسمية صلاة العشاء بالعتمة في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يغلبنكم الأعراب))[٤]، وما شابه هذا المقصود بها الأعراب سكان البادية، وليس كما يفهمه كثير من الناس اليوم أن من ينتسب إلى قبيلة مباشرة باسمه أنه يقال: إن هذا من الأعراب، هذا غير صحيح، وإنما المقصود الذين يسكنون البادية؛ فهؤلاء هم أهل الجفاء، والذين يسكنون القرى لو انتقلوا إلى البوادي، وبقوا فيها صاروا من أهلها، وصار لهم حكم ذلك، ومن كان أصله من البادية ثم جاء واستوطن فهو لا يكون أعرابياً، وكثير من الناس انتقلوا من البادية إلى الأمصار والقرى ونحو ذلك فلا يطلق عليهم أنهم أعراب، والشاهد أن الله -عز وجل- قال: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} يعني إن كانوا كذلك، يعني إن كانوا منافقين فنفاقهم أشد، وإن كانوا كافرين فكفرهم أشد، فإن كانوا مؤمنين فكما ذكر الله -عز وجل- في الآية الأخرى، أقول: هذا المعنى؛ لأنه يوجد من يفهم خلاف ذلك، كتب إليّ أحدُ الأشخاص رسالة في الجوال في درس التشبه -أحكام التشبه- قلت: ومن أنواع التشبه المذموم التشبه بالأعراب، وكان الكلام دقيقاً ومحسوباً، وموزونٌ فيه الحرفُ، ولو تأمله

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، برقم (٤١٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، برقم (٥٢).

٤ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، برقم (٥٧٨).

ما كتب!! فذكرتُ أن الأعراب هم سكان البادية، فقال: "هذا مفيد جداً إلا أن هذه القضية يعني فيها شيء من الإزراء على أبناء القبائل"، لا أقصد هذا والكلام ليس فيه هذا إطلاقاً.

وقوله: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بمن يستحق أن يعلّمه الإيمان والعلم، {حَكِيمٌ} فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم {مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ} أي: في سبيل الله {مَغْرَمًا} أي: غرامة وخسارة.

{مَغْرَمًا} المغرم هو ما يخرجه الإنسان، ولكنه لا يؤمن ولا يعتقد صحة مخرجه، ولكنه يشعر بأنه ملزم بهذا، يفعل ذلك تقية أو رياءً أو نحو ذلك، ولكنه لا يرجو بره ولا ذخره ولا أن هذا مخرج له وجه، فهو منتزع منه، يشعر أنه قد أُخذ منه، وأنه خسارة، ولكنه مضطر إلى إخراجه {مَغْرَمًا}، وبعضهم يُرجع أصل هذه الكلمة المغرم إلى اللزوم بمعنى أنه يشعر أن هذا الشيء يلزمه فيعطيه وهو كاره أن هذا شيء لا خلاص منه، مثل حينما يدفع الكتابي الجزية يخرجها وهو مكره {مَغْرَمًا} لأنه لا يؤمن بأن هذه الصدقة تنفعه وتقربه إلى الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه لا يؤمن أصلاً بهذه المعاني.

{وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات.

أصل الدائرة هو ما يحيط بالشيء كما هو معلوم، وتطلق الدائرة على انقلاب الحال من النعمة إلى النقمة تقلب الأحوال يقال لها: دوائر، فهؤلاء صارت الدائرة عليهم يعني انقلبت بهم الحال فتحول حالهم إلى كارثة إلى مصيبة إلى هزيمة إلى بلاء، والتربص هو الانتظار فهم ينتظر أن تقع بكم مصيبة وتحل بكم نازلة من أجل أن يستريح منكم ويتشفى، ويحصل مقصوده من ذلك، فهو منتظر لا زال يؤمّل أن يأتي ما يشغلكم، ويقطع دابركم.

{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم.

هذا من إضافة الوصف إلى صفته {دَائِرَةُ السَّوْءِ} يعني هذا دعاء عليهم بأن تدور عليهم دوائر السوء تقع لهم البلايا والمحن والرزايا والكوارث، و"السَّوء" قراءة أبي عمرو وابن كثير بالضم، ضم السين "السُّوء" والمعنى ظاهر.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} أي: ألا إن ذلك حاصل لهم.

{أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ} يحتمل أن يكون المراد النفقات يعني أنها واقعة كما أمّلوها وأرادوا لها أن تكون قربة، فهي قربة، ويحتمل أن يكون {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ} يرجع إلى أقرب مذكور وهو صلوات الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} بمعنى أن صلوات الرسول -عليه الصلاة والسلام- واستغفاره ودعاءه يقربهم إلى الله -تبارك وتعالى-، ألا إنها قربة لهم، والأقرب -والله أعلم-: أنها النفقات التي أنفقوها وقعت كما أمّلوها وأرادوا فصارت قربة لهم.

{سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يعني الجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٠ إلى الآية ١٠٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [سورة التوبة:١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه-، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديقَ الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة -رضي الله عنه-، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم -عياذًا بالله من ذلك-، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهؤلاء هم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}** أقوال المفسرين في بيان المراد من **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ}** متعددة مختلفة فمنهم من قال: هم أهل بدر، ومنهم من قال: من صلى إلى القبلتين، وهنا أيضاً قال: من شهد بيعة الرضوان إلى غير ذلك من الأقاويل المتعددة، **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ}** يدخل فيهم أهل بدر ومن صلى إلى القبلتين، ويدخل فيهم أهل بيعة الرضوان، والله -عز وجل- يقول: **{لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}** [سورة الحديد:١٠] وهذا الفتح كثير من أهل العلم يقولون: هو صلح الحديبية، وبعضهم فسره بفتح مكة، ولا شك أن الصحابة -رضي الله عنهم- على مراتب، فأعظمهم الخلفاء الأربعة، ثم بعد ذلك بقية الستة من العشرة، ثم سائر أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، فهؤلاء هم خيار الصحابة

وأفضلهم الذين شهد الله -عز وجل- لهم بالرضا، {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [سورة الفتح:١٨]، وهم أفضل وأعلى مرتبة ممن أسلم بعد الفتح، ويدخل في قوله {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ} من أسلم بعدهم من الصحابة ومن جاء بعدهم ممن لم يدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يوم القيامة {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ} كما قال الله -عز وجل- في سورة الحشر حينما ذكر الطوائف الثلاث: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ} [سورة الحشر:٨]، ثم بعد ذلك قال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة الحشر:٩]، ثم بعد ذلك قال: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ} [سورة الحشر:١٠] يدخل فيها من أسلم بعد ذلك إلى يوم القيامة من العرب وغيرهم، وهكذا قوله -تبارك وتعالى- في سورة الجمعة: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [سورة الجمعة:٣] فإن الآخرين في سورة الجمعة منهم من فسره بمن أسلم بعد هذا، ومنهم من فسره بالتابعين، ومنهم من فسره بفارس، قال وهكذا: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} قيل: في الفضل والمنزلة، وقيل: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} يعني في الزمان ما أدركوهم، يأتون من بعدهم، فالشاهد أن هذه الآيات جميعاً تذكر هؤلاء الذين يأتون من بعد المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالى عن الجميع-، وهناك في سورة الحشر وصفهم بأنهم يقولون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحشر:١٠]، فهذا يدل على كونهم يدعون لهم ولا يحملون غلًّا عليهم، ويدل على أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وأنهم يقتفون آثارهم، وكلام أهل العلم في هذا كابن عمر وغير ابن عمر -رضي الله عنهم- حينما يسمعون رجلاً يتكلم في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: هل أنت من السابقين الأولين؟ هل أنت من فقراء المهاجرين؟ يقول: لا، هل أنت من: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} الأنصار؟ فيقول: لا، فيقال: وأنا أشهد أنك لست من {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} فمن سب الصحابة -رضي الله عنهم- وعاداهم وأبغضهم كالرافضة فإنه قطعاً ليس على طريقهم ومنهاجهم، فقوله هنا: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} إلى آخره ما تكلم عنها، {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} على ظاهره إثبات صفة الرضا لله -عز وجل-، ولا يصح أن يفسر بمجرد لازمه كأن يقال: جازاهم وأحسن إليهم، وأثابهم {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} يعني أثابهم وأجزل لهم المثوبة، وأحسن لهم العاقبة، فرضوا عنه، كما جاء في الحديث في الشهداء الذين قتلوا في بئر معونة "أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا"، فـ{رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ} هذه قراءة الجمهور، وقراءة ابن كثير {تجري من تحتها الأنهار}، وبناءً على القول الراجح في الأحرف السبعة وأن عثمان -رضي الله عنه- جمع الناس على حرف واحد هو حرف قريش، وأنه أمر الناس حينما كتب في المصاحف أن يقتصروا على القراءة التي بها يقرءون ويحرقوا ما عداها من صحيفة ومصحف، فكانوا يقرءون بتلك المصاحف وهي على طريقة الكتابة آنذاك غير منقطة ولا مشكولة، فدخل في الأحرف السبعة ما يحتمله الرسم العثماني، وهو ما عرف بعد ذلك بالقراءات، وهذه التي في هذا المثال في هذه الآية {تَجْرِي تَحْتَهَا} و{تجري من تحتها} هذه كتبها عثمان -رضي الله عنه- في مصحف هكذا، وفي مصحف هكذا، وهذا يدل على أنها من حرف قريش، فما كان من حرف قريش كهذه ومثل: {بِالْبَيِّنَاتِ

{وَالزُّبُرِ} [سورة النحل:٤٤]، و{بالزبور} فظاهر هذا يكون كله مرجعه إلى حرف قريش فكتبها بالمصحف بهذه اللفظة وباللفظة الأخرى في مصحف آخر.

{ومِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [سورة التوبة:١٠١].

يخبر تعالى رسوله -صلوات الله وسلامه عليه - أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضا منافقون {مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

{مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} كلمة مرد تدل على التجرد، تقول: أرض مرداء، يعني لا نبت فيها، وفرس أمرد يعني لا شعر عليه، وغصن أمرد يعني لا ورق فيه، فهذا معنى المَرَد **{مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ}** كأنهم تجردوا للنفاق يعني أنهم منافقون نفاقاً خالصاً، فمن الناس من يكون فيه شعبة من نفاق، عنده نفاق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[1]، فالمؤمن قد يجمع بين الإيمان وشيء من صفات المنافقين، لكن هؤلاء مردوا على النفاق يعني أنهم خلّص، واللفظة هذه تشعر أيضاً بأنهم قد حذقوا وتمرسوا على التلون؛ لأن لفظة مرد كما تدل على التجرد تدل على ملاسة وليونة، فهذا يعطيك -مثل جلد الحرير - ملمساً ناعماً ويستطيع في كل مقام أن يتحدث باللغة التي تناسب هذا المقام، ويتلون بحسب مقتضى الحال، متمرس، وليس أخرق يمكن أن يأتي بواقع ويخبط ويخلط في المجلس الواحد، وإنما يتكلم بطريقة مناسبة، إذا تكلم أعجبك كلامه كما قال الله -عز وجل -: **{وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}** [سورة المنافقون:٤]، فهذا يحسن التمثيل، يحسن النفاق بحيث لا يستطيع كثير من الناس أن يعرفوا نفاقه، أو أن يثبتوا عليه ذلك.

وقوله: {لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} لا ينافي قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} الآية [سورة محمد:٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا، وإن كان يراه صباحا ومساء، وتقدم في تفسير قوله: {وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا} [سورة التوبة:٧٤] أنه -صلى الله عليه وسلم - أعلَمَ حُذَيفةَ بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح -عليه السلام -: {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الشعراء:١١٢]، وقال نبي الله شعيب -عليه السلام -: {بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [سورة هود:٨٦] وقال الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم -: {لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ}.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٨).

بمعنى أن هذا الأثر الذي هو مستنبط من هذه الآية يدل على معنى عظيم وهو الطريقة التي كان عليها السلف -رضي الله عنهم -، أنه ما كان شغلهم في الأشخاص فلان فيه وفلان ما فيه، فلان فعل وفلان ترك، ثم يختلفون هل هو كذلك أو ليس كذلك، ثم بعد ذلك يتعادون وكل واحد يتهم الآخر، ما كان السلف بهذه الطريقة، كان السلف -رضي الله عنهم - يحذرون مما حذر الله منه، وينكرون المنكرات، ولا يكون شغلهم بعد ذلك هل فلان بفعله هذا فسقَ أو لا؟ هل اجتمعت فيه الشروط وانتفت الموانع أو لا؟ فواحد يقول: فسق، والثاني يقول: لم يفسق، ثم ينقسمون إلى فرقتين كل فرقة تلعن الثانية، فالسلف كانوا على غير هذه الطريقة، فهذه طريقة الجهال وأصحاب الهوى، السلف ما كانوا بهذه الطريقة، يأتي الشاب ما ثني ركبته في مجلس علم يوما واحدا، ولا رأيته في يوم واحد يطلب العلم ومعه دفترا! فلان كافر أو لا؟! أسئلة كلها عن العذر بالجهل وتكفير المعين، تسأله تقول: ماذا درست من العلم؟ وعلى من قرأت؟ ما هي الكتب التي درستها؟ يقول: ما علاقة هذا بهذا؟ مع أنه يسأل عن كبار العلم؟ مسائل تتعلق بالعذر بالجهل، وتكفير المعين، فالسلف يحذرون مما حذر الله -عز وجل - منه، هذا لا يجوز، هذا حرام هذا كفر، ولذلك لما وقعت مسألة القول بخلق القرآن حذروا منها، وأفتى خمسمائة من علمائهم -رضي الله عنهم - بكفر من قال بخلق القرآن، لكن ما تحولوا بعد ذلك إلى معركة فيما بينهم وانقسموا إلى سبعين فرقة، هل المأمون كافر أو لا؟ هل المعتصم كافر أو لا؟ وهل المتوكل كافر أو لا؟ وكذلك ابن أبي دؤاد كافر أو لا؟ أبداً هذا لم يحصل بينهم، هذه أمة واحدة مجتمعة، فهذه المسائل يعني الحكم على الإنسان المعين أنه فسقَ أو صار مبتدعاً، أو أنه صار كافراً يحتاج إلى اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، ولستَ معنياً أنت بهذا، ويقال لهذا الشاب: لستَ معنياً بهذا، لا حاجة لك بهذا الدفتر، اطلب العلم، ادرس الأصول الثلاثة، والقواعد الأربعة، ومسائل الجاهلية، وكتاب التوحيد، والواسطية، والحموية، ادرس العلم، ادرس الحديث والأصول والتفسير، وهذه العلوم كلها مترابطة، وآخر ما تدرس هي مسائل العذر وما العذر، والذين يكتبون في هذا غالباً الذي يقرأ وهو خالي الذهن يقرأ لهذا، هذا كلام شيخ الإسلام، وكلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكلام من الدرر السنية، هذا كلام ممتاز، لكن في كلام آخر لهم ونفس العالم له كلام آخر في موضع آخر، هو في مقام الرد يقول كلاماً، وفي مقام التقعيد والتنظير يقول كلاماً آخر، هذه الرسالة كتبت في مناسبة معينة للتحذير من كذا، فما تجعل هي القاعدة فيأتي الذي هو خالي الذهن يقول فقط هذا الكلام!! هذا كلام العلماء صريح!!، ويأتي الشخص الذي في الضفة الأخرى، ويأتي بكلام آخر لهم ينقله من كتبهم، يقول: هذا كلامهم، ويأتي من يقرأ وهو خالي الذهن صادف قلباً خاوياً فتمكنا، هذه مشكلة!! فلو اشتغلنا بهذا نبين للناس الحق ودين الله -عز وجل - الذي بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ونحذرهم ما حذرهم الله منه، وبعد ذلك لا نبدأ نمسك هذا وهل تنطبق عليه الشروط؟، هو فعل هذا أو ما فعله؟، ويأتي الإنسان ما عنده مبادئ من العلم، ويريد أن يكون حاكماً، وقاضياً ومنفذاً أحياناً!! فهذا خطأ! خطأ! وافتراق الناس على أن فلاناً جيد أو غير جيد كله من عمل الشيطان، لا يفعله إلا من كان جاهلاً لا يعلم ما يجب به الافتراق ونحو هذا، أو عنده هوى!! وأحياناً يجمع بين الجهل والهوى، مستعد أن يرمي من خالفه في هذا بكل قبيحة، فهذا الكلام عن قتادة -رحمه الله - كلام جيد مفيد. والله المستعان.

وقال مجاهد في قوله: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} يعني: القتل والسباء وقال -في رواية -: بالجوع، وعذاب القبر.

يعني هنا {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} الله -عز وجل - لم يبين لنا هاتين المرتين؛ لأنه لا حاجة لنا بهذا، هو سيتولى تعذيبهم وليس لنا ذلك فحسابهم على الله -عز وجل -، وبعض العلماء يقول: ما يحصل لهم من التعذيب في الدنيا بالأموال والأولاد، والمرة الثانية في عذاب النار، وبعضهم يقول: المرة الثانية هي عذاب القبر؛ لأن الله قال: {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} يعني عذاب النار، والذين قالوا: إن المرة الثانية هي عذاب النار، قالوا: إنهم يعذبون عذاباً خاصاً، المرة الثانية في النار ثم بعد ذلك يردون إلى عذاب عظيم، إلى العذاب الشامل عذاب أهل النار، وبعضهم يقول: يعذبون في النار ثم يردون إلى الدرك الأسفل منها، وبعضهم يقول: العذاب في الدنيا أخذ الزكاة منهم، وفضيحتهم، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة، ولا حاجة إلى تعين هذا، ولا دليل على تعين هذه الأمور، والله أخبرنا إنه سيعذبهم مرتين، يحتمل أن يكون هذا ما يحصل لهم في الدنيا من الفضيحة، وكراهية المؤمنين لهم، وأنهم يشعرون دائماً بهاجس وقلق وخوف وانزعاج فلا تقر أعينهم، ويعذبون بهذه الأموال والأولاد، والتي من أجلها وقعوا في النفاق، والمرة الثانية عذاب القبر، يحتمل هذا، لكن لا توجد حاجة إلى تحديد هذه الأمور، والله -عز وجل - لم يحددها.

{ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما العذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [سورة التوبة:٨٥].

ولهذا ابن جرير -رحمه الله - قرر أن التحديد لا دليل عليه، وأن الاحتمال قائم، لكنه ما يقول لا يبعد أن يكون المراد عذابهم في الدنيا بأموالهم وأولادهم، وفضيحتهم وعذابهم الثاني في القبر {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} وهو عذاب النار.

فهذه المصائب لهم عذاب -وهي للمؤمنين أجر - وعذاب في الآخرة في النار {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} قال: النار.

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٢].

لما بَيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزَاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكا، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمال أُخرَ صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلِّطين المتلوثين.

وقال ابن عباس: {وَآخَرُونَ} نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي -صلى الله عليه وسلم - من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فلما أنزل الله هذه الآية: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} أطلقهم النبي -صلى الله عليه وسلم -، وعفا عنهم.

وروى البخاري عن سَمُرَة بن جُنْدَب -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لنا: ((أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ولَبِن فضة، فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت رَاءٍ، وشطْرٌ كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَن وشطرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، فتجاوز الله عنهم))[٢]، هكذا رواه البخاري مختصرًا، في تفسير هذه الآية.

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة التوبة:١٠٣ - ١٠٤].

أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم - بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضُهم الضمير في "أموالهم" إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا.

يعني {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} أي من أموال المؤمنين، {صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} يعني الزكاة، وبعضهم قال: إن هذا يرجع إلى ما قبله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا}، {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً}، وهذه الصدقة بعضهم يقول: هي صدقة خاصة يتطهرون بها كما جاء عن كعب بن مالك -رضي الله عنه - أنه بذل ماله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما تاب الله عليه قال: "إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من جميع مالي"[٣]، فالشاهد أن تصدقهم يكون له هذا الأثر {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}، والضمير "الهاء" في الموضعين {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} قيل: يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -، {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} أنت، وبعضهم يقول: إن الأول للصدقة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} أنت بأخذك إياها تزكيهم بها، والقاعدة أنه مهما أمكن توحيد مرجع الضمائر فإنه أولى من تفريقه، وعلى هذه القاعدة يمكن أن يقال: إن الضمير في الموضعين يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} أنت، والقول الآخر أيضاً تحتمله الآية.

ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًا برسول الله -صلى الله عليه وسلم -؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} الآية وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديقُ أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عِقالا -وفي رواية: عَناقًا - يُؤَدُّونه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لأقاتلنهم على منعه.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٢]، برقم (٤٣٩٧).

٣ - رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا نذر ثم أسلم قبل أن يفي، برقم (٣٨٢٣).

وقوله: **{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}** أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أُتِيَ بصدقة قوم صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: **((اللهم صلِّ على آل أبي أوفى))**[٤].

وقوله: {إِنّ صَلاتك}: قرأ بعضهم: "صلواتك" على الجمع.

هذه قراءة الجمهور خلافاً لحمزة وحفص والكسائي قرءوه بالإفراد، ولا منافاة بين القراءتين كلاهما يرجع إلى شيء واحد؛ لأن **{صَلاتك}** صلاة هذا مفرد مضاف إلى كاف الخطاب، مضاف إلى معرفة، والمفرد إذا أضيف فإن ذلك يكون بمعنى الجمع، يعني يكسبه العموم فـ **{صَلاتك}** و"صلواتك" المعنى واحد.

وآخرون قرءوا: {إِنَّ صَلاتَكَ} على الإفراد.

{سَكَنٌ لَهُمْ} قال ابن عباس: رحمة لهم.

يعني السكن هو ما تسكن إليه النفس وتطمئن به، فتسكن نفوسهم بما يحصل لهم من الرحمات بسبب هذه الصلوات وهي دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم.

وقوله: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ} أي: لدعائك {عَلِيمٌ} أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ} هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

من أهل العلم من يقول: إن هذا الخطاب **{أَلَمْ يَعْلَمُوا}** لغير التائبين يحرضهم على التوبة يحثهم عليها، وبعضهم يقول: إن هذا لهؤلاء الذين تابوا، الخطاب للذين تابوا قبل أن يقبل توبتهم كما سيأتي في آخر السورة **{لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}** [سورة التوبة:١١٧] إلى أن قال: **{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ}** [سورة التوبة:١١٨] فخصها بعض أهل العلم بهؤلاء، ومن أهل العلم -كابن جرير- من حملها وخصها بالذين أوثقوا أنفسهم، فالصحابة -رضي الله عنهم- الذين تخلفوا الثلاثة جاءوا واعتذروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقوا ينتظرون، ومن الصحابة من أوثق نفسه حتى يتوب الله عليه، يعني لا يفك وثاقه حتى يتوب الله عليه، فابن جرير -رحمه الله- حملها على هذا المعنى، **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ}**، يعني ابن جرير -رحمه الله- يقول: لماذا يفعلون هذا بأنفسهم ويقولون لا نطلق وثاقنا حتى يطلقنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ كان يكفيهم أن يتوبوا إلى الله، فإن التوبة تكون لله وليسوا بحاجة إلى هذا، هكذا خصها بهؤلاء، وعلى أساس هذا هم **{اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا}**.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربِّيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم مُهره، حتى إن اللقمة لتَصير مثل أحد))[٥]، وتصديق ذلك في كتاب الله، -عز وجل-: {أَلَمْ

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، برقم (١٠٧٨).

٥ - رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، برقم (٦٦٢)، وقال الألباني: صحيح لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٨٥٦).

يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ}، وقوله: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}
[سورة البقرة:٢٧٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٥ إلى الآية ١٠٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [سورة التوبة:١٠٥].

قال مجاهد: هذا وَعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرضُ عليه -تبارك وتعالى-، وعلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٨]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [سورة الطارق:٩]، وقال {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [سورة العاديات:١٠] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، وقال البخاري: قالت عائشة، -رضي الله عنها-: إذا أعجبك حُسن عمل امرئ فقل: {اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقول مجاهد: إن هذا وعيد إذا ضم إليه قول عائشة -رضي الله تعالى عنها- نخرج من ذلك بأنه وعيد للمنحرفين الظالمين، وهو حث وتنشيط وتبشير للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فالآية فيها هذا الأمر العام للجميع {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} اعمل وسيظهر هذا العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنتم شهداء الله في الأرض))[1]، فالله مطلع على الأعمال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته يرى عملكم فيما يراه منه أو يبلغه، ويراه أهل الإيمان، فمن الناس من يكون مُجداً في طاعة الله -تبارك وتعالى- فيكون ذلك تنشيطاً له، ومن الناس من يكون مقصراً في طاعة الله مُجداً في معصيته ومخالفة أمره فهذا وعيد له؛ ليرعوي، فإن الله مطلع عليه، وأهل الإيمان يرون عمله ويكرهونه، ويدل على ذلك حديث أنس -رضي الله عنه- التالي.

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره -أو: بُرهَة من دهره- بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحًا، وإذا أراد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، برقم (١٣٠١)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب فيمن يُثنَى عليه خير أو شر من الموتى، برقم (٩٤٩).

الله بعبد خيرًا استعمله قبل موته))، قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟، قال: ((يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه))[٢] تفرد به أحمد.

هذا الحديث الصحيح يدل على معنى كبير وهو أن الناس يعملون ثم بعد ذلك تنكشف بعض الحقائق التي قد تكون خافية على الناس، وذلك من جهة حال هذا الإنسان، وما يصير إليه، فعلّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم - لئلا نتعلق بأحد من الناس، أو نبالغ في الثناء عليه أو نجعله إماماً نذب عن أقواله، ونشتغل بالمدافعة عنه، وبتقديمه ومحبته، وتقديسه وإطرائه، ثم بعد ذلك تتغير الحال ويصير هذا الإنسان الذي كان يعمل عملاً صالحاً يعجب منه الناس أصبح يعمل بخلاف ذلك فيُسقَط بأيدي هؤلاء الناس ويحبط كثيرون!! ولهذا قال ابن مسعود -رضي الله عنه - : "من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة"[٣]، ولذلك:

أحبِبْ حبيبَك هوناً ما *** عسى أن يكون بغيضك يوماً ما

فالذين يبالغون في المدح، ويبالغون في المحبة والإطراء والتقديم فهؤلاء قد يندمون على ما بذلوا من جهود كبيرة وأضاعوا من أوقات طويلة بالدفاع عن فلان، وبيان منزلة فلان وما شابه ذلك، فالله -عز وجل - لا يضيع عنده شيء، والأمة تعرف الصادق من الكاذب ومن يمثّل، يعني ليست النائحة الثكلى كالمستأجَرة، لابد أن يظهر ويتبين ولو بعد حين، والله المستعان.

{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٦].

قال ابن عباس ومجاهد وعِكرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية -رضي الله عنهم -، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكًّا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه -رضي الله عنه -، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ} الآية [سورة التوبة:١١٧]، {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} الآية [سورة التوبة:١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: {إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو {عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

هنا في هذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله - هذا المعنى من أحسن ما قيل فيها، يعني هناك قال الله -عز وجل -: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} فحُمل على أولائك الذين ربطوا أنفسهم بالسواري، وقد جاءت بعض الروايات التي تصح من مجموع طرقها، وتدل على هذا المعنى، وهناك من أُخّر أكثر من ذلك كما هو معروف في حال الثلاثة {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}، وأولائك قال فيهم: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [سورة التوبة:١٠٣]،

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٢٢١٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣ - رواه البيهقي موقوفاً في السنن الكبرى، برقم (٢٠١٣٦)، وضعفه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٩٣).

والروايات الواردة في هذا كثيرة لكن من هذه الروايات مثلاً: عن ابن عباس عن طريق علي بن أبي طلحة وهذا إسناد حسن، قال: جاءوا بأموالهم يعني أبا لبابة وأصحابه حين أطلقوا، هم أوثقوا أنفسهم فنزلت توبتهم فأُطلقوا فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا، فأنزل الله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} فهذه غير الزكاة، وإنما هي صدقة، {وَتُزَكِّيهِم بِهَا} قال: يعني بالزكاة، يقول ابن جرير: يعني الزكاة طاعة الله والإخلاص {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} يعني استغفر لهم فالشاهد أن هؤلاء هم الذين اعترفوا بذنبهم، ثم بعد ذلك جاء هؤلاء {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ} قال: أي مرجئون لأمر الله وقضائه، بمعني مؤخرون، ثم ذكر الأقوال في هؤلاء، ومما ذكر أن هؤلاء أناساً ندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا عند قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري فأرجأ أمرَهم إلى أن صحت توبتهم، فتاب الله عليهم ثم ذكر الأقوال في هذا.

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة:١٠٧ -١٠٨].

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} هذه قراءة الجمهور بالواو، وفي القراءة الأخرى قراءة ابن عمر وأهل المدينة {الَّذِينَ اتَّخَذُوا} بدون واو، و ذلك يرجع إلى حرف قريش، يعني ما كان بحرف قريش كتبه عثمان -رضي الله عنه- في مصحف هكذا، وفي مصحف هكذا؛ لأنه جمع الناس على حرف واحد، وهنا قال: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} فعلى القراءة بـــ"الواو" يمكن أن تكون الواو عاطفة على ما سبق، وهو بعدد أوصاف المنافقين منهم كذا، ومنهم كذا، ومنهم كذا، والذين تخلفوا عن غزوة تبوك منهم من اعتذر بأعذار كاذبة، ومنهم من كان صادقاً واعتذر بكذا ثم ذكر {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا}، وعلى القراءة بغير الواو {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} تكون جملة مستقلة مستأنفة، ويكون الاسم الموصول "الذين" مبتدأ، والخبر اختلفوا فيه، فبعضهم قال: {لاَ تَقُمْ فِيهِ} الخبر، وقيل غير ذلك، والاتخاذ بمعنى الإعداد والارتقاب وما شابه ذلك من المعاني، وبعضهم يزيد عليه، يقول: كلمة الاتخاذ بمعنى الإعداد ولكنه إعداد بعناية، يعني ليس مطلق الإعداد، وإنما إعداد بعناية، إعداد خالص تقول: "اتخذت فلاناً خليلاً"، و"اتخذت فلاناً صديقاً"، و"اتخذت الكتاب جليساً" وهكذا، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} هذا يدل على أنهم اعتنوا بهذا المسجد، وصاروا يقضون أوقاتهم فيه، ويتخلفون عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} ضرراً يعني مضارة، فهم أرادوا أن يفرقوا الناس عن مسجد قُباء؛ لأن هذا المسجد كان قريباً من قُباء، فأرادوا تفريق الناس عنه، وبعض أهل العلم -كابن جرير- يقول: أرادوا تفريق الناس عن مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والمشهور أنهم أرادوا تفريقهم عن مسجد قباء ولا يمتنع هذا وهذا، فهم يفرقون الناس الذين يأتون إلى مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلون معه، والذين يصلون في قباء لربما جذبوا طائفة منهم فــ {اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} بهذا الاعتبار، يعني يصلون معهم ويفرقون الجماعة {وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ} فالإرصاد بمعنى الإعداد أو الارتقاب، وبعضهم يزيد عليه أن يكون ذلك بعداوة {وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ} لكن هنا يفسر بالإعداد

وبالارتقاب، **{حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ}**، يحتمل أن يكون يعنى به أهل النفاق الذين حاربوا **{اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ}** يعني من قبل بناء المسجد، وجاء في كثير من الروايات أن المقصود بهذا هو أبو عامر الراهب، هذا الرجل كان محسوباً على الأنصار، وكان قد تنصر قبل الإسلام، وتعبد حتى لقب بالراهب، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- والإسلام لم يقبل الإسلام وذهب إلى المشركين في مكة بعد غزوة بدر لما انتصر المسلمون ذهب يحرض المشركين!! وجاء معهم في غزوة أحد، ووعدهم عند التقاء الصفين أنه سيخرج ويعرفه قومه، ثم بعد ذلك يدعوهم إلى الالتحاق بجيش المشركين!! وعندئذ تحدث الهزيمة للمسلمين قبل القتال!! يلتحق الأنصار به وكذا، ويقال: إنه الذي حفر الحُفر بميدان المعركة بين الصفين قبل بدئها فسقط النبي -صلى الله عليه وسلم- في إحدى الحفر وشج وجهه -صلى الله عليه وسلم- وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، فالشاهد أن أبا عامر الراهب ظهر لهم في يوم أحد وقال لهم: أنا فلان وكذا فسبوه وأقذعوا في سبه وشتمه وكذا، فخاب ظنه، وقال للمشركين: لقد أصاب قومي بعدي شراً، يعني ما هم بالقوم الذين كنت أعرفهم يثقون بي ويقدرون عبادتي وتنسكي، فالشاهد أن الرجل بعد ذلك ذهب إلى الروم لما رأى أن المشركين ما حصلوا كبير طائل، ولا يمكن أن يستأصلوا المسلمين ذهب إلى الروم يطلب منهم المدد بجيش يأتي به إلى المدينة لاستئصال المسلمين!! وقال للمنافقين: اتخذوا لكم مكاناً تتوجه إليه الرسل، يعني والكتب ليرسلها لهم، مكان معين معقل يجتمعون فيه، بحيث يكون هناك تجمع، انحياز، إذا أرسل مندوباً أو أرسل وفداً يأتون إلى هذه المجموعة المنحازة، وفي ذلك الوقت ما يمْكن هذا إلا أن يظهر بصورة مسجد!! فوضعوا لهم مسجداً وطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يصلي لهم فيه؛ من أجل أن يكون هذا المسجد مُقرًّا من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا شُبه فيه، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- خارجاً إلى تبوك فآجلهم إلى أن يرجع، ثم أوحى الله إليه عند مقدمه إلى المدينة بحال هذا المسجد وأهله فأُهدم وأحرق.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهبُ.

بعد ذلك صار يسمى أو يلقب بأبي عامر الفاسق.

وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قَدم رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه -صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمرَ الرسول -صلوات الله وسلامه عليه - في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي -صلى الله عليه وسلم -، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه مَن يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي -صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته -عليه السلام -، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله.

فلما قفل -عليه السلام - راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم -مسجد قُباء - الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجنود من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم - فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله -عز وجل -: {لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} إلى {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

في ذلك الزمان أفضل جيل ورأوا النبي -صلى الله عليه وسلم - وعاشروه، وعرفوا أحواله، وصدقه، ومع ذلك ينتظرون الروم متى يأتون حتى ينشروا لهم الحرية!! -نسأل الله العافية -، في ذلك الزمان فلا يستغرب من المنافقين في أي عصر من العصور إذا كان هذا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم -، وهذه الجهود والمحاولات فكيف بغيره من الأزمان؟! فما على المؤمن إلا أن يعمل بطاعة الله ويجد ويجتهد في نشر دينه، والله -عز وجل - يوفق من يشاء إلى ما شاء فيستعمل أقواماً في طاعته، ويخذل آخرين فيكونون من أولياء الشيطان وحزبه، والله المستعان، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَلَيَحْلِفُنَّ} أي: الذين بنوه {إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى} أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارا لمسجد قباء، وكفرا

بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: "الراهب" -لعنه الله.

وقوله: {لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} نهيٌ له -صلى الله عليه وسلم -، والأمة تَبَع له في ذلك عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدا.

النهي عن القيام يستلزم النهي عن الصلاة، فالصلاة يقال لها: قيام كقيام الليل، قام ليلة، قام يصلي ((وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه))[٤] فلا إشكال في هذا.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعا لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((صلاة في مسجد قُباء كعُمرة))[٥].

الحافظ ابن كثير يرى أنه مسجد قباء، باعتبار السياق، والسياق ظاهر أنه في مسجد قباء، والقول بأنه مسجد قباء قال به جماعة من السلف، ومروي عن ابن عباس والضحاك، والحسن، والشعبي، وابن جرير -رحمه الله - يقول: إنه مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم -، وهذا قال به طائفة، وبناءً على ذلك فسر قوله -تبارك وتعالى -: {اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} بمعنى أنهم يفرقون الناس عن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم -، وعلى كلٍّ مستند ابن جرير -رحمه الله - ومن وافقه على هذا هو الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه أنه اختلف رجل خدري مع آخر عوفي كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه - اختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال الخدري: هو مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم -، وقال العوفي: هو مسجد قباء، فاحتكموا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال: ((هو مسجدي هذا))[٦]، وهو حديث صحيح نص على أن المسجد مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم - فإذا نظرت إليه بهذا الاعتبار تقول: إنه المسجد النبوي وإن كان السياق في مسجد قباء، فالتفسير النبوي إذا صح فإنه لا يعارض لا بسياق ولا بقول أحد كائناً من كان، لكن القول بأنه مسجد قباء لا ينافي هذا، وقد صحت بعض الأحاديث بشواهدها ومجموع طرقها أن المراد به مسجد قباء، وصح ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم - كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - الذي رواه بعض أصحاب السنن كأبي داود والترمذي

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، برقم (٨٩٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، برقم (٧٥٧).

٥ - رواه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، برقم (٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، برقم (١٤١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣١٩).

٦ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

وابن ماجه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح بأن المراد به مسجد قباء، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نزلت هذه الآية في أهل قباء **{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}**))[٧]، وكذلك صح أيضاً عن عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- نحو هذا، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم عن سبب ثناء الله -عز وجل- عليهم، سأل أهل قباء، فمثل هذه المرويات لا تعارض ما صح عنه -صلى الله عليه وسلم- بأنه مسجده -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد ولسنا بحاجة إلى أن نرجح ونقول الرواية التي في صحيح مسلم مقدمة على هذه الروايات، وذلك من وجه الجمع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ما هو أولى بهذه الصفة وأحق، وهو مسجده -صلى الله عليه وسلم- وهذا لا إشكال فيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفسر الآية بالأحق في الاتصاف بها، وقد يفسرها بجزء معناها، وقد يفسرها بلازمه، وقد يفسرها بأن يحملها على معنى باعتبار اللفظ الأعم وإن كانت نازلة في غيره، وفي حديث أبي سعيد يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- حمل الآية على الأحق بهذه الصفة، فلا شك أن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بهذا الوصف أنه **{أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}** أولى من مسجد قباء، لكن هذا لا ينفي عن مسجد قباء هذه الصفة، فمسجد قباء أسس على تقوى من أول يوم، هذا وجه الجمع بين هذه المرويات والأحاديث وما دل عليه السياق، والله أعلم، فمن قال بأن الآية في أهل قباء فإن قوله صحيح، ومن قال هو مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون فسرها بالأولى بهذا الوصف، والله أعلم.

وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يزورُ مسجد قُباء راكبًا وماشيًا[٨].

مثل هذا، والأحاديث الواردة في مسجد قباء لا تدل على ترجيح في هذا الموضوع، وإنما تدل على فضل مسجد قباء فقط.

وفي الحديث: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّن له جِهَةَ القبلة، فالله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري -رضي الله عنه-: أنه حَدّثه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتاهم في مسجد قُباء، فقال: ((إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطَّهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟))، فقالوا: والله -يا رسول الله- ما نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا[٩]، ورواه ابن خُزيمة في صحيحه.

---

٧ - رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، برقم (٤٤)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣١٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٩٦٠).

٨ - رواه البخاري، أبواب التطوع، باب مسجد قباء، برقم (١١٣٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته، برقم (١٣٩٩).

٩ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٤٨٥)، وقال محققوه: "حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف، أبو أويس -وهو عبد الله بن عبد الله المدني- قد تكلم فيه الأئمة من جهة حفظه، وشرحبيل: هو ابن سعد أبو سعد الخطمي، ضعيف، وقال ابن حجر في "تهذيب التهذيب" ١٥٨/٢: "وفي سماعه من عويم بن ساعدة نظر، لأن عويماً مات في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويقال: في خلافة عمر -رضي الله عنه"."، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود، (٧٥/١)، في كلامه على الحديث رقم (٣٤).

يعني الروايات الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً، وكثير منها ضعيف، منها ما يتقوى، ومنها ما هو من قبيل الحسن، ومثل هذه الرواية هي مما يقوّي ما ذكرتُ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يسألهم ما هذا الشيء الذي أثنى الله عليكم به، وهو يقصد هذه الآيات **{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}** فهذا كله يؤيد أن السياق، وأن الآيات في مسجد قباء، ومسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذه الصفة، يعني لو كان المراد **{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}** غير الطهارة التي هي طهارة الإيمان فإن هذا يمكن أن يكون مختصاً أو شبه مختص بأهل قباء؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم عن هذا، لمّا قالوا له -في بعض الروايات التي فيها ضعف- إنهم يغتسلون غسل الجنابة ويتوضئون وكذا، سألهم عن شيء آخر، يعني هذا أمر يشتركون فيه مع غيرهم من المؤمنين فلما ذكروا له هذه القضية لم يطلب غيرها أي أنها هي السبب، وهذا يرجح أن الطهارة هنا ليس المراد بها طهارة الإيمان وصلاح العمل والحال والقلب، وإن كانت هذه طهارة **{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}** يعني بعضهم قال: طهارة الإيمان **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}** [سورة الأعلى:١٤] يعني زكى نفسه بالإيمان، هكذا حتى فسروا قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** [سورة الشمس:٩] زكى نفسه بطاعة الله، وبالإيمان بالله وبرسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه وإن كان يقال لها: تزكية، ويقال لها: طهارة إلا أن المقصود هنا -والله أعلم- طهارة أخرى، وهي الطهارة المذكورة في هذا الحديث، وبعضهم حمل الطهارة على معنى آخر بعيد.

وقوله: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلَّى بهم الصبح فقرأ بهم الروم فأوْهمَ، فلما انصرف قال: ((إنه يَلبِس علينا القرآنَ أن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء))[١٠].

فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

قوله: **((إنه يَلبِس علينا القرآنَ أن أقواما...))** يعني بسبب هؤلاء، فدل ذلك على أن صلاة الإمام تتأثر بحال المأموم، تتأثر إما بجهةٍ مِن ظاهره وهي أن المأموم يقرأ مع الإمام مثلا كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم لتقرءون خلف إمامكم))[١١]، وإما بسبب خفي وهو ما يحصل من إخلال المأموم أحياناً حتى في الطهارة، فتتأثر صلاة الإمام، فهناك أشياء غير مدركة بالنسبة إلينا كثيرة جداً، يعني الله -عز وجل- أعلم

---

١٠ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٨٧٤)، وقال محققوه: "حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لإرساله"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٢٢).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، برقم (٨٢٣)، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٨٥٤).

بها كيف تقع، حتى في التثاؤب، فلو تثاءب شخص ثم التفت فإذا بآخر يتثاءب ولو لم يره، في نفس الوقت!، إلى غير ذلك من الأمور لمن تأمل في أحوال الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٠٩ إلى الآية ١١٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٠٩ -١١٠].

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبنى هؤلاء بنيانهم {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} أي: طرف حُفيرة مُثالة {فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-: رأيت المسجد الذي بُني ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} أي: شكًّا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا في قلوبهم، كما أُشرب عابدو العجل حبَّه.

وقوله: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} أي: بموتهم، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بأعمال خلقه، {حَكِيمٌ} في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} يقول الحافظ -رحمه الله-: **فإنما يبنى هؤلاء بنيانهم {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ}**، قال: **أي طرف حُفيرة**، {عَلَى شَفَا جُرُفٍ} الشفا يعني الشفير، {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} أي شفير جُرُف، والجُرُف ما يتجرف بالسيول، وفسره بعضهم بالذي يذهب أصله ويبقى كأنه معلق، فهو يسقط بأدنى ملابسة، فهو سريع السقوط، و{جُرُفٍ هَارٍ} أي ساقط، فهؤلاء بنوا على غير أساس من تقوى الله -عز وجل- وإرادة ما عنده، فكان بنيانهم بهذه الهشاشة والضعف المتناهي كالذي أسس بنيانه على هذا المكان الذي لا ثبات له بحال من الأحوال، {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} أي وقع وسقط به في نار جهنم، وقال هنا: {لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في معناه هو من أحسن ما قيل

في تفسيره، يعني أن هذا الصنيع تسبب عن نفاق دائم وشك يصاحبه قلق في نفوس هؤلاء يلازمهم إلى الوفاة، والجزاء من جنس العمل، كما قال الله -عز وجل -: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة:٧٧]، فالله -عز وجل - يجازي عباده على أعمالهم السيئة، تارة بالطبع على القلب، وتارة بالنفاق الدائم حتى يموت الإنسان عليه، إلى غير ذلك من ألوان العقوبات فقوله: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} يعني بموتهم، هذا هو الأقرب، ومنهم من قال: {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} يعني بالندم، وهذا فيه بُعد، والأقرب ما ذكره الحافظ -رحمه الله - هنا {إِلا أَنْ تَقَطَّعَ}، يعني إلا أن يموتوا بمعنى أن هذا النفاق مستمر إلى الموت لا يفارقهم ولا يزول عنهم.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:١١١].

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة.

يعني هذا معنى الشراء أنه معاوضة، وسبق الكلام على قوله: {اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} [سورة البقرة:١٧٥]، اشتروا الكفر بالإيمان، وأصل الشراء هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر، ويعبر عنه بعبارات أخرى مقاربة، وقد سبق الكلام على هذا في أول الكلام على البيوع من العمدة، فالشاهد: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} فالنفوس والأموال مبيع والثمن هو الجنة.

وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايَعهم –والله - فأغلى ثمنهم.

وقال شَمِر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله -عز وجل - في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية.

ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قَبِل هذا العقد ووفى به.

وقوله: {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} أي: سواء قَتَلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة.

وفي القراءة الأخرى قراءة حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول {فيُقتَلونَ ويَقتُلون} وهذا مما يحتمله الرسم العثماني، وهو وجه من أوجه التغاير في الأحرف السبعة بالتقديم والتأخير.

ولهذا جاء في الصحيحين: "وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة".

وقوله: {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا} [سورة النساء:٨٧]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [سورة

النساء:١٢٢]؛ ولهذا قال: **{فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة:١١٢].

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير ووافقه عليه ابن جرير معناه أن هذه الأوصاف المذكورة ترجع إلى ما سبق، {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} التائبين العابدين الحامدين السائحين هؤلاء هم الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فهذا فردٌ لأوصافهم، وتفصيل لها، وقرأ ابن مسعود -رضي الله عنه- وهي قراءة ليست متواترة - بالجر "التائبين العابدين" إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين...إلى آخره، بمعنى أن يكون هذا تفصيلاً لما سبق، الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم من هم؟ هم هؤلاء، وهنا الرفع في القراءة المتواترة يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هم {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}، فيكون هذا يرجع إلى ما سبق {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} هم {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ} هؤلاء هم الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، ويحتمل أن يكون {التَّائِبُونَ} مبتدأ وتكون جملة جديدة، يعني الله -تبارك وتعالى- ذكر أوصاف الأولين {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} هذه طائفة ممن يدخلون الجنة، والطائفة الثانية هم أصحاب هذه الأوصاف، {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ} {التَّائِبُونَ} مبتدأ، وما بعده معطوف عليه، والخبر مقدر يعني لهم الجنة، فيكون الذين وُعدوا بالجنة هم الطائفتين، الطائفة الأولى هم الذين {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}، والطائفة الثانية هم أصحاب هذه الأوصاف، وعلى القول الأول كل هذا طائفة واحدة موصوفة بهذه الأوصاف، فأولائك الذين يقاتلون في سبيل الله يجب أن تتحقق فيهم هذه الأوصاف على القول الأول المشهور أن يكونوا من التائبين العابدين الحامدين السائحين...إلى آخره.

{التَّائِبُونَ} من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، {الْعَابِدُونَ} أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: {الْحَامِدُونَ}.

يعني ذكر هذه الأوصاف {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ} فالتوبة تكون بترك ما نهى عنه، والعبادة تكون بفعل ما أمر به، جمعوا بين هذا وهذا، {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}، {الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ}.

ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: {السَّائِحُونَ} كما وصف أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك في قوله تعالى: {سَائِحَاتٍ} [سورة التحريم:٥] أي: صائمات.

أصل السياحة هي السير في الأرض، ساحَ في الأرض، ساح الماء بمعنى جرى وانساب، يعني الذهاب على وجه الأرض يقال له: سياحة، فهنا {السَّائِحُونَ} من نظر إلى هذا المعنى إلى أنه الذهاب فسره بتفسيرات ترتبط بهذا المعنى، فبعضهم قال: الذين يسافرون في طلب العلم، وبعضهم قال: هم الذين يجاهدون في سبيل الله، فسياحة هذه الأمة الجهاد، يتنقل من أرض إلى أرض مجاهداً في سبيل الله، وبعضهم قال: هم الدعاة إلى

الله، وبعضهم قال: هم الذين يعلمون الناس الخير، وأكثر أهل العلم –الجمهور - فسروه بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله - هنا، وهو الصيام قال: **ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع** هذا الذي عليه الجمهور، واختاره ابن جرير -رحمه الله -، ووجه الارتباط مع المعنى هنا أن مَن يترك الملاذ يشبه السائح، يعني الذي يذهب في الأرض فإنه يتقلل يترك كثيراً من ملاذه من النوم والراحة، والأكل وما اعتاده وما أشبه ذلك فيفطم النفس عن كثير من مألوفاتها، فقالوا هذا يشبه هذا، فالصائم يترك هذه الشهوات لله -عز وجل -، يترك ما اعتاده من أكل وشرب ونكاح طلباً لمرضاة الله، وهذه المعاني وغيرها مما ذكر أرجعه الحافظ ابن القيم -رحمه الله - إلى أصل واحد، ففسر السياحة بسياحة القلب بذكر الله -عز وجل - والتألّه له، ومحبته، والشوق إلى لقائه، واستحضار عظمته وما أشبه ذلك، فإذا وُجد هذا في القلب وجد فيه كل بر، ومعروف، وخصلة جميلة من جهاد وهجرة، وطلب للعلم، وبذل له، وما إلى هذا من المعاني كالصيام ونحوه، واحتج لهذا بأن الله -عز وجل - قال: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ}** [سورة التحريم:٥]، وذكر من الأوصاف **{سَائِحَاتٍ}** قال: وليس المراد بذلك أنهن مجاهدات أو يسافرن في طلب العلم، أو يُدمِنَ الصيام، فعائشة -رضي الله عنها - كانت تؤجل القضاء إلى شعبان، فمثل هذا قال: ليس هو المراد، وإنما المراد سياحة القلب، ولفتَ النظر إلى ما اقترن به وهو أن الله -عز وجل - هنا في هذه الآية قال: **{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ}** فهذا الاقتران التوبة والعبادة ترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به، **{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ}**، **{الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ}** ذكْرُ اللسان، وذكْرُ القلب، فسر السائحين بهذا بذكر القلب، التأله لله -عز وجل -، وما إلى ذلك من معانٍ ذكرناها، ثم قال: **{الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ}** الركوع والسجود قرينان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينان، وهكذا في وصف النساء الآتي ذكرَ الله -عز وجل -: **{تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ}** وذكر أيضاً السائحات.

وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

هنا قال: عطف هذه الأوصاف جميعاً بدون حرف العطف بدون "الواو"، وفي قوله: **{الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}** ذكر الواو فيحتمل أن يكون ذكر الواو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار أنها خصلة واحدة، يعني هما متلازمان، هي قضية واحدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي بعدها، **{وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}** باعتبار أنه جاورها فذكر الواو معه، وهذا لا يخلو من إشكال بالنسبة لقوله: **{وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}**، يعني هذا الجواب ما هو من الوضوح بمكان، القرب وحده قد لا يكون كافياً في تبرير هذا، والعطف بالواو يأتي في كلام العرب تارة تَذكرُ العطف بالواو، وتارة تُسقطُه في ذكر الأوصاف، ومنه قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي**

أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤]، فذكر بعض هذه الأوصاف بالواو، وبعض هذه الأوصاف بغير واو، كقوله: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ} [سورة غافر:٣]، فيذكر الواو مع هذا، ويحذفه في بعض المواضع، وبعضهم يقول: هذه الواو واو الثمانية، وإن كان بعض أهل اللغة كأبي علي الفارسي ينكر واو الثمانية أصلاً!!، ويثبتها آخرون {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [سورة الكهف:٢٢]، وفي قوله في الآية المتقدمة: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}، وهكذا {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [سورة الزمر:٧٣] فذكر الواو، والأمثلة على هذا كثيرة.

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة:١١٣-١١٤].

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضَرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: "أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله، -عز وجل-"، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك))، فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} قال: ونزلت فيه: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص:٥٦] أخرجاه[1].

وروى ابن جرير عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبرًا، فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت، قال: ((إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي))[2]، فما رئي باكيا أكثر من يومئذ.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} الآية: فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك فقال: ((فإنّ إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه))، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرُون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} الآية.

هذه الروايات وغيرها مما لم يذكره كثيرة جداً، منها الصحيح، ومنها الضعيف، وقد ثبت أنها نزلت في قصة أبي طالب لما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عن ذلك))، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وثبت أنها نزلت حينما سمع عليٌّ -رضي الله عنه- رجلاً يستغفر لأبويه، فأنكر عليه هذا،

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٩٨).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه -عز وجل- في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٦).

فاحتج بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- استغفر لأبيه، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت، وهكذا ما جاء من روايات منها ما صح، ومنها ما لم يصح في طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- الاستغفار لأمه فلم يؤذن له، فالشاهد أن الروايات التي صحت في سبب النزول متنوعة، فإن كان الزمان متقارباً فيمكن أن يقال: إن هذه الآية نزلت بعد هذه القضايا جميعاً، وإذا كان الزمان متباعداً فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، يمكن أن يقال: إن هذا حصل فنهى الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهل يتصور أن يقع هذا من أحد بعد نزول الآية؟ الجواب أن هذا يتصور من غير النبي -صلى الله عليه وسلم-، من الناس من يخفى عليه فتنزل الآية كما قال الحافظ -بغير هذا الموضع-: إن الآية تنزل تذكيراً بالحكم، يمكن هذا وأحياناً لا يقال، مثل ما ورد في سبب نزول **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** [سورة التحريم:١]، صح أنها نزلت بسبب العسل، وأيضاً بسبب تحريم الجارية، فهنا لابد أن يقال: من أهل العلم من يلجأ إلى الترجيح، أو يقال للجمع: إن الزمان كان متقارباً، ولا يمكن أن يقال: إن كان الزمان متباعداً حكم بتكرر الآية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يمكن أن يحرم ما أحل الله له مرتين، وهكذا ما جاء في قوله -تبارك وتعالى- في اللعان: **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}** [سورة النور:٦]، في قصة هلال بن أمية، وعويمر العجلاني، فلابد أن يقال هناك بأن الزمان كان متقارباً فنزلت الآية بعد هذه الوقائع جميعاً، ويمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لكل واحد منهما: ((البينة أو حدٌّ في ظهرك))[3]، فلو كانت نزلت عليه كان طلب منه اللعان -أي من الثاني- لكن هنا يتصور، ولكن هل يتصور في جميعها؟ يعني هل يتصور أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قاله في قصة أبي طالب، وهذا كان في مكة فنزلت سورة براءة من آخر ما نزل، والواقعة في مكة، وقد تنزل الآية من السورة قبل نزول أكثرها، ويحكم على السورة بأنها مكية أو مدنية باعتبار صدر السورة، باعتبار الأغلب، فالشاهد أن هذه الآية تكون نزلت في مكة في قصة أبي طالب، ثم أيضاً نزلت متأخرة جداً حينما أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يستغفر لأمه حينما مر بقبرها، وبعض الروايات التي وردت في هذا -وإن كان فيها ضعف- أنه حينما رجع من تبوك أراد أن يذهب، هذه فيها ضعف، يذهب إلى مكة فمر بقبرها، ومروره بقبرها كان متأخراً يعني إما أن يكون هذا في عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، أو يكون ذلك بعد فتح مكة، أو في حجة الوداع، فهو متأخر فهل يمكن أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- استغفر لعمه أبي طالب فنزلت الآية هنا، ثم أراد أن يستغفر لأمه، هذا فيه إشكال كبير، إلا أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستغفر لمّا مر على قبر أمه، وإنما قال: ((استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يؤذن لي)) استأذنه ولم يستغفر، فأما وقوع هذا من بعض الصحابة، وأنهم احتجوا بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- استغفر لأبيه، فيمكن أن يقال: إن هذا خفيَ عليهم فنزلت الآية تذكيراً، والله أعلم.

وقوله: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، برقم (٢٥٢٦)، وبرقم (٤٤٧٠)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور.

يعني أنه ختم له بالشقاوة، بالكفر كان يرجو أن يهديه الله -عز وجل- للإسلام.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم -رحمهم الله.

وقال عُبَيْد بن عمير، وسعيد بن جُبَيْر: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أيْ رَبي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ فأيّ خزْي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، أي: قد مُسخ ضِبْعانًا، ثم يسحب بقوائمه، ويلقى في النار.

الذِّيخ هو ذَكر الضبع، وبعضهم قيده بذَكر الضبع الذي يكون عليه شعر كثير، فالله -عز وجل- يقول: **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى}**، **{مَا كَانَ}** هذه في القرآن تأتي تارة للنهي، مثل هذا الموضع، وكقوله: **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ}** [سورة الأحزاب:٥٣]، وتارة تأتي بمعنى النفي كقوله: **{مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}** [سورة النمل:٦٠]، و**{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله}** [سورة آل عمران:١٤٥]، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال الله -عز وجل- في شأنه: **{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}**، وهو قوله: **{قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}** [سورة مريم:٤٧] فهذا هو الوعد، والله -عز وجل- يقول **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ}** [سورة الممتحنة:٤]، **{إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ}** فهذا استثناء، فيحتمل أن يكون هذا الاستثناء عائداً إلى الأسوة والقدوة، فلكم فيه أسوة إلا في هذا الأمر فإنه كان عن موعدة ثم بعد ذلك تبين له أنه عدو لله فترك الاستغفار له، فتكون أسوة فيها استثناء، ومن هذا أخذ بعض أهل العلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهذا لا شك فيه، لكن هنا من ناحية أن الله لما ذكر الأسوة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستثنِ في سورة الأحزاب، وفي إبراهيم استثنى، ومن أهل العلم من يقول: **{إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ}**: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، فما يكون ذلك استثناءً من الأسوة.

وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: الأوّاه: الدَّعَّاء.

باعتبار أن "أواه" صيغة مبالغة، فقال الدّعّاء وهذا الذي اختاره ابن جرير في معناه، الدّعّاء.

وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود، وقيل: المتضرع.

قوله: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ}** الدّعّاء بمعنى أنه استغفر لأبيه، والاستغفار دعاء طلب المغفرة، وكذا روي من غير وجه عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، وقيل: المتضرع، وهذا التضرع في معنى التذلل.

وقيل: الرحيم، وقيل: الموقن المؤمن، وقيل: المُسبح، وقيل غير ذلك.

وقيل غير ذلك كمن فسره بأنه فقيه، أو يعلم الناس الخير، أو -وهذا من أشهر ما قيل فيه، وهو معنى قريب وجيد- أنه كثير التأوه، وهذا تفسير على الظاهر، ظاهر اللفظ **{لأوَّاهٌ}** يعني كثير التأوه، ومعنى كثير التأوه أنه يتأوه كثيراً من ذنوبه، فالذي يتأوه بمعنى أنه يحصل له ويتنفس بطريقة يعني فيها قوة أو نحو هذا يتأوه،

وهكذا من يقول: أواه من ذنوبي، {لأوَّاهٌ} أي كثير التأوه، وابن جرير -رحمه الله- فسره بالدّعّاء، كثير الدُّعاء، والتضرع إلى الله -عز وجل-، والسؤال بالحزن والإشفاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١١٥ إلى الآية ١٢٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [سورة التوبة:١١٥ -١١٦].

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} الآية [سورة فصلت:١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} قال: بيان الله -عز وجل - للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذَروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعا أو عاصيًا فيما لم يؤمر به ولم يُنه عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى - هنا: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}، هذه جاءت بعد قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، فعامة أهل العلم على أن هذه الآية الثانية {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا} مرتبطة ومتعلقة بالآية الأولى، بمعنى أن الله -عز وجل - لا يؤاخذ ولا يحاسب من استغفر للمشركين قبل أن يبين الله -عز وجل - حكم ذلك، فإن الناس لا يلزمهم التكليف، ولا يقع عليهم حكم ولا يحاسبون على عمل إلا إذا سبق لهم من الله -عز وجل - البيان، وهذا معلوم من شروط التكليف العامة، فإن التكليف -كما هو معلوم - له شروط عامة، وله شروط خاصة، فمن شروطه العامة القدرة، يعني عند المكلف بمعنى الأهلية، وبلوغ الخطاب، وتبقى الشروط الخاصة في كل عبادة بحسبها مثل الصلاة: دخول الوقت، والطهارة وما أشبه ذلك، فهذه الآية عامة أهل العلم يقولون: تتعلق بما قبلها، وهي وإن كانت متعلقة بما قبلها إلا أن حكمها عام في كل شيء: أن الله -عز وجل - لا يكلف الناس ولا يؤاخذهم ولا يحاسبهم حتى يسبق منه بيان لهم، ولهذا جمع بين هذين المعنيين مجاهد -رحمه الله - هنا في هذا الأثر الذي نقله الحافظ ابن كثير -رحمه الله - قال:

بيان الله -عز وجل - للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة يعني أن هذا أوْلى ما يدخل تحت معنى الآية ثم قال: **وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة،** فهذا خفي من ظاهر الآية، ظاهر الآية **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}** في كل شيء فلا يطالبهم بشيء من الأوامر ولا يحاسبهم على شيء من الأعمال إلا إذا سبق منه بيان لهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

هذا المعنى الذي ذكره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله - **{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}**: أن هذا في التحريض لقتال المشركين، ويمكن أن يتعلق بما قبله أيضاً، وتكون "إنّ" هنا مشعرة بالتعليل فالله -تبارك وتعالى - يحكم ما يشاء ويقضي ما يريد لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه فحكمَ -سبحانه وتعالى - بأن لا يعذب أحداً من الناس حتى يبين له البيان الذي يقطع الحجة، **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء:١٥].

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة:١١٧].

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، و حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله -عز وجل -، قد عَوّدك في الدعاء خيرا، فادع لنا، قال: ((تحب ذلك؟))، قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلّت ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

وقال ابن جرير في قوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} أي: من النفقة والظهر والزاد والماء، {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} أي: عن الحق ويشك في

---

١ - رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (١٣٨٣)، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

دين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم، {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، {إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

في قوله: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}، {تَابَ عَلَيْهِمْ} من أهل العلم من قال: إن هذا يتعلق بالاستغفار {تَابَ عَلَيْهِمْ} من استغفارهم للمشركين، وبعضهم يقول: {تَابَ عَلَيْهِمْ} من التخلف في الغزو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله -عز وجل- هنا يقول: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} فهذه الآية تتحدث عن غزوة تبوك وما حصل فيها من الأمور التي تعرفونها من الشدة ومن تخلفوا، فالله -تبارك وتعالى- يذكر هنا توبته على النبي والمهاجرين والأنصار، وتوبة الله -عز وجل- على عبده تأتي بمعنى أن يوفقه إلى التوبة {تَابَ عَلَيْهِمْ} بمعنى وفقهم للتوبة؛ لأن التوبة تأتي بمعنى الرجوع، تاب بمعنى رجع، رجع إلى الله -عز وجل-: {تَابَ عَلَيْهِمْ} أي وفقهم إلى الرجوع إليه والإنابة، وأيضاً توبة الله -عز وجل- على العبد تأتي بمعنى رجوعه إلى عبده بالقبول وغفران الذنب والستر ستر الإساءة فلا يفتضح، وهذه التوبة لا يلزم أن تكون من ذنب، وإنما تكون من رجوع العبد من حال إلى حال ولو كان ذلك من قبيل فعل خلاف الأولى، فهنا يذكر الله -عز وجل- توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، فالله -تبارك وتعالى- تاب على أهل بدر، وقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم[٢]، وهنا في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات يذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار، فهذا لا يختص بموضوع الاستغفار للمشركين، {الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} والساعة تطلق على الوقت المحدد من الزمان كما هو معروف، وتطلق على الزمن وهو المراد هنا، ليست ساعة محددة معينة {فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} يعني وقت الشدة الحر والقيظ والحاجة والضيق {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} بماذا؟ فسره بعضهم بأن ذلك يرجع إلى الشدة التي أصابتهم أصابتهم شدة عظيمة كادت نفوسهم أن تتلف، وهذا فيه بعد؛ لأن الله -عز وجل- ذكر هنا "الزيغ" وعلقه بالقلوب، ولم يقل: تتلف نفوسهم، فلا يفسر ذلك بتلف النفوس بسبب الشدة التي أصابت الناس، ومنهم من فسره بمعنى آخر وهو أن هذه الشدة التي تحصل كادت أن تورث شكاً وخللاً في إيمان بعضهم!! كادت نفوسهم أن تضطرب ففي الشدائد تمحّص النفوس، وكما ذكر الله -عز وجل- في غزوة الأحزاب {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [سورة الأحزاب:١٠] تفرقت ظنونهم في الله -عز وجل-، فالمنافقون ظنوا الظنون الكاذبة السيئة، وأهل الإيمان حسنت ظنونهم بالله -جل جلاله-، وهناك معنى ثالث ولعله الأقرب من هذه المعاني: {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} وذلك بالقعود عن الغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع أنه يجب عليهم في ذلك الحين- وترك نصرة الله، ونصرة رسوله -صلى الله عليه وسلم- كراهية للشدة بسبب طول السفر وقوة العدو وكثرته، وشدة الوقت حر شديد مع طيب الثمار.

وقوله: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} ذكره مرة أخرى فقال: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} يمكن أن يكون هذا يرجع إلى الأول {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}، قال: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} كل ذلك عناية

---

٢ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الممتحنة، برقم (٤٦٠٨).

واهتماماً بشأن هذه التوبة، أو يكون المعنى الأول وفّقهم للتوبة {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} أي قَبِلها منهم، رجع عليهم بالقبول، ويمكن أن يكون متعلقاً بما قبله {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} يكون "الهاء" الضمير يرجع إلى أقرب مذكور {تَابَ عَلَيْهِمْ} مَن؟ هؤلاء الذين ذكروا {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} تاب على هؤلاء.

{وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [سورة التوبة:١١٨ -١١٩].

روى الإمام أحمد أن عبد الله بن كعب بن مالك -وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غَزاة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازًا، واستقبل عدوا كثيرًا فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان - فقال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، -عز وجل -، وغزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعَر.

أصعَر يعني أميل.

فتجهز إليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضِ من جهازي شيئا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله -صلى الله عليه وسلم - غاديا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فَصَلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يَتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزوُ، فهممت أن أرتحل فأدركهم -وليت أنّي فعلتُ - ثم لم يقدّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فَطُفتُ فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلا مَغْموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، -عز وجل -، ولم يذكرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ((ما فعل كعب بن مالك؟))، قال رجل من بني سَلِمة: حبسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر

في عَطْفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قد تَوجَّه قافلا من تبوك حضرني بَثّي.

بثي يعني الحزن

فطفقت أتذكر الكَذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قد أظلّ قادما، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعتُ صدقه، وصَبَّح رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له -وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فيقبل منهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: ((تعال))، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: ((ما خلَّفك، ألم تك قد اشتريت ظهرا؟))، قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أعطيتُ جَدَلا ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم بحديث كَذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يُسْخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تَجِدُ عَليّ فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله -عز وجل - والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك))، فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَب القوم وأجلَدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفت نحوه أعرَض، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت حائط أبي قتادة -وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدتُ فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط الشام، ممن قَدم

بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفِقَ الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيممت به التنور فَسَجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يأتيني، فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقالت له: يا رسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: ((لا ولكن لا يقربَنَّك))، قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وما أدري ما يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نَهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم - بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجُل فرسًا، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، يلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بتوبة الله، يقولون: لِيَهْنِك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال وهو يبرُق وجهه من السرور: ((أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أمّك))، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: ((لا، بل من عند الله))، قال: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: ((أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك)) قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كَذِبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما

بقي، قال: وأنزل الله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم - يومئذ ألا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه حين كَذَبُوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة:٩٥ -٩٦]، قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خُلفوا خُلّفنا عن أمر أولائك الذين قبل منهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله تعالى: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته(٣)، رواه صاحبا الصحيح: البخاري ومسلم بنحوه.

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا رُوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار.

هذا الحديث عظيم فيه أحكام فقهية، وفيه فوائد إيمانية كثيرة جداً، وقوله هنا: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} قال: **وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلفنا بتخلفنا عن الغزو**، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه بمعنى وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ليس المراد خُلفوا عن الغزو؛ لأنه لو كان كذلك لقال وعلى الثلاثة الذين تخلفوا، وإنما قال: {خُلِّفُوا} يعني أُخروا وأُرجئ أمرُهم، فالذين اعتذروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - قبل عذرهم واستغفر لهم وتركهم، وهؤلاء الثلاثة أرجأهم -صلى الله عليه وسلم -، وكما سبق أنه قال لكعب: **قم حتى يقضي الله في أمرك**، {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} فبقوا خمسين ليلة حتى نزل في شأنهم قرآن يتلى، وتاب الله عليهم.

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، أي: مع سعتها، فسُدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم - في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: {يَا

---

٣ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله -عز وجل -: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [سورة التوبة:١١٨]، برقم (٤١٥٦)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، برقم (٢٧٦٩).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا.

{اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} الكون مع الصادقين هنا ما المراد به؟ ابن جرير -رحمه الله- يقول: كونوا من أهل ولاية الله وطاعته يعني في الدنيا تكونوا مع الصادقين في الآخرة، في الجنة في العاقبة كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [سورة النساء:٦٩]، فهذا معنى، واحتج له بأن كون الإنسان في الدنيا مصاحباً لأهل الصدق مجتمعاً معهم ببدنه أن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً ما لم يكن متصفاً بأوصافهم متحلياً بأخلاقهم، عاملاً بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقال: إن المنافقين كانوا مع المؤمنين في الدنيا يصلون معهم ويخالطونهم ومع ذلك لم ينفعهم، وليسوا من الصادقين، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن تفسر الآية -والله تعالى أعلم- **{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** أي في حكمهم وعلى حالهم وصفتهم، تعملون بعملهم.

وقد قال الإمام أحمد عن عبد الله -هو ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا))[٤]، أخرجاه في الصحيحين.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** [سورة التوبة:١١٩]، وما يُنهَى عن الكذب، برقم (٥٧٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧)، واللفظ له.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٢٠ إلى الآية ١٢٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: **{مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** [سورة التوبة:١٢٠].

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم {لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ} وهو: العطش {وَلا نَصَبٌ} وهو: التعب {وَلا مَخْمَصَةٌ} وهي: المجاعة {وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ} أي: ينزلون منزلا يُرهبُ عدوهم {وَلا يَنَالُونَ} منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم - أعمالا صالحة وثوابا جزيلا {إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} كما قال تعالى: {إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا} [سورة الكهف:٣٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ}** "ما كان" أحياناً تأتي مراداً بها النفي كقوله تعالى: **{مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}** [سورة النمل:٦٠]، وأحياناً تأتي مراداً بها النهي كما في هذا الموضع، وتدل على الامتناع كما مضى في بعض المناسبات تارةً الامتناع الشرعي، وتارةً الامتناع العادي، يعني عادة، وتارةً الامتناع العقلي، وقوله: **{وَلا مَخْمَصَةٌ}** قال: **هي المجاعة**، وبعضهم قيده بالمجاعة التي يحصل معها الجوع ويحصل معها ضمور البطن، وقوله: **{إِلا كُتِبَ لَهُمْ}** قال الحافظ -رحمه الله-: **بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم - أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً** بمعنى أن هذه الآية ذكر فيها أموراً تحصل للإنسان من غير أن يتطلبها أو أن يقصدها، فهي تحصل له من غير إرادته تعب وعطش جوع وما أشبه هذا فهذه لا يطلبها الإنسان، ولا يقصدها بل تحصل له من غير إرادة، فهنا قال: **{إِلا كُتِبَ لَهُمْ}** فهذه الأعمال قال: **ليست داخلة تحت قدرتهم -وإنما هي ناشئة عن أفعالهم - أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً**، أما الأعمال الأخرى التي ذكرها **{وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً}**، **{وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا}** [سورة التوبة:١٢١] في تلك قال: **{إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ}**، فيه ففرق في العبارة بين هذا وذاك، وهنا قال: **{إِلا كُتِبَ لَهُمْ}**، وهناك **{إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ}** وهو من أعمالهم وحسناتهم التي عملوها.

{وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة التوبة:١٢١].

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله {نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً} أي: قليلا ولا كثيرا {وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا} أي: في السير إلى الأعداء {إِلا كُتِبَ لَهُمْ} ولم يقل ها هنا "به" لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، -رضي الله عنه -، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، وروى عبد الله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه -، قال: جاء عثمان إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - بألف دينار في ثوبه حتى جَهَّز النبي -صلى الله عليه وسلم - جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي -صلى الله عليه وسلم -، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم - يقلبها بيده ويقول: ((ما ضَرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم))، يرددها مرارا[١].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ} الآية: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعدًا إلا ازدادوا من الله قربا.

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:١٢٢].

هذا بيان من الله تعالى لمَا أراد من نفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك.

نفير الأحياء يعني أحياء العرب القبائل التي كانت حول المدينة.

فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم -؛ ولهذا قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} [سورة التوبة:٤١]، وقال: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ}، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده -صلى الله عليه وسلم - تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي -صلى الله عليه وسلم - وحده، {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} يعني: عصبة، يعني: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي -صلى الله عليه وسلم -، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه، فتمكث السرايا

---

١ - رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه -، برقم (٣٧٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٦٣٠)، وقال محققوه: "إسناده حسن من أجل كثير -وهو ابن أبي كثير - مولى عبد الرحمن بن سمرة، ضمرة: هو ابن ربيعة الفلسطيني"، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٦٠٦٤).

يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلّموا السرايا إذا رجعت إليهم {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

في هذه الآية كما ترون هذا الخلاف هل هي منسوخة؟ أو محكمة؟ والخلاف واقع في المراد بالطائفة التي تتفقه، هذه القاعدة أو الخارجة، فهنا قال: **فنسخ ذلك بهذه الآية** يعني **{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}**، و**{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ}**، فنسخ بـــ**{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ}** ومن أهل العلم من يقول: إنها مُحكمة؛ لأنه لا دليل على النسخ، ولا يوجد تعارض من كل وجه؛ لأنه يمكن الجمع بين هذه الآية وبين تلك الآيات، فعند ابن جرير -رحمه الله-، ومن وافقه أن تلك الآيات هي حينما استنفرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا أمرهم بالخروج واستنفرهم فلا يسعهم المقام والبقاء بعده -عليه الصلاة والسلام-، وأما هذه الآية فحيث لم يُستنفروا فلا يخرج جميعهم، وإنما يخرج بعضهم ويبقى آخرون، ثم هنا قال: **وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما ينزل عليه من الوحي، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء،** فقال هنا: ليتفقه الخارجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصار **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}** يرجع إلى أقرب مذكور، وهم الذين خرجوا، فالتفقه يكون بملازمتهم ومصاحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعرفة ما ينزل من الوحي، ليعرفوا أحكام الدين، وبعد ذلك هنا فسر الإنذار قال: **{وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ}** يعني ينذرونهم بما يحصل من أمر العدو وبما شاهدوا من أمره هذا معنى، وبعضهم يقول: هذا الإنذار بما حصل لهم من التفقه، والفهم بمصاحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقال هنا: تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه، وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء، ومن أهل العلم من قال: **{فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ}** أي لطلب العلم ليتفقهوا في الدين، وهذا إذا كانوا لا يجدون العلم في بلادهم التي يقيمون فيها، فيسافرون في طلبه، ولكن هذا فيه بُعد، فالآيات تتحدث عن الجهاد، ولفظ النفير يدل على هذا المعنى، فإنه إنما يعبر به عن الجهاد، كقوله -تبارك وتعالى-: **{مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ}** [سورة التوبة:٣٨]، ثم ذكر هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وما كان المؤمنون لينفروا كافة، قال: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً، ويتركوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده فعكس المعنى الأول، هذا المعنى الجديد الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو اختيار ابن جرير: أن التفقه يحصل بالقعود، في المعنى الأول التفقه يحصل بالخروج مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجهاد ومصاحبته، فيعرفون ما نزل عليه، ويعرفون سنته -عليه الصلاة والسلام-، وأحواله في الحرب وغيرها، وهذا المعنى أن التفقه يكون بالقعود وليس بالنفير، فتخرج طائفة، يعني السرايا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يبعث سراياه، وكان المسلمون يتسارعون ويتسابقون إلى الخروج في هذه السرايا فلا يقعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وحده في المدينة، وإنما يخرج من يخرج من هذه السرايا ممن تقوم بهم الكفاية، ويبقى آخرون مع النبي -صلى الله

عليه وسلم - يتفقهون في الدين، فإذا رجع إليهم أصحابهم الذين خرجوا في تلك السرايا فقّهوهم وعلّموهم، فهذا معنى كما ترون هو عكس المعنى الأول تماماً، واحتج له ابن جرير بأن التخلف عن النبي -صلى الله عليه وسلم - لا يجوز؛ لأن الله عاتبهم على ذلك حيث استنفرهم، فإذا خرج النبي -صلى الله عليه وسلم - للجهاد وجب عليهم أن يخرجوا معه، فذلك بينه قوله -تبارك وتعالى -: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ} هذا إذا خرج ثم بين لهم الحال إذا بقي في المدينة، قال: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} الآية التي قبلها إذا خرج النبي -صلى الله عليه وسلم - فليس لهم أن يتخلفوا عنه في هذه السرايا فيبقى النبي -صلى الله عليه وسلم - وحده، فتبقى معه طائفة من أجل أن يتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، قال هنا: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} قال: يعني السرايا، وهنا قال: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون، {لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ} ابن جرير -رحمه الله - حمل هذا على التي تخرج، والإنذار بما شاهدوا من فعل الله -عز وجل - بالكفار حينما يشاهدون غلبة المسلمين وهزيمة الكفار وما أشبه ذلك، فينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم؛ لئلا يحل بهم ذلك، فتقع بهم نقمة الله -عز وجل -، وهذه معانٍ تحتملها الآية، وابن القيم -رحمه الله - كان يرى أنه المعنى الأرجح -ونسبه إلى الأكثر -: أن الطائفة التي تتفقه هي التي تقعد، وقال: هذا ما يحصل به قوام الدين، وهو الجهاد والعلم، فطائفة تخرج تجاهد، وطائفة تبقى تتفقه وتتعلم.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم -، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي -صلى الله عليه وسلم -، فقال الله -عز وجل -: {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} يبتغون الخير، {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ} الناس كلهم {إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الجيوش، أمرهم الله أن يغزوا بنبيِّه -صلى الله عليه وسلم -، وتقيم طائفة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

قوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - على مُضر بالسنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبِل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلّوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - وأجهدوهم، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله إلى عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} الآية.

يعني الإنذار هنا عن الخروج إلى المدينة، وهذا الكلام بعيد، ولا يدل عليه ظاهر القرآن، وكان حقه أن يحذف من هذا المختصر، يعني هنا الله -عز وجل - يقول: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} على هذا القول

الذي لا يوجد ما يدل عليه: أن المقصود هؤلاء الذين جاءوا إلى المدينة بسبب الجوع، وهم لا يقصدون الهجرة ولا الإيمان، هذا بعيد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة:١٢٣].

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته -عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجَّة الوداع، ثم عاجلته المنية -صلوات الله وسلامه عليه - بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق -رضي الله عنه -، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدةِ الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيّه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدًا وقُربا، ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار، فكُسى الإسلامُ رياسة حلة سابغة، وأُمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجةُ الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علَوا أمةً انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}، وقوله تعالى: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كما قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة:٥٤]**، وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** [سورة الفتح:٢٩]**، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}**

[سورة التوبة:٧٣، وسورة التحريم:٩]، وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخَسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يُمانَعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التوبة من الآية ١٢٤ إلى الآية ١٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [سورة التوبة:١٢٤-١٢٥].

يقول تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} فمن المنافقين {مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد بُسط الكلام على هذه المسألة في أول "شرح البخاري" -رحمه الله-، {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ} [سورة الإسراء:٨٢]، **وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** [سورة فصلت:٤٤]، **وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غُذي بما غُذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} يقول الحافظ -رحمه الله-: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} **فمن من المنافقين من يقول: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}** أي يقول بعضهم لبعض {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} هذا هو المتبادر، ويحتمل أن يكون ذلك موجهاً للمؤمنين، بمعنى أن المنافقين يسألون المؤمنين {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} يقولون ذلك على سبيل التهكم، والاستهزاء، والسخرية، وهذا قال به بعض السلف: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}، وقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: المقصود بـــ"المرض" هنا: مرض الشك، والنفاق، والمرض في القرآن يأتي بمعنى الشك، والنفاق، ويأتي أحياناً مراداً به ضعف الإيمان، وذلك كما في قوله -عز وجل- في سورة الأحزاب -مع أحد المعاني المشهورة-: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}[سورة الأحزاب:١٢] فالذين في قلوبهم مرض هناك بعضهم يقول: هذا من عطف الأوصاف فهي عائدة إلى موصوف واحد، هذه أوصاف المنافقين، وبعضهم يقول المراد بـــ{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢] في آية الأحزاب: هم ضعفاء الإيمان، {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} والمقصود بالمرض في هذا الموضع الوحيد في القرآن: هو الميل المحرم إلى النساء،

فالشاهد أن الله -عز وجل- يقول: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا} المقصود به هنا: مرض النفاق والشك {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا} قال: أي **شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم**، وهكذا يمكن أن يقال: زادتهم سوءًا وخبثاً، وهكذا قول من فسره بأن المراد زادتهم إثماً إلى إثمهم، وهذا من باب التفسير باللازم؛ لأنه إذا زادتهم رجساً أي سوءًا وخبثاً، أو زادتهم شكاً أو نحو هذا فإن هذا يلزم منه أن تزيدهم إثماً، وهذه الآيات التي هي هدايات وشفاء لأهل الإيمان لم تجد محلاً قابلاً فأثرت هذا التأثير.

{أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة:١٢٦-١٢٧].

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون {أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ} أي: يختبرون {فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكّرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسَّنَة والجوع.

يعني {يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} قال: **بالسَّنَة والجوع** لكن هل هذا حاصل أن المنافقين يفتنون على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- {فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} بالسَّنة والجوع حتى بعدما وسع الله -عز وجل- على المسلمين؟، ومعلوم أن المنافقين أحرص ما يكونون على دنياهم، فهم يشحون بالنفقة، وأحرص ما يكونون على أخذ الغنيمة كما قال الله -عز وجل-: {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} [سورة الأحزاب:١٩] يعني المال، ويقول: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} يعني يقولون: أعطونا من الغنيمة، أعطونا من مال الله، فهم بهذه المثابة والله -عز وجل- وصفهم قال: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [سورة المنافقون:٤]؛ لشدة عنايتهم بهذه الأجسام فهم مُترفون لها مُنعِّمون لها، هي غايتهم، ومنتهى مطالبهم، فتفسيره بأنهم يفتنون بالجوع {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} قد لا يخلو من إشكال، وبعضهم قال: إن ذلك يكون بالغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهم يبتلون بهذا وهو أثقل ما يكون عليهم؛ لأنه فيه مشقة {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} [سورة البقرة:٢١٦] وهذا خلاف مقصود المنافق تماماً، وكذلك بما يرون في هذا الغزو من ظهور الإسلام، وعلو المسلمين ويرون من دلائل صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- أشياء، فهذا معنى ذكره بعض أهل العلم، وذكر بعضهم أن هذا الفتْن يكون بما يحصل لهم من العوارض كالمرض الذي لا يخلو منه إنسان، فهو يحصل لهم، وهذه المعاني محتملة، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إنه يجوز أن يكون ذلك بالغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو بالجوع يحصل لهم، شدة تقع أو نحو هذا.

وقوله: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} أي: تَلَفَّتُوا.

يعني بعضهم فسر {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} فسر نظر بمعنى: قال، ولكن هذا على خلاف الظاهر، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} ويحتمل أن يكون هذا النظر يدل على هذا المعنى، يعني ينظرون

نظرة يتساءلون فيها هل يراكم أحد؟ فينسلوا دون أن يشعر بهم، ويحتمل أن يكون هناك تقدير معلوم من السياق {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ}.

{هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا} أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه.

هنا فسر الانصراف بأنه انصراف عن الحق، ولا شك أن هذا حاصل لهم، ولكن الظاهر المتبادر أنهم انصرفوا عن المجلس الذي تتلى فيه هذه الآيات، لاسيما إذا كانت هذه الآيات تتحدث عن أوصاف المنافقين، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} فهذه قرينة تدل على أن انصرافهم هو انصراف عن المجلس وإلا ما نظر بعضهم إلى بعض يتساءلون {هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ} فهم يريدون الانسلال من المجلس دون أن يُشعر بهم، فيفسر الانصراف بهذا المعنى، وهو متضمن للانصراف الآخر، فإن انصرافهم عن مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما تنزل الآيات أو تتلى هو انصراف عن قبول الحق، فهم لا يريدون سماعه أصلاً؛ لأن ذلك يشق عليهم ويثقل عليهم.

كما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [سورة المدثر:٤٩ -٥١].

كما في الآية التي قبلها {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} بمعنى أنهم لا يتأثرون ولا ينتفعون فتزيدهم رجساً، وهكذا هنا {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون}.

وقوله تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [سورة المعارج:٣٦ -٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} كقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف:٥]، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

يعني أنهم جمعوا بين أصلي الضلال: الانصراف عن الحق فلا يقبلون عليه ولا يسمعونه، والأمر الثاني انعدام الفقه والفهم عن الله -تبارك وتعالى-، إذا كان الإنسان لا يسمع الحق أصلاً أو لا يريد سماعه، وإذا سمع فإنه لا يفهم لا يفقه، فمثل هذا متى يسلك الطريق ويعرفها ويتبصر بما ينفعه؟ لا يمكن هذا، إذا كان الإنسان منصرفاً عن الحق، وإذا كان لا يريد سماعه أصلاً فإنه لا يمكن أن يعرفه، وإذا سمعه ولكنه لا فقه له فإنه لا يعرف الحق، فهؤلاء جمعوا بين الإعراض عن الحق وعن سماعه، وبين قلة الفقه، فالأول يدل على سوء قصدهم لا يقصدون الحق ولا يريدونه، والثاني يدل على قلة فهمهم واستيعابهم، فأنّى لهم بمعرفة الحق وتمييزه من الباطل، وقوله: {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} يحتمل أن يكون من قبيل الدعاء عليهم، {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} دعا عليهم بصرف القلوب، وصرف القلوب بمعنى أن تكون صادة عن قبول الحق، فلا تنفذ إليها موعظة، ولا تقبل عن الله -تبارك وتعالى-، يكون القلب منكوساً مصروفاً {جَزَاءً وِفَاقًا} [سورة النبأ:٢٦].

والتصدي يعني الإقبال على الشيء مع المناوءة، ليس ذلك بأصل معناه في اللغة كما قال الله -عز وجل -: {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [سورة عبس:٦]، يعني تقبل عليه وتوجه كلامك ودعوتك إليه {تَصَدَّى} فالتصدي هو بمعنى الإقبال عليه الاهتمام به.

وفي الآية السابقة في قوله -تبارك وتعالى -: {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} في قراءة حمزة وهي قراءة متواترة بالتاء {أَوَلاَ تَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ}، فيكون الخطاب موجهاً للمؤمنين، وفي بعض القراءات الشاذة {أولا ترى} يعني يا محمد -عليه الصلاة والسلام.

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة التوبة:١٢٨ -١٢٩].

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم -عليه السلام -: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ} [سورة البقرة:١٢٩]، وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [سورة آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

يعني على هذا التفسير الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله - يكون الخطاب للعرب {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أيها العرب يعني يتكلم بلغتكم، وتعرفونه تعرفون أمانته، ولم يكن خافيا عليكم شأنه، ويحتمل أن يكون الخطاب لعموم الناس كما قال الزجاج، {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي من جنسكم ليس من الملائكة، تفهمون عنه، وتقتدون به، فهذا المعنى تحتمله الآية {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} يعني أيها الناس من البشر، والمعنى المشهور الذي عليه عامة أهل التفسير أنه خطاب للعرب، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم - خاصة بالعرب، ولكن هذا كما قال الله -عز وجل - على سبيل الامتنان، يمتن على هؤلاء العرب الأميين ببعثه -صلى الله عليه وسلم - منهم، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢] فهو واحد منهم متصف بصفتهم وهي الأمية، يسهل عليهم الأخذ عنه، وفهم خطابه، لم يبعث إليهم فيلسوفاً لا يفهمون ما يقول، ولم يبعث إليهم أعجمياً لا يعرفون لغته، ولم يبعث إليهم ملَكاً لا يستطيعون مخاطبته ومعايشته والاقتداء به.

وقوله: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} أي: يعز عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمتَه ويشق عليها؛ وفي الصحيح: ((إن هذا الدين يسر))[1]، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} يعني العنت الذي يحصل لكم يشق عليه، وهذا العنت ابن جرير -رحمه الله - فسره بالضلال، {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} ولا شك أن الضلال من أعظم العنت الذي يحصل للإنسان، ولكن هنا العنت يشمل كل ما يصدق عليه، فالعنت يشمل ما يحصل للإنسان من المشقة والكلفة غير المعتادة، ولهذا فسره بعضهم بما يحصل من القتل الذي يقع عليهم {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}، وكل عنت يحصل لأهل الإيمان

---

١ - رواه النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر، برقم (٥٠٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٦١).

فذلك يشق على النبي -صلى الله عليه وسلم -، وبعضهم فسره بما هو أعم من هذا بمعنى أنه لا يختص بأهل الإيمان، إذا كان الخطاب لعموم الناس لا يختص ذلك بالمؤمنين، {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} ما يحصل لكم من العنت، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله -: من الضلال فهو رحيم بالناس يحب لهم الهداية والإيمان، ويكره لهم الكفر، وكأن تفسير ابن جرير -رحمه الله - هو من تفسير الشيء بسببه بمعنى أن الضلال الذي يحصل لهؤلاء الناس يكون سبباً لعذابهم، وشقوقهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}.

{حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إن الله لم يُحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطَّلِعها منكم مُطَّلِع، ألا وإني آخذ بحُجَزِكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش، أو الذباب))[٢].

وقوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} كما قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} [سورة الشعراء: ٢١٥ -٢١٧].

وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة.

{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} هذه للحصر كما هو معلوم؛ لأن تقديم المعمولات على عواملها يفيد هذا المعنى فهنا قدم الجار والمجرور أصل الكلام "رءوف رحيم بالمؤمنين"، قال: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} فهذا يفيد الحصر، والرأفة هي أرق الرحمة، {رَءُوفٌ رَحِيمٌ} مثل ما يقال في الشفقة مع الخوف، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} وهذا يختص بأهل الإيمان كما هو صريح في الآية، وأما مع الكفار فكما وصفه الله -عز وجل - وأصحابَه، {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح:٢٩]، فإذا كان هذا حال أتباعه -عليه الصلاة والسلام - فهو أحق بهذا الوصف، والله -عز وجل - وصف المؤمنين بمثل هذه الأوصاف، ويأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم - {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:٧٣، وسورة التحريم:٩]، {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة:١٢٣].

{فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ} أي: الله كافِيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [سورة المزمل:٩].

{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

هذا على قراءة الجمهور {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} بالكسر فيكون العظيم صفة للعرش، وفي القراءة الأخرى بالرفع (العظيمُ) يكون ذلك عائداً إلى الله -عز وجل -، كما في قوله -تبارك وتعالى -: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٣٧٠٤)، وقال محققوه: "إسناده حسن".

فيكون ذلك من صفة العرش، و{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [سورة البروج:١٥] فيكون ذلك من صفة الله -تبارك وتعالى.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما - عن أبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أَنفُسِكُمْ} إلى آخر السورة.

وفي الصحيح أن زيدا قال: فوجدت آخر سورة "براءة" مع خزيمة بن ثابت[٣] -أو: أبي خزيمة - وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

قول أُبيّ بن كعب -رضي الله عنه -: آخر آية نزلت من القرآن، قاله في مناسبة، وذلك أنهم حينما كانوا يجمعون القرآن وكانوا لا يقبلون شيئاً إلا ما جاء عليه شهيدان، وفُسر "الشهيدان" بالكتابة والحفظ كما قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله -، وقيل: شاهدان يشهدان أن ذلك مما كتب بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فالشاهد أن هذه الآية {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أَنفُسِكُمْ} هم يطلبون أن يكون هذا مما كتب بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم -، ويشهد على ذلك شاهدان، ويطلبون الحفظ والكتابة، والذين يحفظونها كثير لكن طلبوها مكتوبة، والشاهد أن خزيمة بن ثابت الذي جعل النبي -صلى الله عليه وسلم - شهادته بشهادة رجلين جاء بها فلما أتى بها تذكروها، وهذا على قول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: إن ذلك الشرط يعني الذي اشترطوه الحفظ والكتابة أدى إلى أنهم لم يجدوها إلا عند خزيمة بن ثابت، فهنا حديث أُبي بن كعب قاله في هذه المناسبة: إنها آخر ما نزل من القرآن، يعني من سورة براءة، أي أنه لا يقصد بذلك أنها آخر ما نزل من القرآن بإطلاق، وغاية ما هناك أنه لو قصد أنها آخر ما نزل من القرآن فإن هذا يكون من قبيل الاجتهاد، وقد خَلَفَ ما تعلمون: أن المشهور أن آخر ما نزل هي الآيات التي في سورة البقرة آية الربا، وآية الديْن، {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [سورة البقرة:٢٨١] فهذه تكون آخر ما نزل من القرآن من سورة براءة ولهذا جعلوها في آخرها، وخزيمة بن ثابت -رضي الله عنه - غير أبي خزيمة.

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣١٠٣)، وأحمد في المسند بنحوه، برقم (١٧١٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق، ولانقطاعه".